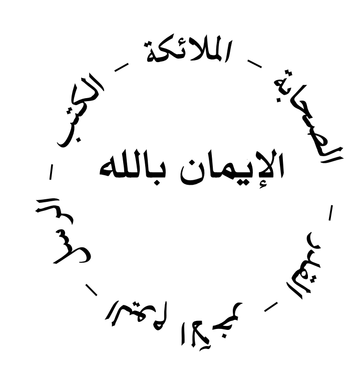


الجامع الصحيح لأدلة الاعتقاد



❑ كتاب الإيمان بالكتب ❑

تأليف

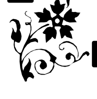
إبراهيم سلام

إشراف

أبي إسحاق السمنودي

مجدي بن عطية حمودة

المجلد الثالث



الجامع الصحيح لأدلة الاعتقاد

كتاب الإيمان بالكتب

الطبعة الثانية

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



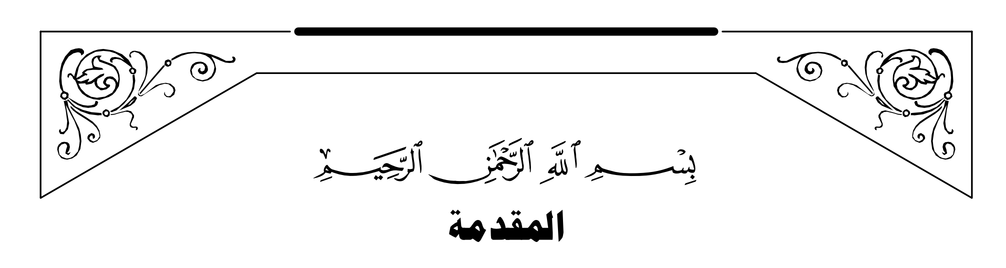
رقم الإيداع: ٨٢٨١ / ٢٠١٥م

الناشر

المكتب العلمي لتحقيق التراث

٠١٠٠٢٠٥٧٢٣٩


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن الكتب هي من كلام الله ﷻ، وكلام الله ﷻ لا ينحصر ولا ينتهي؛ لأنه لا بداية له ولا نهاية له، والمخلوقات كلها محصورة؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم آيتان تدلان على سَعة كلام الله وكثرته، وأنه لا يحاط به، وأن البحور الزاخرة لو تحولت مدادًا يُكتب به لنفدت البحور ولو ضوعفت أضعافًا مضاعفة؛ لأنها لو ضوعفت مع سعتها وكثرة مائها فهي محصورة، وكلام الله ﷻ لا ينحصر.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧] فهاتان الآيتان الكريمتان دالتان على أن كلام الله لا ينحصر.

والقرآن من كلام الله، والتوراة من كلام الله، والإنجيل من كلام الله، والزبور من كلام الله، وكل كتاب أنزله الله ﷻ فهو من كلامه، وكل كلام سمعه منه ملك أو إنس فإنه من كلامه، ومعلوم أن الرسول ﷺ كلمه الله وأن موسى كلمه الله، فكل منهما كليم الله، وإذا دخل أهل الجنة فإنه يكلم أهل الجنة.

والإيمان بالكتب يكون بأن نصدق بما جاء في الكتاب والسنة من كتب أنزلها الله، وكذلك ما لم يذكر لنا؛ لأنه ليس كل كتاب قص علينا، وكل رسول قد أنزل الله عليه كتابًا كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فنؤمن بالذي سُمي باسمه، والذي لم يُسَمَّ نؤمن به على سبيل الإجمال وإن لم نعرف اسمه، فالتوراة والإنجيل والزبور كلها كتب منزلة، فالزبور كتاب أنزله الله على داود، وكتاب أنزله الله على موسى وهو التوراة، وكتاب أنزله الله على عيسى وهو الإنجيل، وكذلك صحف إبراهيم وموسى، وهذه هي التي سميت في القرآن، وغيرها لم يُسَمَّ، ونحن نؤمن بالجميع، ونقول: إن هذه الكتب من جملة كلام الله.

ونعلم أن هذه الكتب مشتملة على ما فيه الخير والسعادة لمن أنزلت عليه، وأن مَن أخذ بها فقد سعد، ومَن أعرض عنها فقد خاب وخسر(١).

(١) «شرح سنن أبي داود» (٥٢٨/ ٦) للعباد.

تعريف الكتب

في اللغة: جمع (كتاب) بمعنى (مَكتُوب).

قال أبو عُبَيدَةَ وغيره من أهل اليمنِ: يسمى الكتاب كتابًا لتأليف حروفه وانضمام بعضها إلى بعض، وكلُّ شيءٍ جمعتَهُ وضممتَ بعضَهُ إلى بعض فقد كتبتَهُ. ويُقالُ للخيلِ إذا جُمِعَت وضُمَّ بَعضُها إلى بعضٍ: كَتِيبَة(١).

ويُطلق الكتاب على الْمُنَزَّلِ وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله(٢).

والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: ١٥٣] يعني صحيفة مكتوبًا فيها(٣).

وفي الشرع: الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق، وهداية لهم؛ ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة(٤).

❊ ❊ ❊

---

(١) «لسان العرب» ك ت ب، و«رسالة الخط والقلم» (ص: ٣) لأبي محمد الدّينوري.

(٢) «المصباح المنير» للفيومي (٢/ ٥٢٤).

(٣) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» لنخبة من العلماء (ص: ١٢٧).

(٤) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٥/ ١٢٠)، «ومؤلفات الفوزان» (١٦/ ٨٣). و«التفسير الوسيط» مجمع البحوث (١/ ٢٦٦).



أدلة الإيمان بالكتب

أولًا: الأدلة من الكتاب:

لقد تنوعت صيغ الأدلة في القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالكتب، فتارة تأتي في:

١- **صيغة الأمر المجمل** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦](١)

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥](٢).

---

(١) قال الإمام الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣١٢): أي آمِنوا بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدِّقوا بما جاؤوهم به من عند الله، وصدّقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسولٌ، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم، وصدِّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن، وآمِنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل وهو التوراة والإنجيل.

(٢) وقال البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٨): ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أَيْ: آمَنْتُ بِكُتُبِ اللَّهِ كُلِّهَا.

وقال ابن عطية في «تفسيره» (٥/ ٣٠): ثم أمره تعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله، وهو أمر يعم سائر أمته.

وقال أبو السعود في «تفسيره» (٨/ ٢٧): ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيَّ كتابٍ كان من الكتبِ المنزلةِ لا كالذينَ آمنُوا ببعضٍ منها وكفرُوا ببعضٍ. وفيه =

ومرة مفصلًا، منها قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦][(١)].

٢- وقد تأتي بوصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: ٢ - ٤][(٢)].

= تحقيقٌ للحقِّ وبيانٌ لاتفاق الكتبِ في الأصل وتأليفٌ لقلوب أهلِ الكتابينِ وتعريضٌ بهم.

(١) قال ابن عاشور: وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْأَمْرِ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِعْلَانُ بِهِ وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَضِيلَةِ الظَّاهِرَةِ بِحُصُولِ فَضِيلَةِ سَائِرِ الْأَدْيَانِ لِأَهْلِ هَاتِهِ الْمِلَّةِ، وَلِمَا فِيهِ مِنِ الْإِنْصَافِ وَسَلَامَةِ الطَّوِيَّةِ؛ لِيَرْغَبَ فِي ذَلِكَ الرَّاغِبُونَ وَيَكْمَدَ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْمُعَانِدُونَ». «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٨).

(٢) قال ابن أبي زمنين في «تفسيره» (١/ ١٢١): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل والزبور؛ يصدقون بها ولا يعملون إلا بما في القرآن.

وقال البغوي في «تفسيره» (١/ ٦٣): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَسَائِرُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣٤): ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ثم شهد لهم جميعًا بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الايمان الخمسة التي لا يكون أحد مؤمنًا إلا بها، وهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ووسطها وآخرها: فقال فى أولها: =

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥][(١)].

= ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فالايمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله يتضمن الايمان بالكتب والرسل والملائكة ثم قال ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ والإيمان بالله يدخل في الإيمان بالغيب وفي الإيمان بالكتب والرسل فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس وقال في وسطها: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) قال أبو السعود في «تفسيره» (١/ ٢٧٤): ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ لمّا ذُكر في فاتحة السورةِ الكريمة أن ما أُنزل إلى الرسول ﷺ من الكتاب العظيمِ الشأنِ هدًى للمتّصفين بما، فُصِّل هناك من الصفات الفاضلة التي من جملتها الإيمانُ به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهيةِ وأنهم حائزون لأثَرَتي الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقيق اتصافِهم بها إذ ليس فيما يُذكر في حيز الصلةِ حُكمٌ بالفعل. . .

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾ ومزيدُ توضيحٍ لاندراجه في الرسل المؤمَنِ بهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والمرادُ بما أُنزل إليه ما يعم كله وكل جزء من أجزائه، ففيه تحقيق لكيفية إيمانه ﷺ وتعيين لعنوانه أي آمن عَلَيْهِ السَّلَامُ بكل ماأنزل إليه ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ والكتُب وغير ذلك من حيث إنه منزلٌ منه تعالى، وأما الإيمانُ بحقية أحكامِه وصدقِ أخباره ونحوُ ذلك فمن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة، وفي هذا الإجمال إجلالٌ لمحله ﷺ وإشعارٌ بأن تعلّقَ إيمانِه بتفاصيلِ ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه منَ الظهورِ بحيثُ لا حاجة إلى ذكره أصلاً. . .

﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي من حيث مجيئُهما من عنده تعالى لإرشاد الخلقِ إلى ما شرَع لهم من الدين بالأوامر والنواهي، لكنْ لا عَلى الإطلاقِ بل على أن كلَّ واحدٍ من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معيّنٍ من أولئك الرسلِ عليهم الصلاة والسلام حسبما فُصِّل في قولِه تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ الآية =

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

٣- وقد تأتي بصيغة التوعد والوصف لمن لا يؤمن بما فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

= ولا على أن مناطَ الإيمان خصوصيةُ ذلك الكتاب أو ذلك الرسولِ، بل على أن الإيمانَ بالكل مندرجٌ في الإيمان بالكتاب المُنْزل إلى الرسول ﷺ ومستنِدٌ إليه لِما تُليَ من الآية الكريمة ولا على أن أحكامَ الكتبِ السالفة وشرائعَها باقيةٌ بالكلية ولا على أن الباقيَ منها معتبرٌ بالإضافة إليها، بل على أن أحكامَ كلِّ واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتابٍ آخرَ ناسخٍ له وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث إنها من أحكام هذا الكتاب المَصونِ عن النسخ إلى يوم القيامة.

وإنَّما لَمْ يُذكر هَاهُنا الإيمانُ باليوم الآخر كَما ذُكر في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ لاندراجه في الايمان بكتبه.

وقرئ «وكتابه» على أن المرادَ به القرآنُ أو جنسُ الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والفرقُ بينه وبين الجمع أنه شائعٌ في أفراد الجنس والجمعِ في جموعه ولذلك قيل: الكتابُ أكثر من الكتب.

وهذا نوعُ تفصيلٍ لَما أُجمل في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ اقتُصر عليه إيذانًا بكفايته في الإيمان الإجمالي المتحقِّق في كل فردٍ من أفراد المؤمنين من غير نفيٍ لزيادةٍ ضرورةَ اختلاف طبقاتهم وتفاوتِ إيمانهم بالأمور المذكورة في مراتب التفصيل تفاوتًا فاحشًا، فإن الإجمالَ في الحكاية لا يوجب الإجمالَ في المحكيِّ، كيف لا وقد أُجمل في حكاية إيمانه عليه السلام بما أنزل إليه من ربه مع بداهة كونهِ متعلقًا بتفاصيل ما فيه من الجلائل والدقائق، ثم إن الأمورَ المذكورةَ حيث كانت من الأمورِ الغيبيَّةِ التي لا يُوقف عليها إلا من جهة العليم الخبير كان الإيمانُ بها مِصداقًا لما ذُكر في صدرِ السورةِ الكريمةِ من الإيمان بالغيب. وأما الإيمان بكتُبه تعالى فإشارة إلى ما في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هذا هو اللائقُ بشأنِ التنزيل والحقيقُ بمقداره الجليل.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١][(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩﴾ [المائدة: ٥٩][(٢)].

---

(١) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (ص: ٦٥): يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنَّ عليهم به منة مطلقة - أنهم ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيُحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، لا من قال منهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

(٢) قال القاسمي في «تفسيره» (٤/ ١٧٩): ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وُصفوا بذلك تمهيدًا لتبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم، أي: يا أصحاب الكتاب، العالمين بالنقائص والكمالات، التي يستحق على تحققها وفقدها الاستهزاء ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: ما تعيبون وتنكرون منا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وهو رأس الكمالات ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ وهو يشهد لما أنزل إلينا ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر...

ثم قال: في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر موجبًا لنقمه، مع كونه في نفسه موجبًا لقبوله وارتضائه.

فمعنى الآية: ليس شيء ينقم من المؤمنين. فلا موجب للاستهزاء.

وهذا مما تقصد العرب في مثله تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء، وذلك الشيء لا يقتضي إثباته، فهو منتفٍ أبدًا. ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس، فمن الأول نحو:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومن الثاني هذه الآية وشبهها.

=

٤- وقد تأتي بصيغة الإنكار والتوعد لمن يؤمن ببعض الكتاب دون بعضها.

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧٠، ٧٢].

إذًا التكذيب بالكتب أو الكفر بالكتب هذا من سيما أهل الجاهلية[(١)].

٥- وقد تأتي بصيغة الإخبار.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥][(٢)].

= أي: ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئًا إلّا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئًا، فليس شيء ينقمونه، فينبغي أن يؤمنوا به ولا يكفروا.

وفيه أيضًا التعريض بكفرهم، وتقريع بسوء الصنيع في مقابلة الإحسان.

إسناد الفسق إلى أكثرهم؛ لأن من قال منهم ما قال وحمل غيره على العناد، طلبًا للرياسة والجاه وأخذ الرشوة - إنما هو أكثرهم، ولئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك.

(١) «شرح مسائل الجاهلية» للحازمي (١٤/ ٢٤).

(٢) قال الشيخ عبد المحسن العباد في «شرح الأربعين النووية» (٤/ ٥): الكتب هي التي تلقاها جبريل عن الله تعالى ونزل بها على رسل الله، ويراد بها كل كتاب أنزله الله على رسول من رسله، وهذه الكتب منها ما سُمي لنا ومنها ما لم يُسَمَّ، والذي سُمي لنا القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، على خلاف =

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨](١).

= في صحف موسى هل هي التوراة أو غير التوراة، فهذا كل ما سُمي لنا في القرآن، وأما غير ذلك فلم يُسَمَّ لنا، ونحن نؤمن بالمسمى وغير المسمى.

وقد أخبر الله ﷻ أنه أنزل الكتاب على رسله، فقال كما في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

ومعلوم أن الله لم ينزل كتابًا واحدًا فقط على رسله، بل أنزل كتبًا، فـ(أل) هنا للجنس وليست للإفراد، أي أن المقصود الكتب، وليس المقصود بذلك كتابًا واحدًا مفردًا، وإنما يراد بذلك عموم الكتب وجنسها.

وقد جاء في القرآن في مواضع عديدة ذكر الكتاب يراد بها المفرد، وجاء يراد به الجنس، ومن الآيات ما جمعت بين هذا وهذا، ومما جمع بين الاثنين قول الله ﷻ في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] فذكر الكتابين: الكتاب الذي أنزل على رسوله وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل، أي: الكتب التي أُنزلت من قبل.

وفي سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] وهو القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: الكتب السابقة.

فقد جمع الله ﷻ في هاتين الآيتين بين لفظ الكتاب مرادًا به الكتاب المفرد - وهو القرآن - ومرادًا به الكتب السابقة.

ومثل ذلك قوله تعالى في البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فقوله: «وَالْكِتَابِ» أي: الكتب. والألف واللام فيه لاستغراق الجنس.

والمراد بالكتب الكتب المنزلة على الرسل التي منها ما سُمي ومنها ما لم يُسَمَّ.

(١) قال شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/ ٤٧٥): والجواب بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. أن يقال: أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواترًا تواترًا ظاهرًا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم.

٦- وَصْفه بأنه من أنواع البر.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧][(١)].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها سواء كانت أمرًا مباشرًا أو وصفًا للمؤمنين أو وصفًا للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به. وذلك أمر بديهي بالنسبة للمؤمن، فما دام يؤمن بالله وصدق ما نزل من عنده من الوحي وما دام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أنزل كتبًا سابقة على الأنبياء والرسل، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة ويعتقد

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٨١): قال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية قال: هذه أنواع البر كلها. وصَدَق رَحِمَهُ اللَّهُ فإن مَن اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وصَدَّق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقال القاسمي في «تفسيره» (١/ ٤٨١): «وَالْكِتابِ» أي: بجنس الكتاب. فيشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء التي من أفرادها: أشرفها وهو القرآن - المهيمن على ما قبله من الكتب - الذي انتهى إليه كلّ خير واشتمل على كلّ سعادة في الدنيا والآخرة.

وقال العثيمين في «تفسيره» (٢/ ٢٨٦): ومن فوائد الآية: أن الإيمان بالكتب من البر، وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صِدق في الأخبار، وعَدْل في الأحكام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه.

يقينًا أنها منزلة من عند الله[١].

ثانيًا: الأدلة من السنة:

حديث جبريل المشهور حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ**»[٢][٣].

وقوله ﷺ لابن صياد: «**آمَنْتُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ...**»[٤].

---

(١) «ركائز الإيمان» (ص: ١٨١)، و«الإيمان بالقرآن الكريم والكتب» للصَّلاَّبي (ص: ١٦٢).

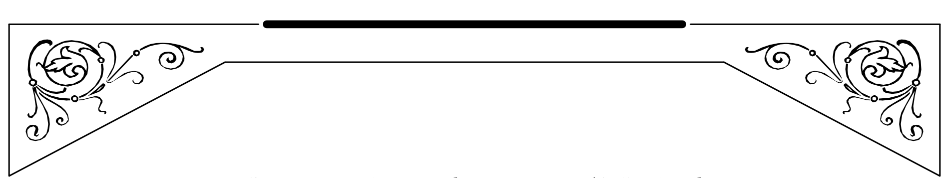
(٢) أخرجه البخاري (٥٠) (١/ ١٩)، ومسلم (٩) (١/ ٣٩)، من حديث أبي هريرة.

(٣) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ١١٨): وَدَلَّ الْإِجْمَالُ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ عَلَى الِاكْتِفَاءِ بِذَلِكَ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ إِلَّا مَنْ ثَبَتَ تَسْمِيَتُهُ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَهَذَا التَّرْتِيبُ مُطَابِقٌ لِلْآيَةِ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وَمُنَاسَبَةُ التَّرْتِيبِ الْمَذْكُورِ وَإِنْ كَانَتِ الْوَاوُ لَا تَرَتَّب بل المُرَاد من التَّقْدِيم أَنَّ الْخَيْرَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ رَحْمَتِهِ أَنْ أَنْزَلَ كُتُبَهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَالْمُتَلَقِّي لِذَلِكَ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

وقال الشيخ عطية سالم في «شرح الأربعين النووية» (٦/ ٧): إن الإيمان بوجود الكتب المتقدمة، وإنزالها من عند الله هداية للبشر، وبيانًا للصراط المستقيم، وبيانًا لحق الله على الخلق، وفيما يصير عليه الخلائق فيما بينهم - كل هذا من الواجبات.

وقال عبد الكريم الخضير في «شرح الأربعين النووية» (١/ ٦): وما يقوله أو ما ينقله الرسول عن ربه جل وعلا بلفظه مثل: القرآن، والكتب المنزلة: كالتوراة والإنجيل والزبور قبل التحريف - هذه كلها من عند الله جل وعلا، وغيرها كصحف إبراهيم وموسى، وغيرها مما يُعرف ومما لا يُعرف، كلها من عند الله جل وعلا يجب الإيمان بها، بل الإيمان بالكتب ركن من أركان الإيمان.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٢٥) (٤/ ٢٢٤١) من حديث أبي سعيد الخدري.



كيفية الإيمان بالكتب السماوية

يجب الإيمان بأن هذه الرسالات أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله، والتصديق بأن هؤلاء الرسل بلغوها للناس على الوجه الأكمل، وأن ما جاء من الكتب ذكره عينًا مثل القرآن والإنجيل والتوراة والزبور وصحف إبراهيم وموسى، فهذه الكتب يجب الإيمان بها على وجه التفصيل كما مر في معنى الإيمان بالكتب، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وبأن الله تعالى قد أنزل كتبًا على رسله غير التي سمَّاها في القرآن الكريم.

وهذا من باب الإيمانِ بالكتب إجمالًا، ويكون الإقرار به بالقلب واللسان.

أما الإيمان بالقرآن؛ فإنه إيمان مفصل، يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، واتباع ما جاء فيه، وتحكيمه في كل كبيرة وصغيرة، وتصديقُ ما صح وصوله من أخبارها، والإيمان به، وأنه حقٌّ من عند الله تعالى، والعملُ بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم به، سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها.

إلا أن جميع الكتب السابقة منسوخةٌ بالقرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد أشار الله تعالى لهذه الكيفية بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٦](١).

---

(١) قال السعدي في «تفسيره» (ص: ٦٧): هذه الآية الكريمة، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام. بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان، دخل فيه ما ذُكر، وكذلك الإسلام، إذا أُطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قُرن بينهما، كان الإيمان اسمًا لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ﴾ أي: بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام، المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه. وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوبًا إلى جميع الأمة - إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعًا، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدًا، وعملهم متحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد. وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان، على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة؛ لما فيه من تزكية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء =

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون الكتب السابقة لآجال معينة ولأوقات محددة، ووُكِّل حفظها إلى الذين استحفظوا عليها من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما القرآن الكريم؛ فقد أنزله الله لكل الأجيال من الأمم في كل الأوطان إلى يوم القيامة، وتولى حفظه بنفسه؛ لأن وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي إلا بنهاية حياة البشر على الأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

= منها، بوجه من الوجوه. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.
﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، ما نص عليه في الآية، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار. فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلًا.
وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صَدَّق سائر الرسل وخصوصًا محمدًا ﷺ، فإذا كذبوا محمدًا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرًا برسولهم.

ويجب تحكيم هذا القرآن في جميع الخلافات، ويجب رد جميع النزاعات إليه[١].

ما يتضمنه الإيمان بالكتب

يتضمن الإيمان بالكتب عدة أمور نذكر منها:

١- الإيمان بأن نزول هذه الكتب من عند الله حقًّا، وحي من الله تعالى إلى رسله، وأنها ليست من باب الكهانة ولا من باب السحر ولا من باب إلقاء الشياطين.

٢- الإيمان بأنها كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة كما شاء، وعلى الوجه الذي أراد.

٣- الإيمان بما عَلِمنا اسمه منها، كالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ، والزبور الذي أُنزل على داود ﷺ.

أما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالًا.

٤- الإيمان بأن جميع الكتب السماوية يُصَدق بعضها بعضًا ولا يكذبه، فكلها من عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالإنجيل مصدق لما تقدمه من كتب كالتوراة، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦].

---

(١) بتصرف من «أركان الإيمان» لعلي بن نايف (ص: ٧٩)، و«المحيط العقدي» لفهد الحزمي (ص: ١٢). و«مباحث في العقيدة» للطيار (٨/ ٩).

وإنما حصل الاختلاف في التوراة والإنجيل بسبب التحريف الذي دخلهما.

والقرآن مصدق لجميع الكتب السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١].

٥- تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن وأخبار ما لم يبدل أو يُحَرَّف من الكتب السابقة.

٦- العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها، والرضا والتسليم بها، فجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: حاكمًا عليه.

وعلى ذلك لا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن.

٧- الإيمان بأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت عليهم تلك الكتب الانقياد لها والحكم بما فيها، كما قال تعالى بعد ذكر إنزال التوراة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة: ٤٧].

فدلت الآيتان على وجوب أن يحكم أهل كل ملة بما أنزل الله عليهم، وذلك قبل أن يطرأ النسخ على تلك الكتب(١).

٨- أن يُعلم أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن محكمه يكشف عن متشابهه.

---

(١) بتصرف من «تفسير الرازي» (٧/ ١١٦)، وابن عطية في «تفسيره» (١/ ٣٩١)، و«فتح الباري» لابن حجر (١/ ١١٧) و«شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ١٤)، و«أركان الإسلام» للطيار (ص: ٩)، و«المحيط العقدي» (ص: ١٣).



أهمية الإيمان بالكتب

إن الإيمان بالكتب السماوية له أهمية، نذكر بعضها:

- أنه أصل من أصول عقيدة المؤمنين، وهو أحد أركان الإيمان الستة، ولا يصح الإيمان إلا به.

- أنه الحُجّة والمرجع الذي جاءت به الرُّسل من الملائكة والنبيِّين من عند الله للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣][(١)].

- جعله ﷻ بعد الإيمان به وأَمَر المؤمنين بأن يؤمنوا به وبما أنزله، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

- فيه الهدى والنور والكفاية لمن أنزلت عليهم في كل أمور دنياهم، وجلب السعادة لهم في الدارين.

- رحمة من الله بعباده لحاجتهم إليها؛ لأن عقل الإنسان محدود، لا يدرك تفاصيل النفع والضرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضار والنافع إجمالًا. والعقل الإنساني أيضًا تَغْلب عليه الشهوات، وتلعب به الأغراض

(١) «المنتقى من فتاوى الفوزان» (١/ ٣).

والأهواء؛ فلو وُكِلت البشرية إلى عقولها القاصرة؛ لضلت وتاهت.

فاقتضت حكمة الله ورحمته أن ينزل هذه الكتب على المصطفَيْن من رسله؛ ليبينوا للناس ما تدل عليه هذه الكتب وما تتضمنه من أحكامه العادلة ووصاياه النافعة وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية(١).

- يؤكد وحدة الرسالات الإلهية وأن الإسلام جامع لكل الديانات السماوية، والمسلمون أَوْلى الناس جميعًا بقيادة البشرية على نهج الإسلام، فالمؤمن يعتقد أن أي طائفة من أهل الكتاب يملكون أساسًا وأصلًا لدينهم، وهذا مما يجعل أهل الكتاب قريبين من الإسلام والمسلمين لو أنصفوا، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

- أنه جزء من الإيمان بأن الله سبحانه هو الهادي، وأن هداية الله لم تنقطع عن البشر، فما من أمة إلا وقد أنزل الله بها هدى، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

- أنه ينمي لدى المسلم الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة مصدرها، وأن الأمة الإسلامية ورثت العقائد السماوية ووحدة النبوات منذ فجر البشرية، والمحافظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، ورائدة موكب الإيمان على الأرض إلى آخر الزمان(٢).

- أنه ينقي روح المؤمن من التعصب الذميم ضد الديانات، وضد المؤمنين بالديانات، ما داموا على الطريق الصحيح(٣).

---

(١) «مؤلفات الفوزان» (٩/ ١).

(٢) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» للصَّلاَّبي (ص: ١٨٠).

(٣) «العقيدة الإسلامية» د: أحمد جلي (ص ٢١١).

معنى الإيمان بالكتب

١- ومعنى الإيمان بالكتب:

التصديق الجازم بأن كل كتاب أنزله الله ﷻ على أحد من رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين - فهو حق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥][(١)].

٢- ونؤمن أنها كلها كلام الله تعالى، لا كلام غيره، تكلم بها حقيقة كما شاء بكيفية لا يعلمها إلا هو سبحانه.

٣- فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرسول المَلَكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٠٠): يقول تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمفصَّلات من البيان والدلائل، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالأحكام والشرائع.

وقال البيضاوي في «تفسيره» (٥/ ١٩٠): ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج والمعجزات. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليبين الحق ويميز صواب العمل.

وقال القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٦٠): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَيِّنَةِ وَالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ.

وَقِيلَ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْعِبَادَةِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، بِذَلِكَ دَعَتِ الرُّسُلُ: نُوحٌ فَمَنْ دُونَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيِ الْكُتُبَ، أَيْ: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ خَبَرَ مَا كَانَ قَبْلَهُمْ.

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١][1] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

٤- وأن نؤمن أن منها ما خط في الألواح، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥][2].

٥- الإيمان أن الله تعالى أنزلها على رسله هدايةً لعباده، فقال تعالى في

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٥٨): يقول تعالى ذكره: وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحيًا يوحي الله إليه كيف شاء، أو إلهامًا وإما غيره ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه ﷺ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولًا إما جبرائيل، وإما غيره ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء، يعني: ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي.

(٢) قال السعدي في «تفسيره» (ص: ٣٠٣): ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد ﴿مَّوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب.

القرآن ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢][(١)] وقال في التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤][(٢)] ورحمة للخلق وهداية لهم لتتحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنها حق وصدق لمن خوطب بها من الأمم، وتفصيل لحقه على خلقه وحقوق عباده بعضهم على بعض، ومتضمنةً لأصول دينه وقواعد شريعته التي تعبّد الله المخاطبين بها، وكليات الأخلاق التي يحبها الله سبحانه ويرضاها، ومهمات مما نهى عنه جل ذكره؛ لتكون منهجًا يسيرون عليه وحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه.

٦- الإيمان بأنها دعت كلها إلى عبادة الله وحده، وقد جاءت بالخير

---

(١) قال السعدي في «تفسيره» (ص: ٤٠): قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشُّبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة.
وقال ﴿هُدٗى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ فعمم، وفي هذا الموضع وغيره ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق. فالأشقياء لم يرفعوا به رأسًا، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب النواهي - فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

(٢) قال الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٦١): ويعني بقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، بيانًا للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله.

والهدى والنور والضياء، وأنها مشتملة على كل ما فيه سعادة مَن أُنزلت عليهم، وأن من أخذ بها سعد وظفر، ومَن أعرض عنها خاب وخسر،

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فبيَّن الله أنه ما ينبغي لأحد من البشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة - أن يأمر الناس أن يتخذوه إلهًا من دون الله. وذلك أن كتب الله إنما جاءت بإخلاص العبادة لله وحده.

وقال تعالى مبينًا أن كتبه جاءت بالحق والهدى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]. وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة أن كتب الله تعالى قد جاءت بالهدى والنور من الله تعالى.

٧- وأن الحجة قامت بها على المخاطبين بها، واتضحت لهم بها المَحَجَّة - الطريق أو السبيل الموصلة إلى الله تعالى -، وزالت بها المعذرة، فيجب العمل بها، ولا يحل لهم مخالفتها، ولا التحاكم إلى غيرها، ولا تعطيلها؛ بل يجب عليهم قبولها والعمل بهداها والحذر من مخالفتها. المطيعين وعقوبات العاصين.

٨- ولا نكلف بالعمل بما يخالف شريعتنا؛ وما من رسول إلا معه كتاب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: مع هؤلاء الرسل، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً

وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب.

٩- وأن نؤمن بكل ما فيها من الشرائع أنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى الانقياد لها والحكم بما فيها،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة: ٤٤- ٤٩].

١٠- اعتقاد أنها يصديق بعضها بعضًا لا يكذبه، كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦][(١)] وقال في القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

(١) قال القاسمي في «محاسن التأويل» (٤/ ١٥٤): =

﴿عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨][(١)]. فلا تناقض بينها ولا تعارض، فإنها سالمة من ذلك، فإن وُجد فيها ما يوهم التعارض والتناقض فهذا جاء من أفهام بعض الناس وعقولهم، وليس من جهتها.

١١- وأَنَّ نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق، كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل، قال الله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥٠][(٢)].

= ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ أي إلى الحق ﴿وَنُورٌ﴾ أي: بيان للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: لما فيها من الأحكام. وتكرير ذلك لزيادة التقرير. قال ابن كثير: أي متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل. مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ولهذا كان المشهور من قول العلماء: إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

(١) قال القاسمي (٤/ ١٥٦): ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بيان ل (ما). و(اللام) للجنس، يعني: أنه يصدّق جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه من قبله. وإنما قيل لما قبل الشيء: (هو بين يديه)، لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه. فما تقدم عليه يكون قدامه وبين يديه ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: مؤتمنًا عليه وشهيدًا وحاكمًا على ما قبله من الكتب. قال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منا فهو حقّ، وما خالفه منها فهو باطل. اهـ.

وسيأتي فصل إن شاء الله في الكلام على كل من التورة والإنجيل والقرآن.

(٢) قال الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٣٨): يعني بذلك جل ثناؤه: وبأني قد جئتكم بآية من ربكم، وجئتكم مصدقًا لما بين يديّ من التوراة. ولذلك نصب «مصدّقًا» =

وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨].

١٢- أن نؤمن بما سمى الله منها تفصيلًا، كصحف إبراهيم، وصحف موسى - وهي التوراة، والزبور على داود، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد ﷺ.

إذًا المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى كتابًا يسمى التوراة؛ وعلى عيسى كتابًا يسمى الإنجيل؛ وعلى داود كتابًا يسمى الزبور؛ أما أن نؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب علينا؛ لأنه محرف ومغير ومبدل؛ لكن نؤمن بأن له أصلًا نزل على هؤلاء الرسل، وأما ما لم نعلمه فنؤمن به إجمالًا؛ فنقول بقلوبنا وألسنتنا آمنا بكل كتاب أنزله الله على كل رسول إجمالًا، قال تعالى ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

= على الحال من «جئتكم». والذي يدل على أنه نصب على قوله: ﴿وَجِئْتُكُم﴾، دون العطف على قوله: «وجيهًا»، قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. ولو كان عطفًا على قوله ﴿وَجِيهًا﴾، لكان الكلام: ومصدّقًا لما بين يديه من التوراة، وليحل لكم بعض الذي حُرم عليكم.

قال أبو جعفر(١): «والكتاب الذي نزل على رسوله» يقول: وصدِّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن «والكتاب الذي أنزل من قبل» يقول: وآمِنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد ﷺ، وهو التوراة والإنجيل.

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦].

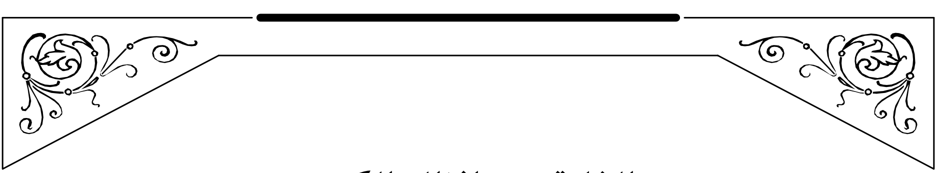
وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥] فنقول كما أمرنا ربنا ﷻ: آمنا بما أنزل الله من كتاب وما أرسل من رسول.

١٣- ويجب الإيمان بالقرآن الكريم، وامتثال أوامره واجتناب مناهيه وتحليل حلاله وتحريم حرامه والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والوقوف عند حدوده وتلاوته آناء الليل والنهار والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها(٢).

---

(١) «تفسير الطبري» (٩/ ٣١٢).

(٢) ومن الحق أن ينسب العلم لأهله، فقد قمتُ بجمع هذه المسائل من هذه الكتب بتصرف، انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٤٢٣)، و«شرح مسلم» للقاضي عياض (١/ ٢٠٣)، و«معارج القبول» (٢/ ٦٧٢)، و«شرح الأصول الثلاثة» للشيخ ابن عثيمين (٩١)، و«شرح حديث جبريل» (ص: ١٥)، و«شرح الطحاوية» لصالح آل الشيخ (٢٤/ ٩)، و«أصول الإيمان» (ص: ١٣٣)، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» لعبد العزيز آل الطيف (١/ ٢٢٠)، و«أركان الإسلام» للطيار (ص: ٩)، و«علوم القرآن» عند ابن عبد البر (١/ ٣٣١)، و«الموسوعة العقدية» (٣/ ٣٢٨)، وتفسير الألوسي (٢/ ٤٥)، و«شرح الأربعين النووية» للعباد (٤/ ٥)، و«شرح حديث جبريل»، و«الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه».



الغاية من إنزال الكتب

أُنزلت الكتب السماوية كلُّها لغايةٍ واحدةٍ وهدف واحد، وهو أن يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦](١).

وقال في القرآن: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي﴾ [هود: ١، ٢](٢).

ومن غايتها أيضًا التحاكم إليها، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض، تقودهم بما فيها من هداية إلى كل خير، وإزالة ما بينهم من اختلاف،

وتبشرهم برضوان الله ﷻ إن أطاعوه، وبعذابه - سبحانه - إن عصوه. ولتكون رُوحًا ونورًا تحيي نفوسهم، وتكشف ظلماتها، وتنير لهم دروب

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٠١): ولقد بعثنا أيها الناس في كلّ أمة سلفت قبلكم رسولًا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفرِدوا له الطاعة، وأخلِصوا له العبادة ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يقول: وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدكم عن سبيل الله، فتضلوا.

(٢) قال الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٣٧): والمعنى - واللَّه أعلم - أنَّ آيَاتِه أحْكِمتْ وَفُصِّلَت بجميع ما يُحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وإثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام وإقَامَةِ الشرائع. والدليل على ذلك قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الحياة كلها، قال تعالى في وصف القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥](١).

وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩](٢).

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٢٧): ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾، يقول: وأنزلنا إليكم معه ﴿نُورٗا مُّبِينٗا﴾، يعني: يبين لكم المحجَّة الواضحة والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله وأليم عقابه، إن سلكتموها واستنرتم بضوئه. وذلك النور المبين، هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ.
وقال ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ١٤١): ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ يعني القرآن فيه بيان لكل شيء، وهو الواعظ الزاجر، الناهي الآمر.
وقال القاسمي في «تفسيره» (٣/ ٤٨٦): ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ أي: ضياء واضحًا على الحق. يُهتدى به من ظلمات الضلال، وهو القرآن.

(٢) قال الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٧٨): ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانًا لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلال ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لمن صدّق به، وعمل بما فيه من حدود الله، وأمره ونهيه، فأحل حلاله، وحرّم حرامه ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة، وعظيم كرامته.
وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٥٢): ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾.
وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ، فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهِيدٌ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ وَمُرْشِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.
=

. . . .

= وَهَذَا تَخَلُّصٌ لِلشُّرُوعِ فِي تَعْدَادِ النِّعَمِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِعَمِ الْإِرْشَادِ وَنِعَمِ الْجَزَاءِ على الِامْتِثَال وَبَيَانٌ بَرَكَاتِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ لَهُمْ.
وَتَعْرِيفُ الْكِتَابِ لِلْعَهْدِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ. وتِبْيانًا مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ. وَالتِّبْيَانُ مَصْدَرٌ دَالٌّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَصْدَرِيَّةِ. . .
وَ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُفِيدُ الْعُمُومَ إِلَّا أَنَّهُ عُمُومٌ عُرْفِيٌّ فِي دَائِرَةِ مَا لِمِثْلِهِ تَجِيءُ الْأَدْيَانُ وَالشَّرَائِعُ: مِنْ إِصْلَاحِ النُّفُوسِ، وَإِكْمَالِ الْأَخْلَاقِ، وَتَقْوِيمِ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ، وَتَبَيُّنِ الْحُقُوقِ، وَمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ، وَصِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا يَأْتِي فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ وَالدَّقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، وَوَصْفِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ، وَأَسْبَابِ فَلَاحِهَا وَخَسَارِهَا، وَالْمَوْعِظَةِ بِآثَارِهَا بِشَوَاهِدِ التَّارِيخِ، وَمَا يَتَخَلَّلُ ذَلِكَ مِنْ قَوَانِينِهِمْ وَحَضَارَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ.
وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ أَسْرَارٌ وَنُكَتٌ مِنْ أُصُولِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ صَالِحَةٌ لِأَنْ تَكُونَ بَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ الْحَقِيقِيِّ إِنْ سُلِكَ فِي بَيَانِهَا طَرِيقُ التَّفْصِيلِ وَاسْتُنِيرَ فِيهَا بِمَا شَرَحَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَا قَفَاهُ بِهِ أَصْحَابُهُ وَعُلَمَاءُ أُمَّتِهِ، ثُمَّ مَا يَعُودُ إِلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ مِنْ وَصْفِ مَا أَعَدَّ لِلطَّائِعِينَ وَمَا أَعَدَّ لِلْمُعْرِضِينَ، وَوَصْفِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.
فَفِي كُلِّ ذَلِكَ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ يُقْصَدُ بَيَانُهُ لِلتَّبَصُّرِ فِي هَذَا الْغَرَضِ الْجَلِيلِ، فَيُؤَوَّلُ ذَلِكَ الْعُمُومُ الْعُرْفِيُّ بِصَرِيحِهِ إِلَى عُمُومٍ حَقِيقِيٍّ بِضِمْنِهِ وَلَوَازِمِهِ. وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ الْإِعْجَازِ.
وَخُصَّ بِالذِّكْرِ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَالْبُشْرَى لِأَهَمِّيَّتِهَا: فَالْهُدَى مَا يَرْجِعُ مِنَ التِّبْيَانِ إِلَى تَقْوِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْأَفْهَامِ وَالْإِنْقَاذِ مِنَ الضَّلَالِ. وَالرَّحْمَةُ مَا يَرْجِعُ مِنْهُ إِلَى سَعَادَةِ الْحَيَاتَيْنِ الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى. وَالْبُشْرَى مَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ بِالْحُسْنَيَيْنِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ.
وَكُلُّ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْهُ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمُ الِانْتِفَاعَ بِخَوَاصِّهِ كُلِّهَا.
فَاللَّامُ فِي ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالتِّبْيَانِ، وَهِيَ لَامُ التَّقْوِيَةِ، لِأَنَّ «كُلَّ شَيْءٍ» فِي مَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ لـ«تِبْيانًا». وَاللَّامُ فِي «لِلْمُسْلِمِينَ» لَامُ العِلَّة يَتَنَازَعُ تَعَلُّقَهَا «تبيان وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى» وَهَذَا هُوَ الْوَجْه. وقال صاحب «التفسير الواضح» (٢/ ٣٣١):
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكان كتابك فيه البيان الشافي والدواء =

وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

وقال ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥](١).

وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢](٢).

= الناجع الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ما ﴿فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] وهو الهداية للناس، والراحة والبشرى التامة للمسلمين خاصة.

(١) قال صاحب «فيض الرحمن» (٢/ ٢١٦): وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعانٍ جلية. حتى إنه تعالى يثنِّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب. وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي، التي لا تحصى.

فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوا به من علم نافع، وعمل صالح. والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره، وطمأنينته. وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجلّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة، التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

(٢) قال الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٧): يقول تعالى ذكره: أُقسم يا محمد، لقد =

وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

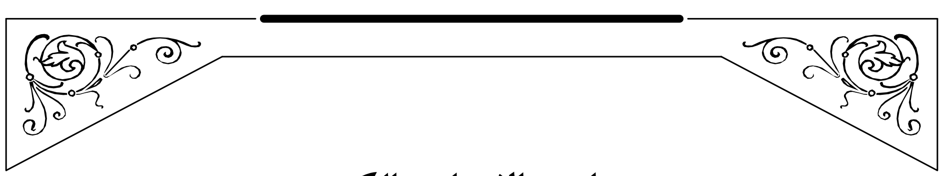
وقال تعالى عن التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

= جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب، يعني القرآن الذي أنزله إليه، يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآن، مفصَّلًا مبيَّنًا فيه الحق من الباطل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يقول: على علم منا بحقِّ ما فُصِّل فيه، من الباطل الذي مَيَّز فيه بينه وبين الحق ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، يقول: بيناه ليُهْدَى ويُرْحَم به قومٌ يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى.

وقال القاسمي في «تفسيره» (٥/ ٦٦): ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية تفصيلًا مبينًا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه، حتى جاء محكمًا قيِّمًا غير ذي عوج. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ [النساء: ١٦٦]. ﴿هُدًى﴾ أي: دلالة ترشدهم إلى الحق، وتنجيهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشُّبه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المغتنمون لفوائده.

وقال عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].





مراتب الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هي الإيمان بكتب الله إجمالًا، اعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: مع هؤلاء الرسل. وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب(١).

المرتبة الثانية: هي الإيمان بالكتب التي جاء ذكرها، وهو أن الله أنزل على موسى كتابًا يسمى التوراة، وعلى عيسى كتابًا يسمى الإنجيل، وعلى داود كتابًا يسمى الزبور.

وأما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب علينا؛ لأنه محرف ومغير ومبدل؛ لكن نؤمن بأن له أصلًا نزل على هؤلاء الرسل(٢).

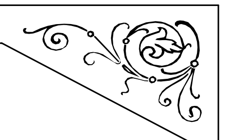
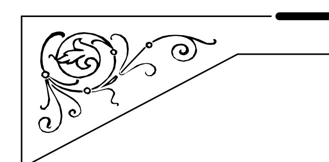
المرتبة الثالثة: هي التصديق بكل ما جاء فيها من الأخبار، مما ثبت عندنا أنه لم يحرف، وأنه لا يخالف الثوابت التي اجتمع عليه الرسل وبأن هذا القرآن مهيمن عليها وناسخ لجميعها(٣).

---

(١) الشيخ العثيمين في «تفسيره» (٢/ ٢٨٦).

(٢) الشيخ العثيمين في «تفسيره» (٢/ ٢٨٦). وسيأتي ذكره مفصلًا.

(٣) بتصرف من «دروس للشيخ محمد الددو» (٤٢/ ٩).

ثمرات الإيمان بالكتب

ومن ثمراته:

١- العلم بعناية الله؛ حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

٢- العلم بحكمة الله؛ حيث شرع لكل قوم ما يناسبهم ويلائم أحوالهم.

٣- التحرر من زبالات أفكار البشر بهدي السماء.

٤- السير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اعوجاج.

٥- الفرح بذلك الخير العظيم ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

٦- شكر الله على هذه النعمة العظيمة.

٧- التحرر من التخبط الفكري والعقدي[١].

٨- ومن ثمراته الإيمان بالأنبياء، والملائكة، واليوم الأخر، فكلها متصلة جميعًا.

ويقول الشيخ علي بن نايف الشحود، في «المهذب في ثمرات الإيمان»:

ومن ثمرات الإيمان بالكتب السماوية:

١- أخذُ كتابِ الله بقوةٍ، والتمسكُ به وتعظيمُ أوامره والعمل بها، وعدمُ ضرب بعضِها ببعضٍ، والإيمانُ بمتشابههِ وردُّهُ إلى مُحْكمهِ، على طريقةِ

(١) «الايمان بالكتب» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد.

الراسخينَ في العلم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

٢- وأنه منهجُ حياةٍ متكاملٍ يهدي للتي هي أقومُ، ولا سعادةَ للبشريةِ إلا به قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجَّه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعًا واستمتاعًا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء. ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار. ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا،

وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض. الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام.

٣- أنزل الله ﷻ كتبه هدايةً للعباد، وجعل لها المنزلة السامية، والمكانة الرفيعة، وجعلَ الإيمان بها ركنًا من أركانِ دينهِ، لا يصح إيمان العبد إلا بالإيمان بها، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد رتبَ سبحانه على الإيمان بكتبه ثمراتٍ عظيمةً، لعلَّ من أهمها السعادةُ في الدنيا والفوزُ في الآخرة، ذلك أنَّ من لم يؤمن بتلك الكتب فقد خالفَ أمر الله تعالى، وضلَّ ضلالًا بعيدًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فقد قرن سبحانه الإيمان بكتبه بالإيمان به، وجعل عاقبة الكفران بها كعاقبة الكفران به، سواء بسواء.

٤- استشعارُ المسلم لنعم الله عليه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، فقد جعل له كتبًا تهديه سبلَ الرشاد، فلم يتركه سبحانه هملًا تتخطفه الأهواءُ

والشهوات، وتتقاذفه الميولُ والرغبات، بل هيَّأ له من الأسباب ما يُصلِحُ أمره ويسددُ وجهته.

ولن يقدِّرَ العبد ما أسبغ الله عليه من نعمة الإيمان به، وما يتبعه من إيمانٍ بما أنزله من كتب إلا عندما يتأملُ حالَ من حُرم هذه النّعم، وحالَ من كان يحيا حياة الغيِّ والضلالِ، لا يدري الهدفَ من سيره وما هي الغاية التي يسعى إليها من مسيره، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال أيضًا في حق الضالين عن هديه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٥- إنه يمنحُ المؤمن الشعورَ بالراحة والطُّمأنينة، وذلك بمعرفته أن الله سبحانه قد أنزل على كلِّ قوم مِن الشرائع ما يناسبُ حالهم، ويحققُ حاجتهم، ويهديهم لما فيه صلاحُ أمرهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

فإذا كان المؤمن على بينة من هذه السُّنة الإلهية ازداد إيمانًا مع إيمانه، ويقينًا فوق يقينه، فيزدادُ حبًّا لربه ومعرفةً له وتعظيمًا لقدره، فتنطلقُ جوارحه عاملةً بأوامر الله فتتحقق الغاية العظيمة من الإيمان بالكتب - وهي العمل بما فيها - فينالُ ثمرة هذا الإيمان سعادةً في الدنيا وفوزًا في الآخرة.

وقد وعد الله ﷻ العاملين بشرعهِ الخير والبركات في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية. ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري، والموازين البشرية، والأوضاع البشرية - تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج، بإزاء هذا الأمر الخطير...

إن الله - سبحانه - يقول لأهل الكتاب - ويَصْدق القول وينطبق على كل أهل كتاب - إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جزاء الآخرة. وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج اللّه الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله اللّه إليهم من التعاليم - كما أنزلها اللّه بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة النتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة... ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج اللّه - إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا - لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده - وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم - ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة... وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية... يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾.

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا. إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيا والآخرة، فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة... هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا...

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب، ولكنه كذلك - وتبعًا لذلك - منهج حياة إنسانية واقعية، يقام، وتقام عليه الحياة... وإقامته - مع الإيمان والتقوى - هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية، وفيض الرزق، ووفرة الإنتاج، وحسن التوزيع، حتى يأكل الناس جميعًا - في ظل هذا المنهج - من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلًا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بديلًا من سعادة الدنيا، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا...

وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم. بحيث أصبح الفرد العادي - وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة - لا يرى أن هنالك سبيلًا للالتقاء بين الطريقين. ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه، وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه. ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا...

حقيقة: إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله، وعن منهجه

للحياة، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع، والكسب في مضمار المنافع الدنيوية - أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمُثل الخلقية والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف، الذي يحض عليه الدِّين. كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة، والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع، والكسب في مضمار المنافع؛ لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق، ولا مرضية للّه سبحانه...

ولكن تراها ضربة لازب! ترى أنه لا مفرَّ من هذا الحال التعيس، ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة.

كلا إنها ليست ضربة لازب!

فالعداء بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة - ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل، بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلًا إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ!

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة، وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا. وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا، وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان اللّه وثوابه الأخروي.

هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية، ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج اللّه الذي رضيه للناس، فهذا المنهج هو

الذي يجعل العمل عبادة، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وَفق شريعة اللّه فريضة. والخلافة عمل وإنتاج، ووفرة، ونماء، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما يقول اللّه في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن اللّه، بإذن اللّه، وَفق شرط اللّه...

ومن ثَم يجعل العمل المنتج المثمر، وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها - بل الخامات والموارد الكونية كذلك - هو الوفاء بوظيفة الخلافة. ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة - وَفق منهج اللّه وشريعته حسب شرط الاستخلاف - طاعة للّه ينال عليها العبد ثواب الآخرة، بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها اللّه له ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه، كما يصور التعبير القرآني الجميل!

ووَفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له - عاصيًا للّه، ناكلًا عن القيام بالوظيفة التي خلقه اللّه لها، وهو يقول للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وهو يقول كذلك للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ومعطلًا لرزق اللّه الموهوب للعباد. وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا!

والمنهج الإسلامي - بهذا - يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق. فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه. فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة، وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية

التي تقوم في الأرض على منهج اللّه. . .

فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف. . . إذ إن طريق الفرد وطريق الجماعة - في المنهج الإسلامي - لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان. فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه اللّه، فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون، ولا يأكل من سحت، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئًا يملكه - مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض اللّه وما شرع - والمنهج يسجل للفرد عمله - في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات - عبادة للّه يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة. . .

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطًا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته باللّه في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة، وفي العام الواحد ثلاثين يومًا بصوم رمضان، وفي العمر كله بحج بيت اللّه. وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة. . .

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي، إنها تجديد للعهد مع اللّه على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة، وهي قربى للّه يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج، الذي ينظم أمر الحياة كلها، ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم. ويتجدد معها الشعور بعون اللّه ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق.

وليست هذه الشعائر التعبدية أمورًا منفصلة عن شئون العمل والإنتاج

والتوزيع والحكم والقضاء، والجهاد لإقرار منهج اللّه في الأرض، وتقرير سلطانه في حياة الناس... إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج المعين على أداء شطره الآخر...

وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج اللّه في الحياة العملية سبيلًا للوفرة والفيض، كما يَعِد اللّه الناس في هاتين الآيتين الكريمتين إن التصور الإسلامي - وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه - لا يقدم الحياة الآخرة بديلًا من الحياة الدنيا - ولا العكس - إنما يقدمهما معًا في طريق واحد، وبجهد واحد، ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج اللّه وحده في الحياة - دون أن يُدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج اللّه، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تُضبط بهذا المنهج - ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

والتصور الإسلامي - وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه - لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى بديلًا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية... وليس هو المنهج الذي يَعِد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا - كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان!

فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي - والمنهج الإسلامي - فريضة الخلافة في الأرض. والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس... وهذه وتلك معًا هي مؤهلات

الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معًا والطريق هو الطريق، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم، والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة، ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع... لأنهما لا تجتمعان!

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي، وبين النجاح في الحياة الدنيا والنجاح في الحياة الأخرى... إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية!

إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج اللّه وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها، معادية لمنهج اللّه في الأساس والاتجاه.

وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى.

إنهم يؤدونها قلقًا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر؛ من جراء خواء قلوبهم من طُمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه، إذا هم آثروا اطراح الدين كله، على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم، يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ولا تطيق الفراغ والخواء. وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية، أو فلسفية، أو فنية... على الإطلاق... لأنها جوعة النزعة إلى إله...

وهم يؤدونها كذلك قلقًا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر إذا هم حاولوا

الاحتفاظ بعقيدة في اللّه، وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح - على غير منهج اللّه، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني، والسلوك الديني - مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود.

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية، أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية... وتتصور - أو يصور لها أعداء البشرية - أن الدين للّه، وأن الحياة للناس!

وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة... ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء... لأنها لا تهتدي إلى منهج اللّه الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع، ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة، بل ينسق.

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة، إذ نرى أممًا لا تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج اللّه في حياتها، وهي موفورة الخيرات، كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء.

إنه رخاء موقوت، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت. وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني...

والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى:

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم؛ مما يجعل المجتمع حافلًا بالشقاء، وحافلًا بالأحقاد، وحافلًا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه

الأحقاد الكظيمة، وهو بلاء على رغم الرخاء!

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعًا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام!

وتظهر في الانحلال النفسي والخُلُقي الذي يؤدي بدوره - إن عاجلًا أو آجلًا - إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق.

والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان!

وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم - وبخاصة أشدها رخاء ماديًّا - مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.

ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء!

وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحًا كافيًا يَلفت الأنظار!

وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب الذي تحوم حوله نُذُر الحرب المدمرة... وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية... ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء!

وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار - وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي

- وليس هذا إلا مثلًا للآخرين، في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني وافتراق الدنيا والآخرة، وافتراق الدين والحياة أو اتخاذ منهج للآخرة من عند اللّه، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج اللّه وحياة الناس![1].

ويقول صاحب «بحوث تربية الفتاة المسلمة» (١/ ٨): والكتب تمثل إرادة الله تعالى من عباده، باعتباره ﷻ مصدر السلطان الأول والأخير في الوجود، فتتلمس الفتاة من خلال تطبيق الكتاب مرادات الله تعالى في كل جزئية وكلية، وتشعر بارتباطها جميعًا بجذور العقيدة.

فلباس الفتاة - مثلًا- ليس بذي قيمة حقيقية إن لم يكن تعبيرًا عن موقف فكري، ومبدأ تؤمن به وتمارسه في واقع الحياة، فما قيمة الحجاب إذا كان الدافع لارتدائه العادات والتقاليد «الهشة» وليس حكمَ الله تعالى؟

وما قيمة أيِّ سلوك تقوم به الفتاة إن لم يكن صادرًا عن جذْر الإيمان بحق الله تعالى في الحكم والتشريع؟

إن القيمة الحقيقية التي تُقَوَّمُ بها الأعمال هي قدر حظِّها من الارتكاز على الاعتقاد وأصول الإيمان، المتمثل في استشعار الرغبة الصادقة في تحقيق مراد الله تعالى، وحاكميته في واقع الحياة من خلال السلوك الذي وصفه في الكتاب ورغَّب فيه، مع ربط كل عمل من الأعمال الإرادية الظاهرة أو

---

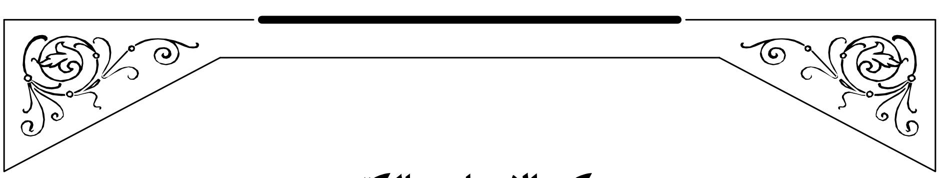
(١) نقل من «ظلال القرآن» (٤/ ٢٢١٥).

وانظر «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ١٢٩)، و«إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل» (٢٣/ ١١)، و«أركان الإيمان» (ص: ٢٩)، و«موسوعة البحوث والمقالات العلمية»، و«الطريق إلى الإسلام» (ص: ٤٣)، و«كتب ورسائل للعثيمين» (٨٤/ ٢٠) و«تعريف غير المسلمين بالإسلام» (ص: ٤٤).

الباطنة بأصل المعتقد.

ولقد تعرَّض مبدأ الحاكمية - بهذا المعنى - في العصر الحديث - ولا سيما بعد الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) وظهور مبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان - إلى هزَّات شديدة أخذت تنقل الإنسان - ولا سيما الأوربي- بالتدريج بعد مراحل طويلة من الخسف والإذلال إلى مراتب عالية، قد تصل في علوِّها إلى حد الإلهية، فيسبغ على نفسه من خلال مبادئ الحرية والديموقراطية - خصائص الإلهية في الحكم والتشريع والسلطة، التي لا تكون إلا لله تعالى وحده.

ومن آثار الإيمان بالكتب انضباط سلوك المكلفين بمقتضيات الشريعة التي بيَّن فيها الوحي الرباني نهج السلوك الإنساني المَرضي في العبادات والمعاملات وفي جوانب الحياة المختلفة، بحيث تكون معالم السلوك التي أوضحتها الشريعة حجة على الناس وليس العكس، وتكون مقرراتها الخلقية ضوابط لسلوك الإنسان، بحيث لا تختل مقررات الشارع الحكيم عند الفرد فيما هو مصلحة أو مفسدة على الدوام، مصداقًا لقوله عليه الصلاة والسلام: «**الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه...**» بمعنى التزام قضاء الله التشريعي دون اختيار، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦] مع ضرورة الرضا القلبي بأوامر الله تعالى، ومحبتها، بحيث تحب الفتاة ما أحبه الله، وتبغض ما أبغضه الله، ويكون التزامها بالأحكام باعتبارها ضوابط سلوكية محبوبة، وليس باعتبارها قيودًا دينية مكروهة كما يظهر من بعضهن.



حكم الإيمان بالكتب

الإيمان بكتب الله التي أنزل على رسله كلها ركن عظيم من أركان الإيمان وأصل كبير من أصول الدين، لا يتحقق الإيمان إلا به.

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

فأَمَر الله عباده المؤمنين في الآية بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشُعبه وأركانه. فأمرهم بالإيمان بالله ورسوله وهو محمد ﷺ والكتاب الذي أنزل على رسوله وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل وهو جميع الكتب المتقدمة؛ كالتوراة، والإنجيل، والزبور. ثم بَيَّن في ختام الآية أن مَن كفر بشيء من أركان الإيمان فقد ضل ضلالًا بعيدًا وخرج عن قصد السبيل.

ومن أركان الإيمان المذكورة الإيمان بكتب الله.

ولتقرير الإيمان بالكتب كلها أَمَر الله عباده المؤمنين أن يخاطبوا أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

فتضمنت الآية إيمان المؤمنين بما أنزل الله عليهم بواسطة رسوله ﷺ،

وما أنزل على أعيان الرسل المذكورين في الآية، وما أنزل على بقية الأنبياء في الجملة وأنهم لا يفرقون بين الرسل في الإيمان ببعضهم دون بعض، فانتظم ذلك الإيمان بجميع الرسل وكل ما أنزل الله عليهم من الكتب.

قال ابن كثير: هو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء. حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب(١).

والآيات في تقرير هذا من كتاب الله كثيرة.

وأما السنة: فقد دلت كذلك على وجوب الإيمان بالكتب وأن الإيمان بها ركن من أركان الإيمان، دل على ذلك حديث جبريل وسؤاله النبي ﷺ عن أركان الإيمان، فذكر النبي ﷺ في إجابته الإيمان بالكتب مع بقية أركان الإيمان.

فتقرر بهذا وجوب الإيمان بالكتب والتصديق بها جميعها، واعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى والنور والضياء(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٧).

(٢) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ١٢١).



إنكار الكتب المنزلة أو شيء منها[1]

- من المعلوم أن الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله على رسله عليهم السلام هو أحد أركان الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥].

ووجوب الإيمان بهذه الكتب يعتبر أمرًا بدهيًّا بالنسبة للمؤمن، فما دام يؤمن بالله تعالى، وقد صدّق بما نزل من عنده من الوحي، وما دام أن الله تعالى يخبره في كتابه الكريم أنه قد أنزل كتبًا سابقة على الأنبياء والرسل - فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة، ويعتقد يقينًا أنها منزلة من عند الله

(١) نقل من «نواقض الإيمان القولية والعملية» (١/ ٢٢١)، و«الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٦/ ٤٥٢، بترقيم الشاملة آليًّا).

تعالى.

- إن الأقوال التي تناقض الإيمان بالكتب المنزلة لها صور متعددة وأمثلة كثيرة يصعب حصرها، منها: التكذيب والإنكار لهذه الكتب أو بغضها، أو سبها والطعن فيها، أو الاستهزاء بها وانتقاصها والاستخفاف بها، أو الادعاء باختلاقها وافترائها... نذكر منها:

١- الإنكار والاستهزاء بالكتب المنزلة.

فأما معنى الإنكار فهو الجحود وعدم الاعتراف، وأما الاستهزاء فهو السخرية والاستخفاف...

ووجه كون إنكار الكتب المنزلة أو الاستهزاء بها كفرًا وناقضًا من نواقض الإيمان عدة أمور، منها:

أ- إن هذا الإنكار أو الاستهزاء تكذيب للقرآن، حيث أمر الله تعالى بالإقرار بآياته وتصديقها، وعدم اتخاذها هزوًا، وأيضًا فإن الله تعالى قد حكم بالكفر على من جحد آياته، كما توعده بالعذاب المهين[١] وأخبر تعالى أنه لا أحد أظلم ممن كَذَّب بآيات الله تعالى، وأنهم لا تُفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ

---

(١) وكما قال ابن تيمية: ولم يجئ إعداد العذاب المهين إلا في حق الكافر. «الصارم المسلول» (ص: ٥٢).

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الحج: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقال ﷻ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧، ٢٨].

ومن الآيات التي جاءت في شأن المستهزئين، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩﴾ [الجاثية: ٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤، ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

يقول ابن تيمية[١]: نُقل عن الشافعي أنه سئل عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال كافر. واستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ويقول أيضًا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر[٢].

ب- إن الإيمان بالكتب المنزلة يتضمن الإقرار بها وتصديقها، ولا شك أن إنكارها يناقض هذا الإقرار والتصديق، فإنكار الكتب المنزلة يناقض قول القلب وهو التصديق، كما يناقض قول اللسان وهو الإقرار.

والإيمان بالكتب المنزلة يتضمن أيضًا وجوب تعظيمها وإجلالها وإكرامها، وإن الاستهزاء بها لا يجتمع مع هذا التعظيم والإجلال، فهو مناقض لعمل القلب، كما أنه يناقض الإيمان الظاهر باللسان.

ج- إن إنكار الكتب السماوية يتضمن إنكارًا لصفة الكلام الإلهي، ونفي هذه الصفة من الإلحاد في أسماء الله تعالى، وسوء الظن بالله تعالى، وعدم قدر الله تعالى حق قدره.

كما أن هذا الإنكار طعن في الرسل عليهم السلام وتنقص لهم، وأن الطعن في الرسل عليهم السلام وسبّهم من نواقض الإيمان.

كما أن هذا الإنكار والاستهزاء هو إنكار واستهزاء بشرائع الدين وأحكامه الإلهية المتلقاة من هذا الوحي، والاستهزاء بالدين كفر[٣] لأن أصل الدين

---

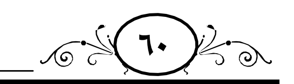
(١) «الصارم المسلول» (ص: ٥٢).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٣١)، وانظر: «المحلى» لابن حزم (١٣/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ١٢٤).

قائم على التعظيم[١].

د- روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**المراء في القرآن كفر**»[٢].

ومما قاله الخطابي في بيان هذا الحديث: اختلف الناس في تأويله: فقال بعضهم: معنى المراء هنا: الشك فيه، كقوله تعالى:  ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي: في شك، ويقال: بل المراء هو الجدال المشكك فيه. وتأوله بعضهم على المراء في قراءاته دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول قائل: هذا قرآن قد أنزله الله تبارك وتعالى. ويقول الآخر: لم ينزله الله هكذا. فيكفر به من أنكره، وقد أنزل سبحانه كتابه على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، فنهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بعضًا يقرؤها، وتوعدهم بالكفر عليها لينتهوا عن المراء فيه والتكذيب به[٣].

فإذا كان الشك في القرآن يعد كفرًا، فإن إنكاره أشد كفرًا.

هـ- حكى أهل العلم الإجماع على كفر من أنكر الكتب المنزلة أو بعضها - ولو كانت آيةً واحدةً - وكذا أجمعوا على كفر المستهزئ بهذه الكتب المنزلة.

فهذا ابن عبد البر يحكي الإجماع قائلًا: وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا - هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة لمسلم

(١) انظر: «تفسير السعدي» (٣/ ٢٥٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود (٤٦٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٠) (٧٩٧٦). وقال أحمد شاكر في «المسند» (١٥/ ١٤٦): إسناده صحيح. وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: حسن صحيح. . .

(٣) «معالم السنن» مع «سنن أبي داود» (٥/ ٩)، وانظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ٩١) و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٤/ ٣٠٢).

إلا بما فيه. . . - إلى أن قال: - وإنما حلّ مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه. . . ويبين لك أن من دفع شيئًا مما في مصحف عثمان كفر[١].

وينقل ابن عبد البر الإجماع الذي حكاه إسحاق بن راهويه، حيث قال إسحاق: قد أجمع العلماء أن من سبّ الله عز وجل، أو سبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، أو دفع شيئًا أنزله الله، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله، وهو مع ذلك مقرّ بما أنزل الله - أنه كافر.

فإذا كان دَفْع شيء أنزله الله كفرًا بالإجماع ولو كان مقرًّا به، فما بالك بمن أنكر هذا الوحي؟[٢].

ويقول القاضي عياض: اعلم أن من استخفّ بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبّهما، أو جحده، أو حرفًا منه أو آيةً، أو كذّب به، أو بشيءٍ منه، أو كذّب بشيءٍ مما صرح به فيه من حكم، أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته، على علمٍ منه بذلك، أو شك في شيءٍ من ذلك - فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وكذلك إنْ جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة، أو كفر بها، أو لعنها، أو سبها، أو استخف بها - فهو كافر.

وقال أبو عثمان الحداد: جميع من ينتحل التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كفر[٣].

ويقول ابن حزم: من قال: إن القرآن نقص من بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم حرف أو

(١) «التمهيد» (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) سيأتي الكلام مفصلًا في حكم الكفر بالقرآن، والتوراة، والإنجيل.

(٣) «الشفا» (٢/ ١١٠١ - ١١٠٥) باختصار.

زيد فيه حرف، أو بدل منه حرف، أو أن هذا المسموع أو المحفوظ، أو المكتوب أو المنزل ليس هو القرآن، وإنما هو حكاية القرآن، وغير القرآن، أو قال: إن القرآن لم ينزل به جبريل ﷺ على قلب محمد ﷺ، أو أنه ليس هو كلام الله - تعالى - فهو كافر، خارج عن دين الإسلام؛ لأنه خالف كلام الله ﷻ، وسنن رسول الله ﷺ، وإجماع أهل الإسلام(١).

كما أن ابن قدامة حكم بالكفر على من استهزأ بآيات الله(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ويقول ابن بطة: وكذلك وجوب الإيمان والتصديق بجميع ما جاءت به الرسل من عند الله، وبجميع ما قاله الله ﷻ فهو حق لازم، فلو أن رجلًا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئًا واحدًا، كان برد ذلك الشيء كافرًا عند جميع العلماء(٣).

وقال محمد بن إسماعيل الرشيد الحنفي: من قرأ القرآن على ضرب الدف والقضيب يكفر، وكذا من لم يؤمن بكتاب من كتب الله تعالى، أو جحد وعدًا أو وعيدًا مما ذكره الله تعالى في القرآن، أو كَذَّب شيئًا منه.

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: فكل من آمن بكتب الله ورسله في كل زمان فهو مسلم، ومن كفر بشيء من كتب الله فليس مسلمًا في أي زمان كان(٤).

---

(١) «الدرة فيما يجب اعتقاده» (ص ٢٢٠، ٢٢١)، وانظر قريبًا من هذا الكلام في «المحلى» (١/ ١٥، ١٦، ٣٩) و«الفصل» (٥/ ٤٠).

(٢) انظر: «المغنى» (١٠/ ١١٣).

(٣) «الإبانة الصغرى» (ص ٢١١).

(٤) «إقامة الدليل على إبطال التحليل» (٢/ ٢١٠)

وسُئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجل لعن اليهود، ولعن دينه وسبّ التوراة، فهل يجوز لمسلم أن يسب كتابهم أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، ليس لأحد أن يلعن التوراة، بل من أطلق لعن التوراة فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قُتل، وإن كان ممن يعرف أنها منزلة من عند الله وأنه يجب الإيمان بها، فهذا يُقتل بشتمه لها ولا تُقبل توبته في أظهر قولي العلماء. وأما إن لعن دين اليهود الذي هم عليه في هذا الزمان فلا بأس في ذلك، فإنهم ملعونون هم ودينهم، وكذلك إنْ سبَّ التوراة التي عندهم بما يبين أن قصده ذكر تحريفها مثل أن يقال: (نسخ هذه التوراة مبدلة لا يجوز العمل بما فيها، ومن عمل اليوم بشرائعها المبدلة والمنسوخة فهو كافر)، فهذا الكلام ونحوه حق لا شيء على قائله، والله أعلم[1].

ويقول في موضع آخر: مَن زعم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت... فلا خلاف في كفره[2].

ويقول البهوتي: من جحد كتابًا من كتب الله أو شيئًا منه، أو استهزأ بالله تعالى، أو بكتبه أو رسله، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦][3].

ويقول الشيخ الفوزان حفظه الله: فمن جحد كتابًا من كتب الله، أو بعضًا من الكتاب، أو كلمة من الكتاب، أو حرفًا من الكتاب؛ فهو كافر بالله عَزَّ وَجَلَّ[4].

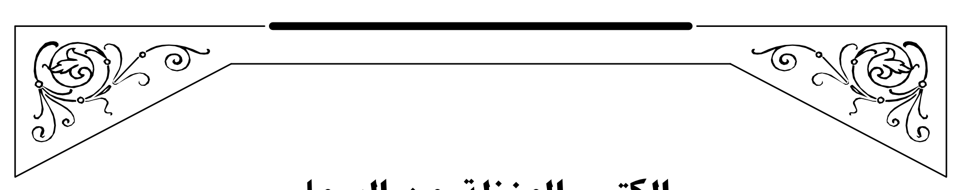
---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٠٠).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٨٦) باختصار.

(٣) «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨) وانظر: «المبدع» (٩/ ١٧١).

(٤) «مؤلفات الفوزان» (١٦/ ٨٤).



الكتب المنزلة من السماء

لقد أنزل الله ﷻ كتبًا على رسله، فهما ما سماه لنا. ومنها ما لم يسمه لنا والكتب التي ورد تسميتها في القرآن الكريم سوف نذكرها مرتبة على حسب نزولها.

لكن قبل أن نذكر هذه الكتب هناك مسألة، ألا وهي: هل كل رسول أُرسل نزل معه كتاب؟

أجاب الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، **فقال:** اعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] أي مع هؤلاء الرسل، وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب. والكتب المعروفة لدينا هي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، والقرآن الكريم... وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالًا؛ فتقول بقلبك، ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله على كل رسول.

ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى كتابًا يسمى التوراة، وعلى عيسى كتابًا يسمى الإنجيل؛ وعلى داود كتابًا يسمى الزبور؛ أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك؛ لأنه محرف، ومغير، ومبدل؛ لكن تؤمن بأن له أصلًا نزل على هؤلاء الرسل[١].

---

(١) «تفسير العثيمين» (٢/ ٢٨٦).



أول الكتب نزولًا

الكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن هي بترتيبها التاريخي: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن:

صحف إبراهيم

أنزلها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام، وكان فيها المواعظ، والأحكام.

وسيكون الكلام عنها في هذه العناصر:

١- ما ورد عنها في القرآن الكريم.

٢- في أي شهر نزلت.

٣- بعض ما جاء فيها من الآثار.

أولًا: ما ورد عنها في القرآن الكريم:

كل الذي جاء في القرآن عنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ

عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦- ٥٦][1].

---

(١) قال البغوي في «تفسيره» (٧/ ٤١٥): ثُمَّ بَيَّنَ مَا فِي صُحُفِهِمَا فَقَالَ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أَيْ: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ حَامِلَةٌ حِمْلَ أُخْرَى، وَمَعْنَاهُ: لَا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِإِثْمِ غَيْرِهَا. وَفِي هَذَا إِبْطَالُ قَوْلِ مَنْ ضَمِنَ لِلْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَنْهُ الْإِثْمَ.

وَرَوَى عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانُوا قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يَأْخُذُونَ الرَّجُلَ بِذَنْبِ غَيْرِهِ، كَانَ الرَّجُلُ يُقْتَلُ بِقَتْلِ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ وَامْرَأَتِهِ وَعَبْدِهِ، حَتَّى كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَبَلَّغَهُمْ عَنِ اللَّهِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أَيْ: عَمِلَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٤] وَهَذَا أَيْضًا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا مَنْسُوخُ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فَأَدْخَلَ الْأَبْنَاءَ الْجَنَّةَ بِصَلَاحِ الْآبَاءِ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ ذَلِكَ لِقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، فَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَلَهُمْ مَا سَعَوْا وَمَا سَعَى لَهُمْ غَيْرُهُمْ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً رَفَعَتْ صَبِيًّا لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ**» أخرجه مسلم (١٣٣٦).

وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٤) ومسلم (١٠٠٤).

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ: أَرَيْتُهُ الشَّيْءَ.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ الْأَكْمَلَ وَالْأَتَمَّ، أَيْ: يُجْزَى الْإِنْسَانُ بِسَعْيِهِ، يُقَالُ: جَزَيْتُ فُلَانًا سَعْيَهُ وَبِسَعْيِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بْنَ سَعْدٍ سَعْيَهُ ... لَمْ أَجْزِهِ بِبَلَاءِ يَوْمٍ وَاحِدِ

فَجَمَعَ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ.

=

. . . .

= ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أَيْ: مُنْتَهَى الْخَلْقِ وَمَصِيرُهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقِيلَ: مِنْهُ ابْتِدَاءُ الْمِنَّةِ وَإِلَيْهِ انْتِهَاءُ الْآمَالِ.
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ فَبِقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ حَتَّى الضَّحِكُ وَالْبُكَاءُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْكَلْبِيُّ: أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَضْحَكَ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، وَأَبْكَى السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ. وقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: يَعْنِي أَفْرَحَ وَأَحْزَنَ، لِأَنَّ الْفَرَحَ يَجْلِبُ الضَّحِكَ، وَالْحُزْنَ يَجْلِبُ الْبُكَاءَ.
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: أَمَاتَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْيَا لِلْبَعْثِ. وَقِيلَ: أَمَاتَ الْآبَاءَ وَأَحْيَا الْأَبْنَاءَ. وَقِيلَ: أَمَاتَ الْكَافِرَ بِالنَّكِرَةِ وَأَحْيَا الْمُؤْمِنَ بِالْمَعْرِفَةِ.
﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ.
﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أَيْ: تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ، يُقَالُ: مَنَى الرَّجُلُ وَأَمْنَى. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: تُقَدَّرُ، يُقَالُ: مَنَيْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا قَدَّرْتُهُ.
﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أَيِ: الْخَلْقَ الثَّانِيَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ قَالَ أَبُو صَالِحٍ: أَغْنَى النَّاسَ بِالْأَمْوَالِ وَأَقْنَى، أَيْ: أَعْطَى الْقِنْيَةَ وَأُصُولَ الْأَمْوَالِ وَمَا يَدَّخِرُونَهُ بَعْدَ الْكِفَايَةِ. قَالَ الضَّحَّاكُ: أَغْنَى بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَصُنُوفِ الْأَمْوَالِ، وَأَقْنَى بِالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ. وَقَالَ قتادة والحسن: «أَقْنَى»: أَخْدَمَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾: أَعْطَى فَأَرْضَى. قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: «أَقْنَى»: أَرْضَى بِمَا أَعْطَى وَقَنَعَ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿أَغْنَىٰ﴾: أَكْثَرَ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أَقَلَّ وَقَرَأَ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] وَقَالَ الْأَخْفَشُ: «أَقْنَى»: أَفْقَرَ. وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: أَوْلَدَ.
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وَهُوَ كَوْكَبٌ خَلْفَ الْجَوْزَاءِ.
﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ ... وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ، أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ، فَكَانَ لَهُمْ عَقِبٌ، فَكَانُوا عَادًا الْأُخْرَى.
﴿وَثَمُودَا﴾ قَوْمَ صَالِحٍ، أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالصَّيْحَةِ ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ مِنْهُمْ أَحَدًا.
﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لِطُولِ دَعْوَةِ نُوحٍ إِيَّاهُمْ وَعُتُوِّهِمْ عَلَى اللَّهِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالتَّكْذِيبِ. =

ثانيًا: في أي شهر نزلت:

وردت بعض الأحاديث والآثار في ذلك:

فعن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنزلت صحف إبراهيم** عليه السلام **في أول ليلة من رمضان...**»[١].

وكذلك ورد عَنْ أَبِي الْجَلْدِ[٢].

وأيضًا عَنْ قَتَادَةَ[٣].

ثالثًا: بعض ما جاء فيها من الآثار:

إن صحف إبراهيم عليه السلام كانت كلها تدعو إلى عبادة الله ﷻ، وألا يشرك به سبحانه، وتدعو إلى مكارم الأخلاق. وهذا كان ظاهرًا في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ

= ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿أَهْوَىٰ﴾ أَسْقَطَ، أَيْ: أَهْوَاهَا جِبْرِيلُ بَعْدَمَا رَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ.

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أَلْبَسَهَا اللَّهُ ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ يَعْنِي: الْحِجَارَةَ الْمَنْضُودَةَ الْمُسَوَّمَةَ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ نِعَمِ رَبِّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَقِيلَ: أَرَادَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تَشُكُّ وَتُجَادِلُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُكَذِّبُ.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أَيْ: رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَيْكُمْ كَمَا أُرْسِلُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: أَنْذَرَ مُحَمَّدٌ كَمَا أَنْذَرَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٩٨٤) والطبري في «تفسيره» (٢٨١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨٥)، وفي «الأوسط» (٣٧٥٢)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٨٨) وفي «الأسماء والصفات» (ص٣٢٣)، وغيرهم.

وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «الأحاديث الصحيحة» (٤/ ١٠٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠١٩١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦).

ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٧].

وأما وجود صحف إبراهيم عليه السلام في صورتها المنزلة بها فلم تَعُد موجودة لأنها ضاعت ولم يَعُد لها أثر معروف. وقد ورد بعض الآثار تذكر ما فيها، والغالب على هذه الآثار الضعف، لكننا ذكرناها من باب جمع ما جاء في الباب.

فعن ابن عباس، قال: «لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، قال: وفى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾»[النجم: ٣٨][(١)].

وعن ابن جريج «قال: هذا في صحف إبراهيم وموسى أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى وكذا وكذا، كل هذا في صحف إبراهيم وموسى»[(٢)].

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْغِفَارِيِّ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٠٤) وأبو بكر الإسماعيلي في «معجمه» (١/ ٤٨٤) والحاكم في «المستدرك» (٢٩٣٠) من طريق ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (٣٧) عن حجاج، عن ابن جريج.

﴿لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦] قَالَ: «هَذَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى»(١).

وعن ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] قَالَ: فِي الصُّحُفِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى: أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَى»(٢).

وقال الطبري في «تفسيره» (٣٢٤/٢٤): وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٤]: لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَصُحُفِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَإِنَّمَا قُلْتُ: ذَلِكَ أَوْلَى بِالصِّحَّةِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى حَاضِرٍ، فَلَأَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَا قَرُبَ مِنْهَا أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى غَيْرِهِ. وَأَمَّا الصُّحُفُ: فَإِنَّهَا جَمْعُ صَحِيفَةٍ، وَإِنَّمَا عُنِيَ بِهَا: كُتُبُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ... وفيه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ؟ قَالَ: «**مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ: أُنْزِلَ عَلَى شِيثٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً، وَأُنْزِلَ عَلَى أَخْنُوخَ ثَلَاثُونَ صَحِيفَةً، وَأُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشَرُ صَحَائِفَ، وَأُنْزِلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ عَشَرُ صَحَائِفَ، وَأُنْزِلَ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْقُرْآنُ**».

قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ صَحِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «**كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا:**

أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ،

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٧٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣٢٤).

وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ. وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ. وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ. وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ، وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لِي فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ مِمَّا كَانَ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى؟ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ قْرَأْ:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ»[١].

وعن وهب بن منبه قال: «كان في صحف إبراهيم - أو قال: فيما أنزل الله على إبراهيم - أيها الملك المبتلى، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولا لتبني البنيان، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر»[٢].

وعن دَاوُدَ بْنِ هِلَالٍ النَّصِيبِيِّ قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: يَا دُنْيَا مَا أَهْوَنَكِ عَلَى الْأَبْرَارِ الَّذِينَ تَصَنَّعْتِ لَهُمْ وَتَزَيَّنْتِ لَهُمْ! إِنِّي قَدْ قَذَفْتُ فِي قُلُوبِهِمْ بُغْضَكِ وَالصُّدُودَ عَنْكِ، مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْكِ، كُلُّ شَأْنِكِ صَغِيرٌ، وَإِلَى الْفَنَاءِ تَصِيرِينَ، قَضَيْتُ عَلَيْكِ يَوْمَ خَلَقْتُ الْخَلْقَ أَلَّا تَدُومِي لِأَحَدٍ، وَلَا يَدُومُ لَكِ أَحَدٌ، وَإِنْ بَخِلَ بِكِ صَاحِبُكِ وَشَحَّ عَلَيْكِ، طُوبَى لِلْأَبْرَارِ الَّذِينَ أَطْلَعُونِي مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى الرِّضَا، وَأَطْلَعُونِي مِنْ ضَمِيرِهِمْ عَلَى

---

(١) **ضعيف جدًّا:** أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٧٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٦٩)، وغيره.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (٢٠)، وفيه عابد بن ناجية، لم أجد له ترجمه.

الصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، طُوبَى لَهُمْ مَا لَهُمْ عِنْدِي مِنَ الْجَزَاءِ إِذَا وَفَدُوا إِلَيَّ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَّا النُّورُ يَسْعَى أَمَامَهُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ حَافُّونَ بِهِمْ حَتَّى أَبْلُغَ بِهِمْ مَا يَرْجُونَ مِنْ رَحْمَتِي»(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ - أَوْ قَالَ: فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - فَوَجَدْتُ فِيهَا: يَقُولُ اللَّهُ: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَنْصَفْتَنِي، خَلَقْتُكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا وَجَعَلْتُكَ بَشَرًا سَوِيًّا، خَلَقْتُكَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ فَجَعَلْتُكَ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْتُ النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْتُ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْتُ الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْتُ الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْتُكَ خَلْقًا آخَرَ، يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرِي؟ ثُمَّ خَفَّفْتُ ثِقَلَكَ عَلَى أُمِّكَ حَتَّى لَا تَتَبَرَّمَ بِكَ وَلَا تَتَأَذَّى، ثُمَّ، أَوْحَيْتُ إِلَى الْأَمْعَاءِ أَنِ اتَّسِعِي وَإِلَى الْجَوَارِحِ أَنْ تَفَرَّقِي، فَاتَّسَعَتِ الْأَمْعَاءُ مِنْ بَعْدِ ضِيقِهَا وَتَفَرَّقَتِ الْجَوَارِحُ مِنْ بَعْدِ تَشَبُّكِهَا، ثُمَّ أَوْحَيْتُ إِلَى الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِالْأَرْحَامِ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ فَاسْتَخْلَصَكَ عَلَى رِيشَةٍ مِنْ جَنَاحِهِ، فَاطَّلَعْتُ عَلَيْكَ فَإِذَا أَنْتَ خَلْقٌ ضَعِيفٌ لَيْسَ لَكَ سِنٌّ يَقْطَعُ وَلَا ضِرْسٌ يَطْحَنُ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ فِي صَدْرِ أُمِّكَ عِرْقًا يَدُرُّ لَبَنًا بَارِدًا فِي الصَّيْفِ حَارًّا فِي الشِّتَاءِ، وَاسْتَخْلَصْتُهُ لَكَ مِنْ بَيْنِ جِلْدٍ وَلَحْمٍ وَدَمٍ وَعُرُوقٍ، ثُمَّ قَذَفْتُ لَكَ فِي قَلْبِ وَالِدِكَ الرَّحْمَةَ وَفِي قَلْبِ أُمِّكَ التَّحَنُّنَ، فَهُمَا يُكَدَّانِ عَلَيْكَ وَيَجْهَدَانِ يُرَبِّيَانِكَ وَيُغَذِّيَانِكَ وَلَا يَنَامَانِ حَتَّى يُنَوِّمَانِكَ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ لَا لِشَيْءٍ اسْتَأْهَلْتَ بِهِ مِنِّي وَلَا لِحَاجَةٍ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى قَضَائِهَا، يَا ابْنَ آدَمَ فَلَمَّا قَطَعَ سِنُّكَ وَطَحَنَ ضِرْسُكَ أَطْعَمْتُكَ فَاكِهَةَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٠٠) (ص: ٩٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥٨)، من طريق علي بن أبي مريم، عن زهير بن عباد، عن داود بن هلال النصيبي، به. وفيه علي بن أبي مريم، لم أقف له على ترجمة.

الصَّيْفِ فِي أَوَانِهَا، وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي أَوَانِهَا فَلَمَّا أَنْ عَرَفْتَ أَنِّي رَبُّكَ عَصَيْتَنِي فَادْعُنِي فَإِنِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ، وَاسْتَغْفِرْنِي فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»(١).

وعن جابر قال: وجدت في مصحف إبراهيم عليه السلام أنه قال: أي البقاع أحب إليك؟ قال: مهاجرك يا إبراهيم، يعني: فلسطين وبيت المقدس، إذا كان آخر الزمان أخرجت(٢).

مسألة:

الكتب التي أنزلها الله عز وجل على المرسلين اختلف العلماء هل يدخل فيها الصحف، أم أن الكتب غير الصحف؟ على قولين:

* من أهل العلم من قال: الصحف هي الكتب.

* ومنهم من قال: لا؛ الصحف غير الكتب.

ويَتَّضِح الفرق في صحف موسى عليه السلام والتوراة، فإنَّ الله أعطى موسى عليه السلام صُحُفًا وأعطاه أيضًا التوراة، فهل هما واحد أم هما مختلفان؟

خلاف:

القول الأول: أنهما واحد لأن صحف موسى هي التوراة وهي التي كتبها الله بيده.

القول الثاني: أن الصحف غير الكتب.

وهذا القول هو الصحيح.

ويدل على هذا الفرق أنَّ الله أعطى موسى عليه السلام صحفًا وكَتَبَ له ذلك في

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٩) وفي سنده من لم أقف على ترجمة له.

(٢) أخرجه ابن المرجى المقدسي في «فضائل بيت المقدس» (ص: ٢١٦)، وفي سنده مجاهيل.

الألواح كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وأوحى الله إليه بالتوراة أيضًا.

فقوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٩]، وفي صحف موسى ما كتبه الله له.

وأما التوراة: فهي وحْيٌ وكتَابٌ مستقل غير صحف موسى عليه السلام أوحاها الله إليه. صحف موسى بالذات وَقَعَ فيها الإشتباه من جهة أَنَّهُ ظاهر القرآن أنَّ الله كَتَبَ الصحف لقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ وجاء في الحديث أنَّ الله كتب التوراة لموسى بيده، فمن هذه الجهة وقع الاشتباه، هل هما واحد لأجل أن هذه كُتِبَتْ وهذه كُتِبَتْ.

والأظهر كما ذكرتُ لك من سياق الآيات في سورة الأعراف أن الكتب غير الصحف[1].



(١) «إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل» (٢٣/ ١١).

التوراة

إن من أركان الإيمان الستة الإيمان بالكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه ورسله، وبأنها حق وصدق وهدى ونور وبيان وشفاء ورحمة للخلق، والإيمان بحكمة الله ﷻ ورحمته بعباده أن بعث أنبياء ورسلًا لهدايتهم ودعوتهم إلى الخير، وإقامة حجته على خلقه، وأنزل عليهم كتبًا ليبيّنوا للناس ما أنزل إليهم من الهدى والنور، وما تتضمنه من أحكام الله ﷻ العادلة، ووصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية وإسعادها في الدنيا والآخرة[1].

وكان منها التوراة وهو كتاب منزل من عند الله عزّ وجل على موسى عليه السلام، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في مواضع عدّة ووُصف بصفات كثيرة:

قال تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤][2].

---

(١) «كتب ورسائل للعثيمين» (١١٢/ ٣٣).

(٢) قال أبو السعود في «تفسيره» (٣/ ٤٠): ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان علوِّ شأن التوراةِ ووجوبِ مراعاة أحكامِها وأنها لم تزل مَرْعيّةً فيما بين الأنبياء ومَنْ يقتدي بهم كابرًا عن كابر مقبولةً لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظةً عن المخالفة والتبديل تحقيقًا لما وُصف به المحرِّفون من عدم إيمانهم بها وتقريرًا لكفرهم وظلمهم.

وقوله تعالى ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ حالٌ من التوراة فإن ما فيها من الشّرائعِ والأحكامِ من حيث إرشادُها للناس إلى الحق الذي لا محيد عنه - هدى ومن حيث إظهارُها وكشفها ما استَبْهَم من الأحكام وما يتعلق بها من الأمور المستورةِ بظلمات الجهل نور. =

وقال تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣].

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

وقال تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

في أي شهر نزلت التوراة؟

عن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: «...**وأنزلت التوراة لسِتٍّ مضين من رمضان...**»(١).

وعن قتادة مثله(٢).

= وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٢٣٢): ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام. ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به في ظُلَم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

(١) سبق الكلام عليه في «صحف إبراهيم».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦).

تاريخ التوراة:

إن كل كتاب يستمد قيمته من قيمة صاحبه، ولابد أن يثبت صحة نسبته إلى صاحبه، وإلا فإنه يفقد قيمته.

والكتب المنزلة المقدسة تستمد قدسيتها من نسبتها إلى من جاءت من عنده، وهو الله ﷻ، ولابد لثبوت قدسيتها أن تثبت صحة نسبتها وسندها إلى الله ﷻ، وما لم يثبت ذلك فإنها لا تكون مقدسة، وغير واجبة القَبول؛ إذ تكون عرضة للتحريف، والتبديل، والخطأ.

فلهذا لابد لنا أن نتعرف على حال التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وهي أهم جزء في العهد القديم الذي بين يدي اليهود والنصارى من ناحية إسنادها فنقول:

إن من نظر في التوراة والأسفار الملحقة بها يجد ذكرًا محدودًا لأسفار موسى التي يسمونها الشريعة، أو سفر الرب، أو التوراة.

ومن خلال هذه المعلومات نجد أن اليهود ذكروا:

١- أن موسى عليه السلام دوَّن جميع الأحكام وكتبها، وهي أحكام أعطيها شفهيًّا.

وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٢٤/ ٣): (فجاء موسى وحَدَّث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد، وقالوا: كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل. فكتب موسى جميع أقوال الرب...) ثم قالوا: (وأخذ كتاب العهد، وقرأ في مسامع الشعب فقالوا: كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له).

٢ - أن موسى أُعطي شريعة مكتوبة بيد الله تعالى، وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٢٤/ ١٢): (وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن

هناك فأعطيك لَوْحَي الحجارة، والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم).

ثم ذكروا بعد هذا أن موسى عليه السلام مكث أربعين يومًا في الجبل، وذكروا شرائع كثيرة أعطيها، وتكلم الله بها معه، ثم في نهاية ذلك ذكروا إعطاءه الألواح، وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٣١/ ١٨): (ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لَوْحَي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله).

وفي أثناء غياب موسى عليه السلام عبد بنو إسرائيل العجل، فلما عاد موسى عليه السلام ورأى قومه يرقصون حول العجل، ألقى الألواح فتكسرت، ثم إن الله تبارك وتعالى فيما يذكر اليهود كتب له لوحين آخرين بدلًا عنها.

٣ - ذكر اليهود أن موسى عليه السلام قبيل وفاته كتب التوراة، وأعطاها لحاملي التابوت، وفي هذا قالوا في (سفر التثنية) (٣١/ ٩): (وكتب موسى هذه التوراة، وسَلَّمها للكهنة من بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلًا: في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة البراء في عيد المظال حينما يجيء جميع إسرائيل؛ لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم).

ثم ذكر اليهود في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دوَّن موسى عليه السلام التوراة فقالوا في (سفر التثنية) (٣١/ ٢٤): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلًا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهدًا عليكم؛ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي).

٤ - ذكر اليهود في سفر يشوع أن يشوع (يوشع) كتب التوراة مرة أخرى على أحجار المذبح حسب وصية موسى عليه السلام، وفي هذا قالوا: (حينئذٍ بنى يشوع مذبحًا للرب إله إسرائيل في جبل عيبال... وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل... وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة، حسب كل ما كتب في سفر التوراة).

٥- انقطع بعد هذا ذكر التوراة وخبرها، فلا يذكر اليهود في كتابهم التوراة التي كتبها موسى، ولا ما كتبه يشوع على حجارة المذبح، وإنما ذكروا التابوت الذي وضع موسى عليه السلام فيه التوراة، وأن هذا التابوت استولى عليه الأعداء في زمن النبي صموئيل في قولهم، ثم أعيد إليهم بعد سبعة أشهر، فجعلوه في قرية يسمونها يعاريم. وبقي هناك فيما ذكروا عشرين عامًا إلى أن جاء داود عليه السلام فأصعده من هناك إلى أورشليم، وجعله في خيمة، ثم نقله سليمان عليه السلام إلى الهيكل الذي بناه، وجعله في قدس الأقداس فيما يقولون، وكانوا يستقبلونه في الصلاة.

وقد ذكروا أن سليمان عليه السلام حين فتح التابوت لم يكن فيه سوى لوحي الحجر اللذين وضعهما موسى عليه السلام، فأين ذهبت نسخة التوراة التي نسخها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت؟ هذا ما لا يجد اليهود ولا النصارى جوابًا له.

٦ - بعد سليمان عليه السلام انقسمت دولة بني إسرائيل إلى قسمين: دولة إسرائيل في الشمال، وهي تحت حكم يربعام بن نباط، وعاصمتها نابلس. ودولة يهوذا في الجنوب، وهي تحت حكم رحبعام بن سليمان، وعاصمتها أورشليم.

وذكر اليهود حادثة في زمن رحبعام، لها دلالتها المهمة، وهي أن رحبعام ترك شريعة الرب هو وكل إسرائيل، وذلك يعني انحرافهم عن الدين

فهاجمهم فرعون مصر في ذلك الزمن، واستباح ديارهم.

وفي هذا قالوا في (سفر الملوك الأول) (١٤/ ٢٢): (وعمل يهوذا الشر في عيني الرب، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها، وبنوا لأنفسهم مرتفعات، وأنصابًا، وسواري على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضًا مأبونون في الأرض فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل.

وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ جميع خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان).

وفي (سفر أخبار الأيام الثاني) (١٢/ ١) وصفوا شيشق، وما معه من قوة بما يلي: (وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر على أورشليم- لأنهم خانوا الرب- بألف ومائتي مركبة، وستين ألف فارس، ولم يكن عدد للشعب الذين جاؤوا معه من مصر، لوبيين وسكيين وكوشيين، وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا، وأتى إلى أورشليم...).

فهذا النص فيه دلالة واضحة على أن عاصمة اليهود الدينية استباحها فرعون مصر، واستولى على ما فيها.

وهذا يدل على أن اليهود فقدوا التوراة في هذه الحادثة حيث لم يُشِر كتابهم المقدس إليها بعد هذا إلا في زمن الملك يوشيا، أي: بعد ما يقارب ثلاثة قرون وزيادة، كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية، كما أن التابوت ينتهي خبره بعد هذه الحادثة إلى زمن الملك يوشيا أيضًا، حيث طلب من اللاويين أن يجعلوا التابوت في البيت الذي بناه النبي سليمان عليه السلام، ثم ينقطع بعد هذا خبره إلى يومنا هذا، ولعله كان مما دمره بختنصر في غزوه لبيت المقدس.

٧ - يزعم اليهود أن الملك يوشيا الذي تولى المُلك في يهوذا بعد سليمان عليه السلام بما يقارب (٣٤٠) عامًا، وقبيل غزو بختنصر لدولة يهوذا وتدميرها مرة أخرى - وجد سفر الشريعة، وهذا نص كلامهم:

(وفي السنة الثامنة عشرة للملك يوشيا، أرسل الملك شافان بن أصليا بن مشلام الكاتب إلى بيت الرب قائلًا:

اصعد إلى حلقيا الكاهن فيحسب الفضة المدخلة إلى بيت الرب التي جمعها حارسو الباب من الشعب فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين ببيت الرب...

فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب.

وسَلَّم حلقيا السفر لشافان فقرأه، وجاء شافان الكاتب إلى الملك ورد على الملك جوابًا... وأخبر شافان الملك قائلًا: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرًا. وقرأه شافان أمام الملك، فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه، وأمر الملك حلقيا الكاهن، وأخيقام بن شافان... قائلًا:

اذهبوا اسألوا الرب لأجلي، ولأجل الشعب، ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وُجد؛ لأنه عظيم، هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا...

وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم وصعد الملك إلى بيت الرب، وجمع رجال يهوذا، وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وُجد في بيت الرب).

فهذا الخبر الذي ذكره اليهود فيه دلالة واضحة على أنهم كانوا قد فقدوا

التوراة، وأنهم أيضًا ضيعوا أحكامها، ونسوا الشيء الكثير منها، وما وجدوه في الواقع ليس فيه أي دليل على أنه التوراة؛ إذ من المستبعد جدًّا أن يكون اليهود قد فقدوا التوراة كل هذه المدة الطويلة - أكثر من ثلاثة قرون - وهي موجودة في الهيكل مع أنه معبد عام، وقد تعاقب على رئاسته خلال تلك المدة الكثيرة من الكهنة، وهم يبحثون عنها كل تلك المدة ولا يجدونها مع ما لها من القداسة في نفوسهم ثم يجدها الكاهن حلقيا!!

هذا في الواقع مستبعد جدًّا، وليس بعيدًا أن يكون الكاهن حلقيا كتبها من محفوظاته ومعلوماته، وزعم أنها سفر الشريعة؛ ليُرضي بذلك الملك يوشيا، الذي كان له تَدَيُّن ورغبة في استقامة الشعب. والله أعلم.

٨ - بعد الملك يوشيا بخمس وعشرين سنة تقريبًا - وذلك سنة (٥٨٦ق.م) هجم بختنصر الكلداني على دولة يهوذا ودمرها، ودمر الهيكل، وسبى بني إسرائيل، وفي هذا قالوا في كتابهم بعد ذكر مبررات التدمير من فساد بني إسرائيل وكفرهم:

«فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم، ولم يشفق على فتى أو عذراء، ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده، وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة، وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعًا إلى بابل، وأحرقوا بيت الله، وهدموا سور أورشليم، وأحرقوا جميع قصورها بالنار، وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل، فكانوا له ولبنيه عبيدًا إلى أن ملكت مملكة فارس.

فيُجمع الكُتَّاب هنا على أن التوراة فُقدت من بني إسرائيل مرة أخرى بسبب هذا التدمير الشامل.

٩ - يزعم اليهود أن عزرا الكاتب قد هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل

بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء. وعزرا هذا كان زمن السبي البابلي، ولما عاد بنو إسرائيل إلى أورشليم في زمن ملك الفرس، جمعهم لقراءة ما كتب من شريعة موسى.

وفي هذا قالوا: (اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إسرائيل، فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء، وكل فاهم ما يسمع في اليوم الأول من الشهر السابع، وقرأ منها أمام الساحة التي أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين، وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة).

فيظهر من هذا واضحًا أن عزرا قد كتب لهم التوراة، ولم يذكر اليهود من أين وصلت التوراة إليه، وبينه وبين موسى عليه السلام أكثر من ثمانية قرون، وقد فُقدت التوراة قبل زمن عزرا قطعًا كما مرَّ ذكره.

فعلى هذا يتبين أن التوراة التي كان عزرا يقرأها على الناس إما أن تكون مفتراة مكذوبة، دوَّنها عزرا من محفوظاته وما وصل إليه من مدونات ومعلومات، وليست توراة موسى، وبالتأكيد لا يوثق بحفظه ولا ما وصل إليه من أوراق وكتب؛ إذ إن ذلك يحتاج إلى إثبات السند المتصل منه إلى موسى عليه السلام، وهذا أبعد عليهم من السماء.

وإما أن تكون معلومات متوارثة في الأحكام الواجب على بني إسرائيل التزامها، دوَّنها عزرا على أنها الفرائض التي أوجبها الله على بني إسرائيل، وزعم هو أو زعم كُتَّاب الكلام السابق أنها سفر شريعة موسى، وبين الأمرين كما بين السماء والأرض؛ إذ إن توراة موسى مُنزلة من عند الله، وما جمعه عزرا ودوَّنه لا يعدو أن يكون فهومًا واستنباطات بشرية يعتريها ما يعتري البشر من النقص والخلل.

وهذا الاحتمال الأخير في رأيي أرجح من سابقه، وذلك لأن اليهود ذكروا في كتابهم عن عزرا قولهم: «لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء». فهذا يدل على أنه أخذ يجدُّ في الجمع والتتبع والعمل والتعليم.

وهناك نص آخر يدل على أن بني إسرائيل قد أهملوا العمل بكثير من التعاليم من أيام يوشع بن نون، وفي هذا قالوا عن أحد أعيادهم التي عملوها بدعوة من عزرا: (وعمل كل الجماعة الراجعين من السبي مظال وسكنوا في المظال؛ لأنه لم يعمل بنو إسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم، وكان فرح عظيمًا جدًّا).

فهذا ينص صراحة على الإهمال للتعاليم، وعدم أدائها من زمن بعيد، فلا يمكن لرجل مهما أوتي من العلم جَمْع كل التعاليم الواجبة مع البعد الزمني، وكثرة التقلبات والانحرافات التي وقع فيها بنو إسرائيل، ومع ذلك فجمعه لا يعدو أن يكون عملًا بشريًّا لا يصح بأي حال نسبته إلى الله ﷻ.

١٠ - ذكر المؤرخون أن الحاكم اليوناني (بطليموس الثاني) الذي كان في الفترة من (٢٨٢ - ٢٤٧ ق. م) طلب من اليعازار رئيس الكهان أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالمًا من علماء التوراة؛ لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية، فنفذ الطلب، وكان اليعازار على رأس أولئك، وتمت المهمة خلال اثنين وسبعين يومًا، فكانت الترجمة المعروفة بـ(السبعينية) في اللغة اليونانية للأسفار الخمسة. وعن اليونانية تُرجم العهد القديم إلى اللاتينية.

فهذه الترجمة للأسفار تمت بعد فترة طويلة جدًّا من وفاة موسى عليه السلام، إذ تُقارب العشرة قرون، وكذلك بعد فترة طويلة من نسخة عزرا التي سبق ذكرها؛ إذ بين هذه الترجمة وتلك النسخة قرابة قرنين من الزمان، مما

يجعل الكتاب الذي تُرجم عنه إلى اليونانية لا سند له، فيكون المترجَم بالتالي لا قيمة له. كما أن هذه المعلومة لم يذكرها إلا رجل يوناني يسمى (أرستاي) في رسالة له؛ لهذا ردها كثيرٌ من متأخري اليهود والنصارى، وإن كان المتقدمون قد قبلوها. كما ذكر ذلك الدبس في (تاريخ سورية). فهي معلومة لم يتوفر لها الإثباتات اللازمة، إضافة إلى غرابتها حيث زعم قائلها أن اليعازار أرسل اثنين وسبعين رجلًا من علماء اليهود، ستة من كل سبط من أسباطهم الاثني عشر، وأنهم جُعلوا في أماكن منفرد بعضهم عن بعض، فكانت ترجماتهم متطابقة تمامًا.

فهذا الخبر لا يمكن قبوله وتصديقه، وذلك لأن مما هو متفق عليه عند اليهود أن عشرة أسباط من بني إسرائيل وهم الذين كانوا شعب دولة إسرائيل شمال دولة يهوذا قد سُبوا من أيام الأشوريين في سنة (٧٢٢ ق.م) وانقرضوا حيث يوصفون بالأسباط العشرة الضائعة، وحسب الخبر المذكور هنا فإن اليعازار قد أحضر ستين عالمًا منهم، وهذا مستبعد جدًّا.

١١- أن اليهود فقدوا المقدرة على فهم اللغة العبرية المدونة القديمة بعد اختلاطهم بالأمم، وذلك أن اللغة العبرية في أصلها بدون نقط ولا حركات، وهذا يسبب أخطاءً كثيرة في القراءة، فاهتدوا إلى وسيلة لإزالة هذا اللبس بإدخال النقط والحركات والفواصل، واستمر هذا العمل من القرن السابع الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي، فأخرجوا نسخة من التوراة باللغة العبرية على هذا النمط تسمى النسخة الماسورية، انتهوا منها في القرن العاشر الميلادي، وعن هذه النسخة - أي: العبرية - المعدلة نُسخت جميع النسخ العبرية والمترجمة عنها.

والسؤال المطروح هنا:

أين النسخ الأصلية التي نُقلت عنها النسخة الماسورية؟

الجواب عن ذلك: إنه لا يوجد بأيدي اليهود أو النصارى شيء من النسخ الأصلية سوى مخطوطات وادي قمران عند البحر الميت، والتي عثر عليها في الفترة من عام (١٩٤٧م) - (١٩٥٦م) وهي مجموعات متكاملة للعهد القديم كُتبت قبل الميلاد بثلاثة قرون، وأقربها عهدًا ما كُتب قبل الميلاد بقرن واحد.

إلا أن هذه المخطوطات التي استولى على الجزء الأكبر منها كل من أمريكا وبريطانيا واليهود في فلسطين لم تُكشف ولم تعلن حتى الآن، مما يجعل في الأذهان استفهامات عديدة حولها، وأنها تتضمن أمورًا خطيرة، جعلت اليهود والنصارى يتفقون على عدم كشفها على غير عادتهم في الآثار التاريخية.

ومن خلال هذا العرض التاريخي الموثق للتوراة يتبين ما يلي:

١ - أن التوراة التي أعطيها موسى عليه السلام مكتوبة، والتي دوَّنها، وكذلك التي دوَّنها يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام فُقدت، إما قبل عهد سليمان عليه السلام أو بعده مباشرة.

٢ - أن اليهود زعموا أنهم عثروا على التوراة زمن الملك يوشيا، وهو ادعاء يحتاج إلى العديد من الإثباتات لاعتقاد صحته.

٣ - أن اليهود فقدوا ما ادعوا أنهم وجدوه زمن الملك يوشيا، وذلك بسبب تدمير بيت المقدس وما أعقب ذلك من سبي اليهود وتهجيرهم.

٤ - أن عزرا أعاد لهم التوراة وكتبها فيما زعم اليهود، وإذا قبلنا كلام اليهود هذا فإن ذلك لا يعدو أن يكون عملًا بشريًّا، وإذا كان عزرا نسبه إلى

الله ﷻ فهو كاذب في ذلك؛ لأن التوراة لم يدَّعِ أحد لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين أنها أنزلت مرتين مرة على موسى ومرة على عزرا.

وقد يكون الذي ادَّعى أن تلك هي التوراة أُلهمها عزرا هم الكتبة فيما بعد، فهم في هذا كاذبون؛ لأن عزرا لم يقل ذلك فيما نقلوا عنه.

وأدلة بطلان ذلك ظاهرة من ناحية بُعد الزمان، وانقطاع السند، وفساد بني إسرائيل.

٥ - أن نسخة عزرا وما دوَّنه عزرا لا يُعلم على التحقيق مصيرها، وإنما بعد ذلك بما يقارب قرنين من الزمان كُتبت النسخة السبعينية، ولم يُذكر من أي نسخة تُرجمت، وادعاء أنها من حفظ الكهنة بعيد جدًّا؛ إذ إن اليهود لا يحفظون كتابهم عن ظهر قلب، وليس فيهم من يدَّعي ذلك.

٦ - أن النسخة العبرية، والتي تنتمي إلى النص الماسوري - لا تختلف عن الكتاب المترجم من ناحية أنها أخذت طريقة في الكتابة مغايرة للغة الأصلية التي كُتب بها العهد القديم؛ مما يجعل ثبوت صحتها منوطًا بوجود النصوص الأصلية التي تتفق مع اللغة القديمة، حتى يمكن المقابلة عليها، وإلا تعتبر لا أصل لها يشهد لصحتها، فتكون بذلك مثلها مثل النسخة اليونانية.

٧ - أن النص اليوناني والنص العبري للتوراة والعهد القديم لم يؤخذا من مصدر واحد، بل من مصدرين مختلفين، يدل على هذا اختلافهما في عدد الأسفار، حيث إن اليونانية ستة وأربعون سفرًا، وأما العبرية الماسورية فهي تسعة وثلاثون سفرًا، كما أن بينهما اختلافات كثيرة وعديدة مما يدل على أنهما من مصدرين مختلفين.

ومن خلال هذا يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن العهد القديم كتاب ليس له أي سند تاريخي يُثبت تسلسل نقله، وأنه تَعَرَّض لفترات عديدة من الضياع، وأن أصله العبري لا وجود له بأيدي اليهود، مما يجعل المجال واسعًا للتحريف والتبديل(١).

بعض الذي جاء في القرآن عن التوراة التي لم تحرف:

تحدث القرآن عن بعض الذي جاء في التوراة:

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إذًا: فما كان فيها مما جاء في القرآن مضافًا إليها فنحن نؤمن بأنه فيها ونصدق به.

وأما ما هو موجود في كتبهم ولم يضف إليها في القرآن والسنة فإن كان لا يليق بالله ﷻ ولا يليق بالملائكة فهو كذب، وهو مما بُدِّل وحُرِّف، وإن كان كلامًا جميلًا حسنًا وعبرًا وعظات فنحن لا نصدق به ولا نكذب به؛

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص٨٠)، و«الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٣٩٨)، و«الإيمان بالكتب» (ص: ١٥).

ولأن الرسول ﷺ أرشدنا إلى هذه الطريقة وإلى هذا المنهج، بقوله -كما ثبت في صحيح البخاري -: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم**»، فهذا القسم لا نصدق به ولا نكذّب به؛ لأننا لو صَدَّقنا به فقد يكون بعضه محرفًا فنصدق بالمحرف، ولو كَذَّبنا به فقد يكون حقًّا أو بعضه فنكذب بالحق، ولكن إذا قلنا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، ولا نصدق ولا نكذب به، فإننا نكون قد أخذنا بطريق السلامة وطريق النجاة.

ومما هو موجود في القرآن ولكنه لا يوجد في الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى الآن ما ذكره الله في سورة الفتح من أوصاف الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فإن هذا لا يوجد في الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى، ومع ذلك فكل ما جاء في القرآن يجب الإيمان بأنه موجود فيها.

وما لم يكن في القرآن ولا في السنة فإن الأمر فيه يكون بالمنهج الذي أرشد إليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وذلك بأن لا يكذبوا ولا يصدقوا، وإنما يقال: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦](1).

الفرق بين التوراة والصحف والألواح التي أُنزلت على موسى عليه السلام:

وقد سئل الشيخ الراجحي(2): هل التوراة هي الألواح التي ألقاها موسى عليه السلام؟

فأجاب فقال: التوراة إنما أنزلها الله بعد هلاك فرعون وإغراقه، قال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]، ولم يُهلك الله أمة إلا قبل

(١) «شرح الأربعين النووية» للعباد (٤/ ٥).

(٢) «شرح الاقتصاد في الاعتقاد» (٦/ ١٧).

نزول التوراة بثلاثين عام، أما بعد نزول التوراة فقد رفع الله العذاب العام، فدل هذا على أن الألواح كانت قبل نزول التوراة، وأنزل الله على إبراهيم وموسى صحفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وهي غير التوراة، والتوراة إنما نزلت بعد ذلك، والتوراة والألواح التي كتبها الله وأنزلها على موسى بعد أن عبد بنو إسرائيل العجل، وكان هذا بعد هلاك فرعون، وذلك لما ذهب موسى لملاقاة ربه ﷻ أربعين ليلة، واستخلف أخاه هارون، وهو نبي مثله قال: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فجاء السامري فصنع لهم من الحلي عجلًا له خوار، وقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] فعبدوه فنهاهم هارون ومنعهم؛ فلم يقبلوا كلامه، وأرادوا قتله كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝﴾ [طه: ٩١]، فلما جاء موسى ووجدهم يعبدون العجل غضب غضبًا شديدًا وألقى الألواح حتى تكسرت من شدة الغضب. وهذا فيه دليل على أنه ليس مَن رأى كمَن سمع، ففي الأول أخبره الله أنهم عبدوا العجل لكنه لم يغضب هذا الغضب الشديد إلا عندما رآهم بعينه يعبدون العجل، وقد عفا الله تعالى عنه مع كونه ألقى الألواح - وفيها كلام الله - حتى تكسرت من شدة الغضب، ثم أخذ برأس أخيه هارون - وهو نبي كريم مثله - وجره برأسه ولحيته لأنه تركهم يعبدون العجل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠] يقول: ما قصرت، ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فقد نصحتهم، لكنهم ما قبلوا وأرادوا قتلي، ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: ٩٤] وهذا من باب الاستعطاف وإلا فهو أخوه لأبيه وأمه.

فيحتمل والله أعلم أنها التوراة؛ لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وعبادتهم العجل، والله تعالى عفا عنه؛ لأن له مكانة ومنزلة عند الله؛ لأن إلقاء الألواح وفيها كلام الله حتى تتكسر ذنب عظيم.

ومن الفوائد: أن الصوفية الملاحدة الذين يقولون بوحدة الوجود - وهم منتشرون الآن - وهم طبقات وفِرق متعددة. . .

ومنهم ابن عربي وله مؤلفات كثيرة، منها كتاب يسمى: كتاب الهو، يقول فيه: إن الذكر (هو)، وله كتاب (الفتوحات المكية).

وله كتاب (فصوص الحِكم) يعارض فيه القرآن، فص فيه مثلًا: قصة قوم نوح، وقصة قوم هود، وقصة موسى مع فرعون، وقال: إن فرعون حينما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] كان مصيبًا؛ لأن الوجود واحد؛ لأن الرب يتجلى في صورة أي معبود، وفي صورة أي شيء، كما أنه تجلى في صورة فرعون؛ فلهذا هو مصيب حينما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]؛ فهو الرب وهو العبد.

ويقول: إن كل مَن عبد شيئًا من دون الله فهو مصيب، فالذي يعبد العجل مصيب، والكفر إنما هو بالتخصيص، فالذي يخصص شيئًا ويقول: لا يُعبد إلا هذا. هذا هو الكافر عنده، والعياذ بالله.

وابن عربي حينما ذكر موسى حينما جر هارون بلحيته ورأسه، قال: إن موسى فعل ذلك بهارون لأنه أنكر عليهم عبادة العجل؛ لأنهم على حق في عبادتهم للعجل.

ويقول: إن فرعون أُغرق تطهيرًا له، وحتى يزيل الوهم الذي توهمه فرعون من أنه الرب وحده؛ بينما الناس كلهم أرباب، فلما ظن بجهله أنه هو الرب وحده، أُغرق تطهيرًا له وحتى يزول وهمه أن الربوبية خاصة به.

أقصد من هذا أن الصوفية الملاحدة من أكفر خلق الله، وأنهم طوائف،

ومنهم أصحاب وحدة الوجود، وهم الآن في كل مكان، وهذا مذهبهم، يقولون: الوجود واحد، وفرعون مصيب، وموسى إنما جر هارون من لحيته لينكر عليه إنكاره على بني إسرائيل عبادة العجل. اهـ.

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد بالصحف في قوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ يرى بعض العلماء أنها التوراة. وبعضهم يرى أنها غير التوراة. فالله أعلم؛ لأن التوراة سماها الله تعالى ألواحًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. اهـ.

قلتُ: وردت ألواح موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

تعريف التوراة الموجودة اليوم:

التوراة: كلمة عبرانية تعني الشريعة أو الناموس.

ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتبها بيده، ويسمونها «بنتاتوك» نسبة إلى (بنتا) وهي كلمة يونانية تعني خمسة، أي: الأسفار الخمسة.

وهذه الأسفار هي:

١ – سفر التكوين: ويتحدث عن خلق السموات والأرض، وآدم، والأنبياء بعده إلى موت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢ – **سفر الخروج:** ويتحدث عن قصة بني إسرائيل من بعد موت يوسف عليه السلام إلى خروجهم من مصر، وما حدث لهم بعد الخروج مع موسى عليه السلام.

٣ – **سفر اللاويين:** وهو نسبة إلى لاوى بن يعقوب، الذي من نسله موسى وهارون عليهما السلام، وأولاد هارون هم الذين فيهم الكهانة، أي: القيام بالأمور الدينية، وهم المكلفون بالمحافظة على الشريعة وتعليمها الناس، ويتضمن هذا السفر أمورًا تتعلق بهم وبعض الشعائر الدينية الأخرى.

٤ – **سفر العدد:** وهو معنيٌّ بعدِّ بني إسرائيل، ويتضمن توجيهات، وحوادث حدثت من بني إسرائيل بعد الخروج.

٥ – **سفر التثنية:** ويعني تكرير الشريعة، وإعادة الأوامر والنواهي عليهم مرة أخرى، وينتهي هذا السفر بذكر موت موسى عليه السلام وقبره.

وقد يطلق النصارى اسم التوراة على جميع أسفار العهد القديم.

أما في اصطلاح المسلمين فهي: الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام نورًا وهدى لبني إسرائيل.

أما الكتب الملحقة بالتوراة فهي: أربعة وثلاثون سفرًا، حسب النسخة البروتستانتية، فيكون مجموعها مع التوراة تسعة وثلاثين سفرًا، وهي التي تسمى العهد القديم لدى النصارى.

ويمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

أولًا: الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام.

ثانيًا: الأسفار التاريخية، وهي ثلاثة عشر سفرًا:

١ – يشوع ٢ – القضاة ٣ – راعوث ٤ – صموئيل الأول ٥ – صموئيل الثاني ٦ – الملوك الأول ٧ – الملوك الثاني ٨ – أخبار الأيام الأول ٩ – أخبار الأيام الثاني ١٠ – عزرا ١١ – نحميا ١٢ – إستير ١٣ – يونان

(يونس عليه السلام).

وهذه الأسفار تحكي قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إلى ما بعد العودة من السبي البابلي إلى فلسطين، وإقامتهم للهيكل مرة أخرى بعد تدميره، ما عدا سفري أخبار الأيام الأول والثاني، فإنها تعيد قصة بني إسرائيل، وتبتدئ بذكر مواليد آدم على سبيل الاختصار إلى السنة الأولى لملك الفرس قورش، وكذلك سفر يونان (يونس عليه السلام) يحكي قصته مع أهل نينوى الذين أُرسل إليهم.

ثالثًا: أسفار الأنبياء، وهي خمسة عشر سفرًا:

١ - أشعيا ٢ - إرميا ٣ - حزقيال ٤ - دانيال ٥ - هوشع ٦ - يوئيل ٧ - عاموس ٨ - عوبديا ٩ - ميخا ١٠ - ناحوم ١١ - حبقوق ١٢ - صفنيا ١٣ - حجى ١٤ - زكريا ١٥ - ملاخى.

وهذه الأسفار يغلب عليها طابع الرؤى والتنبؤات بما سيكون من حال بني إسرائيل وحال الناس معهم، وفيها تهديدات لبني إسرائيل، ووعود بالعودة والنصر.

والذين نُسبت إليهم هذه الأسفار هم ممن كانوا زمن السبي إلى بابل وبعده.

رابعًا: أسفار الحكمة والشعر (الأسفار الأدبية).

وهي خمسة أسفار:

١ - أيوب ٢ - الأمثال ٣ - الجامعة ٤ - نشيد الإنشاد ٥ - مراثي إرميا.

خامسًا: سفر الابتهالات والأدعية سفر واحد، وهو سفر المزامير المنسوب إلى داود عليه السلام.

هذه أسفار النسخة العبرانية المعتمدة لدى اليهود والبروتستانت من

النصارى.

أما النصارى الكاثوليك، والأرثوذكس فيعتمدون النسخة اليونانية، وهي تزيد على العبرانية بسبعة أسفار هي: سفر طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول والمكابيين الثاني.

فهذه هي التوراة الموجودة اليوم، وكل عاقل منصف – فضلًا عن المسلم المؤمن – يعلم براءة التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام مما هو موجود في التوراة اليوم.

وذلك لأمور عديدة، منها:

١- ما حصل للتوراة من الضياع والنَّسْخ والتحريف والتدمير، فلقد حُرِّف فيها، وبُدِّل، وضاعت، وتعرضت لسبعة تدميرات، منذ عهد سليمان عليه السلام.

(٩٤٥) قبل الميلاد إلى أن حصل التدمير السابع عام (٦١٣م) مما يدل على ضياعها وانقطاع سندها.

٢- ما تشتمل عليه من عقائد باطلة لا تمت إلى ما جاء به المرسلون بأدنى صلة.

٣- اشتمالها على تنقص الرب – جل وعلا – وتشبيهه بالمخلوقين.

ومن ذلك قولهم: «إن الله تصارع مع يعقوب ليلة كاملة فصرعه يعقوب».

ومن ذلك قولهم: «إن الله ندم على خلق البشر لما رأى من معاصيهم، وأنه بكى حتى رمد فعادته الملائكة».

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

٤- اشتمالها على سب الأنبياء والطعن فيهم.

ومن ذلك قولهم: «إن نبي الله هارون صنع عجلًا، وعبده مع بني إسرائيل».



وقولهم: «إن لوطًا شرب خمرًا حتى سكر، ثم قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة تلو الأخرى».

وقولهم: «إن سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره، وعَبَدَ الأصنام، وبنى لها المعابد» إلى غير ذلك من مخازي إخوان القردة.

٥- اشتمالها على المغالطات والمستحيلات والمتناقضات.

٦- أن المعركة التي قامت بين التوراة وحقائق العلم الحديث أثبتت ما في التوراة من الأخطاء العلمية.

ومن تلك الكتب التي تكلمت على هذا الموضوع كتابان، هما: (أصل الإنسان) و(التوراة والإنجيل والقرآن) لعالم فرنسي اسمه (موريس بوكاي) حيث أثبت وجود أخطاء علمية في التوراة والإنجيل، وأثبت في الوقت نفسه عدم تعارض القرآن مع العلم الحديث وحقائقه، بل سجل شهادات تَفَوُّق سبق القرآنُ فيها العلمَ بألف وأربعمائة عام.

تحريف التوراة

أكد القرآن أن التوراة الموجودة الآن بين أيدينا ليست هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام وإنما هي محرفة من قِبل بني إسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

١- التحريف لغة: التغيير والتبديل، وتحريف الكلام عن مواضعه: تغييره.

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: (التحريف: الإمالة، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين.

٢- اختلفت أقوال الناس في وقوع التحريف في الكتب السابقة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: زعمت طائفة أنها بُدلت كلها بجميع لغاتها، ومن هؤلاء من أسرف حتى قال: (إنه لا حرمة لها، وجوز الاستجمار بها من البول).

وهذا القول باطل لا يقوله أحد من المسلمين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا مما لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول بعضهم: إنه حُرف بعد مبعث محمد ﷺ ألفاظ بعض النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون: إن بعض ألفاظها حُرفت، منهم من يقول: كان من قبل المبعث، ومنهم من يقول: كان بعده، ومنهم من يُثبت الأمرين أو يجوزهما، ولكن لا يقول: إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها.

القول الثاني: أن التبديل والتغيير وقع في المعاني لا في الألفاظ.

وإلى هذا القول ذهب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، واختاره الرازي في تفسيره.

وهذا القول لا يُسَلم له بإطلاق، بل لابد من التفصيل في ذلك:

فأما القول بأن التحريف قد وقع في معاني تلك الكتب؛ فهذا أمر مسلم به، وهو ما حكى عليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع... بل إن هذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى.

وأما القول بعدم التحريف في ألفاظها فلا يُسَلم بذلك؛ لأنه قد وُجد فيها من الألفاظ ما لا يجوز أن يكون من كلام الله ﷻ، إضافة إلى ما فيها من التناقض والتضارب في نصوصها، فلو كان وحيًا من عند الله لما وُجد فيها هذا التناقض والتضارب، وقد ذكر ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في (كتاب الفصل) كثيرًا من هذه التناقضات الظاهرة، والتي تؤكد وقوع التحريف في ألفاظها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (تحريفهم المعاني لا ينكر؛ بل هو موجود عندهم بكثرة...).

القول الثالث: أن التحريف قد وقع في اليسير منها، ولكن أكثرها باقٍ على ما أُنزل عليه.

وقد رجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد تكفل الله ﷻ بحفظ كتابه العزيز، أما ما سبقه من الكتب فقد استحفظها جل جلاله الربانيين والأحبار؛ فأحدثوا فيها كثيرًا من التحريف والتغيير والتبديل، كما أخبرنا الله عنهم في أكثر من موضع من القرآن الكريم.

مما سبق يتضح أن التحريف في الكتب السابقة على قسمين:

الأول: التحريف في ألفاظها، وهذا قد وقع فيه الخلاف...

الثاني: التحريف في معانيها وترجمتها.

وهذا أمر مجمع عليه، وهو ما نقله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ **في هذه المسألة بقوله:** (وأهل الكتاب اليهود والنصارى مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها؛ إما عمدًا وإما خطأ: في ترجمتها، وفي تفسيرها، وشرحها، وتأويلها؛ وإنما تنازع الناس هل وقع التحريف في بعض ألفاظها.

وقال أيضًا: (والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع الغلط في تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها، وفي ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره).

وقال أيضًا: (ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفسير.

ذِكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: إن المتأمل لأحوال اليهود والنصارى ومواقفهم مع كتب الله ﷻ يجد أنهم قد حرفوا كثيرًا مما أنزل الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يُميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه إلى غيره، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا وأنه بخلاف ما حرفوه إليه فقال: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] يعني: من بعد ما عقلوا تأويله؛ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون».

وقال أيضًا: «قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا، والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب؛ فهو فيه محق، وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء؛ أمروه بالحق، فقال لهم: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]».

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ﷻ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مراد البخاري بقوله: (يتأولونه) أنهم يحرفون المراد بضرب من التأويل، كما لو كانت الكلمة بالعبرانية تحتمل معنيين قريب وبعيد، وكان المراد القريب؛ فإنهم يحملونها على البعيد، ونحو ذلك».

وقال شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن القوم تفرقت شرائعهم وأحكامهم، وأن القوم لا يلتزمون مذهبًا.

العجب أن أناجيلهم حكايات وتواريخ، وكلام كفرة وكهنة وتلامذة وغيرهم، حتى أني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عند المسلمين أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ لا يجوز - عند المسلمين - أن يبنى عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو حكايات في المجالس، ويقولون مع ذلك: الإنجيل كتاب الله أنزله إلينا، وأمر السيد المسيح باتباعه. فليت شعري أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله تعالى؟! وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟!».

بل إن اليهود أنفسهم قد اتفقوا على وقوع التحريف في كتابهم؛ كما ذكر ذلك عنهم شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ **حيث قال:** «طائفة من اليهود يقال لهم السامرية، اتفق اليهود على أنهم حرفوا التوراة تحريفًا شديدًا، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف، ولعل الفريقين صادقان، فأين حينئذٍ في التوراة شيء يوثق به مع تقابل هذه الدعاوى من فرق اليهود؟ فكفونا بأنفسهم عن أنفسهم».

ومن ذلك أيضًا أنهم يعترفون أن سبعين كاهنًا منهم اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وقد نقل ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **بقوله:** «واليهود تُقر أن السبعين كاهنًا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذي كانوا تحت قهرهم؛ حيث زال المُلك عنهم ولم يَبْقَ لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومَن رضي بتبديل موضوع واحد من كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تُقر أيضًا أن السامرة حرفوا مواضع من التوراة وبدلوها تبديلًا ظاهرًا

وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعي ذلك عليهم».

أما النصارى فقد ذكر ابن حزم رحمه الله **أنهم متفقون على أن هذه الأناجيل التي بين أيديهم عبارة عن تواريخ ألفها أصحابها في أزمان مختلفة حيث يقول:** «النصارى لا يَدَّعون أن الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح، ولا أن المسيح عليه السلام أتاهم بها، بل كلهم أولهم عن آخرهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة».

أما ما يتعلق بالترجمة فإن التوراة قد تُرجمت من العبرية إلى اليونانية والعربية، كما أن الأناجيل الأربعة قد كُتبت بلغات متعددة، فإنجيل متى كُتب بالعبرية، وأما مرقص ولوقا ويوحنا فقد كُتبت أناجيلهم باليونانية، ومعلوم أن التوراة والإنجيل إنما نزلت بلغة موسى وعيسى عليهما السلام وهي العبرية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى غيرها من اللغات.

(وإذا أخذنا في الحسبان الاعتبارات التي من الممكن أن تُحَول مسار واتجاه الترجمة؛ نخرج بنتيجة أن هذه الترجمة لا يمكن أن تكون مماثلة ومطابقة للأصل الذي نُقلت منه، ومن هذه الاعتبارات ما يلي:

١- إذا فُقد الإيمان، وفُقد الضمير الحي الذي يؤرق صاحبه عند المخالفة؛ عندئذ لا يستبعد حصول التجاوزات في الترجمة.

٢ - تأثر الترجمة قوة وضعفًا بسبب قوة وضعف المترجم في معرفة وفهم اللغة المنقول منها والمنقول إليها.

٣ - أن الترجمة تصبغ بصبغة المترجم؛ لأنه من غير المعقول أن يتخلى المترجم - حال الترجمة - عن عقيدته وماضيه وثقافته وتطلعاته، وهذه كلها أمور تدفع المترجم لأن يصوغ الترجمة بالصيغة التي تميل إليها نفسه.

٤ - يكفي في عدم التماثل أنه ترجمة وليس أصلًا.

٥ - ومن المهم في ذلك أننا لا علم لنا بالأصل الذي تُرجم.

٦ - وكذلك فإنا لا نعرف المترجِم، ومدى معرفته باللغة المترجم عنها، وكذلك باللغة المترجم إليها؛ لأن الضعف في واحدة منهما يفسد اللفظ والمعنى جميعًا.

فإذا كان هذا صنيعهم في ألفاظ التوراة التي يزعمون أنها كلام الله، فكيف يؤمنون بعد ذلك في تفسيرهم لها وبيان معانيها، أو عند ترجمتها؟! لا شك أن العقل السليم يجزم بوقوع التغيير والتبديل في ذلك.

مستند الإجماع في المسألة: لقد شهد الله جل جلاله في مواضع عديدة من القرآن الكريم على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم التي أنزلها الله ﷻ لأنبيائهم.

فمن ذلك قول الحق ﷻ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣].

ومعنى يحرفونه: أي يبدلون معناه، ويتأولونه على غير تأويله.

قال القرطبي رحمه الله **في قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: «قال مجاهد والسدي: هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة، فيجعلون الحرام حلالًا والحلال حرامًا اتباعًا لأهوائهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي عرفوه وعلموه. وهذا توبيخ لهم».

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومن الأدلة المحسوسة على وقوع التحريف في كتبهم؛ إضافة إلى ما ذكره الله ﷻ عنهم في القرآن الكريم ما يلي:

١ - انقطاع السند، وعدم حصول التواتر في نقلها، فليس في أسفار اليهود وأناجيل النصارى ما تصح نسبته إلى أنبيائهم ﻹ.

فالتوراة لم يتم تدوينها إلا بعد موسى ؛، ثم إن نسخة التوراة الأصلية قد ضاعت أيام الغزو البابلي لليهود، كما شهد بذلك أهل العلم منهم، ثم أعادوا كتابتها مرة أخرى، حتى جاء أحد ملوك الرومان وفتح فلسطين عام (١٦١ ق.م) فأمر بإحراق كافة النسخ التي عثر عليها من التوراة، وكل من احتفظ بنسخة منها يُقتل، وكان يجري البحث عنها شهريًّا، واستمر الحال على ذلك مدة زادت على ثلاث سنوات ونصف.

وأما الإنجيل فإن الذي بأيدي النصارى منه أربعة كتب مختلفة؛ وهم جميعًا متفقون على أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال، وهم: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا، ثم إن مرقس ولوقا لم يكونا من حواريي المسيح ؛.

٢ - التناقض الواضح والتعارض الفاضح بين نصوص التوراة، وكذلك الحال في نصوص الأناجيل، ولو كانت كلام الله حقيقة لاستحال أن يلحق بها تناقض أو اختلاف، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٣ - شهادة بعض علماء اليهود والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم؛ وخاصة من رجع منهم إلى الحق واتبع شريعة محمد ﷺ.

وفي هذه الأدلة أوضح دلالة على أن الكتب التي سبقت القرآن الكريم قد وقع فيها التغيير والتبديل، وأن أهل الكتاب قد غيروا وبدلوا عن علم وإصرار[١].

---

(١) «المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع» لمجموعة مؤلفين (ص: ٧٥٨)، وانظر «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٤٠٧).

المطلب الأول: أدلة التحريف من القرآن الكريم والتوراة

قد شهد الله ﷻ بتحريف اليهود لكتابهم، وأبان عن هذا في القرآن الكريم في مواضع عديدة.

فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فهذا فيه دلالة على أنهم غيَّروا وبدَّلوا عن إصرار وعلم.

وقوله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

فهذا فيه دلالة على أنهم أدخلوا في كلام الله ما ليس منه، وافتروا على الله الكذب بأن نسبوا إليه سبحانه ما لم يقله وهم يعلمون ذلك؛ فجورًا منهم، وجرأة على الله تعالى وتقدس.

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فهذا فيه دلالة على أنهم قد أَخفَوا وكتموا ما عندهم من علم، وما أنزل الله عليهم من كتاب حسب أهوائهم.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ

يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وفي هذه الآية دلالة واضحة على التحريف وعلى أنهم نسوا حظًّا مما ذُكروا به، أي: نصيبًا وجزءًا مما أنزل عليهم.

وهذا جزاء من الله ﷻ لهم بسبب كفرهم وفسادهم وسابق تحريفهم ونقضهم للميثاق.

كما ورد في كتابهم ما يتفق مع ما ذكره الله ﷻ عنهم، فمن ذلك ما ورد في (سفر إرميا) (٨/ ٨) مما ينسب إلى الله ﷻ القول: «كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الرب معنا، حقًّا إنه إلى الكذب حوَّلها قلم الكتبة الكاذب، خَزِيَ الحكماء ارتاعوا وأُخِذُوا ها قد رفضوا كلمة الرب».

فهذا النص من نبي من أنبيائهم الكبار على ما ذكروا وكان في عصر متأخر، قد عاصر انحرافاتهم، وذلك قبيل الغزو البابلي وسبي اليهود، وهو نص على تركهم لدين الله وتحريفهم لشريعته، وأن الكتبة الموكلون بالكتب المنزلة قد حوَّلوها إلى الكذب والزور.

وإلى جانب التحريف فإن هناك وسائل أخرى ذكرها القرآن الكريم لا تَقِلّ خطورة في تأثيرها عن التحريف والتبديل، ومن هذه الوسائل ما يلي:

١- الإخفاء: قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

٢- الكتمان: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ

وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٣- إلباس الحق بالباطل: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

٤- الكذب والتكذيب: قال تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣، ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٥- ليّ الألسنة بالكتاب: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

٦- التعطيل: المقصود به تعطيل أحكام التوراة والإنجيل وعدم إقامتها والعمل بها.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

٧- الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر: قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

٨- **الإهمال:** قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٩- **الظن:** قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

١٠- **النسيان:** قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

١١- **التزوير:** قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩][1].

❊ ❊ ❊

(١) «مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» (٤٢/ ٨٧).

المطلب الثاني: نقد التوراة المحرفة وما يتبعها من الأسفار

جاءت بعض آيات القرآن الكريم الصريحة في أن اليهود قد حرَّفوا التوراة وغيرها من كتب الله المنزلة على أنبيائه من بني إسرائيل.

ولقد انطلق علماؤنا المسلمون من تلك الآيات وغيرها من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في نقدهم للتوراة وما يتبعها من الأسفار المقدسة عند اليهود، واستخرجوا منها الأدلة والشواهد على تحقيق ما ذكره الله ﷻ في القرآن الكريم من وقوع التحريف والتبديل والكذب في كتبهم.

ونستطيع أن نقرر بكل ثقة أن الأسبقية في نقد التوراة والأناجيل والكتب الأخرى المحرفة كان لعلمائنا المسلمين بهدي من القرآن الكريم الذي وضع أصول ذلك النقد الهادف إلى إظهار الحق وإزهاق الباطل.

وقد تأثر أحبار اليهود والنصارى ومفكروهم بالمسلمين في دراساتهم النقدية للتوراة والأناجيل، ومن ثم تجرؤوا على المشاركة في تلك الدراسات النقدية لكتبهم المقدسة بعد أن تخلصوا من طغيان الكنيسة وسيطرتها، واستطاعوا إعلان نتائج دراساتهم التي سبقهم إلى كثير منها علماؤنا المسلمون بقرون عديدة.

- **وفي هذه الدراسة الموجزة جدًّا سنحاول أن نبين الخطوط العريضة والعناوين الرئيسة في نقد أسفار العهد القديم وخاصة التوراة، وستتركز على ناحيتين:**

الأولى: نقد سند كتبهم المقدسة، وعدم صحة نسبتها إلى أنبيائهم.

الثانية: نقد المتن، وبيان ما فيه من مواطن التحريف والتبديل والخطأ.

الفرع الأول: نقد السند

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى طريقة المجادلة، والرد على دعاوى اليهود والنصارى، وبيان بطلانها، وهي مطالبتهم بالحجة والدليل على مزاعمهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

وبما أن اليهود وكذلك النصارى يزعمون أن التوراة الحالية كتبها موسى بيده وأن أسفارهم الأخرى كتبها أنبياؤهم أو أشخاص أوحي إليهم بها، فإنا نطالبهم بالأدلة والبراهين التي تُثبت صحة نسبة التوراة المحرفة إلى موسى عليه الصلاة والسلام، وكذلك سائر أسفارهم المنسوبة إلى أنبيائهم ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومن الأدلة التي نطالبهم بها:

النسخة الأصلية للتوراة التي كتبها موسى عليه الصلاة والسلام، أو أملاها على غيره، وكذلك النُّسخ الأصلية لأسفارهم الأخرى.

السند المتصل المتواتر بنقل الثقات العدول الذي يُثبت سلامة النص الحالي لأسفارهم من التحريف والتبديل.

وتأتي الإجابة لطلبنا من أحبار اليهود والنصارى وباحثيهم بأنهم لا يملكون النسخ الأصلية للتوراة أو غيرها من الأسفار، وأن أقدم مخطوطة لديهم لأسفارهم تعود إلى القرن الرابع الميلادي، علمًا بأن موسى عليه الصلاة والسلام قد عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد على الأرجح، وآخر نبي من أنبيائهم في العهد القديم عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.

يقول مؤلفو (قاموس الكتاب المقدس): ولكن لا توجد لدينا الآن هذه المخطوطات الأصلية (للعهد القديم والجديد) التي دوَّنها كتبة الأسفار

المقدسة.

ويعلل اليهود والنصارى فقدان النسخ والسند لكتبهم المقدسة بكثرة حوادث الاضطهاد والنكبات التي نزلت بهم خلال تاريخهم الطويل.

ومن تلك الحوادث: الغزو الآشوري عليهم في سنة (٧٢٢ ق. م)، ثم الغزو البابلي الشهير سنة (٥٨٦ ق. م) ونتج عنه تدمير الهيكل وأَخْذ بني إسرائيل سبيًا إلى بابل، ثم الاضطهاد اليوناني ومن بعده الاضطهاد الروماني الذي استمر لعدة قرون، وقد نتج عن هذه الاضطهادات إحراق أسفارهم وإتلافها ومنع قراءتها وقتل أحبارهم وعلمائهم.

ونضيف سببًا آخر مهمًّا لضياع أسفارهم وانقطاع أسانيدهم، هو كثرة حوادث الردة والشرك في بني إسرائيل، وكفرهم بالله ﷻ، وإهمالهم للتوراة وغيرها، وهي مذكورة في أسفارهم المقدسة لديهم، ومنها ما ورد في (سفر القضاة) (٢/ ١١ - ١٥): «وفَعَل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب، تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت، فحمي الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم، حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر، كما تكلم الرب وكما أقسم الرب لهم».

وقد تكررت الردة والشرك بالله من بني إسرائيل مرات عديدة في عهد القضاة.

ثم تكرر ذلك منهم في عهد الملوك، فقد ورد في (سفر الملوك) (١٢/ ٢٨ - ٣٣): (أن يربعام استشار الملك وعمل عجلي ذهب، وقال لهم: كثير

عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتكم يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحدًا في بيت إيل، وجعل الآخر في دان، وكان هذا الأمر خطية، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان. . .).

وما ذكرناه مما يجعل كل عاقل منصف منهم يرتاب ويشك في صحة نسبة التوراة الحالية إلى موسى وسلامتها من التحريف والتبديل!!.

وكانت تلك الأسباب وغيرها قد دفعت بالكثيرين من محققي اليهود والنصارى إلى الاعتراف بأن أسفار العهد القديم مشكوك في أمر مؤلفيها، وإليك مختصرًا لما يقوله محررو طبعة سنة (١٩٧١م) الإنجليزية من كتابهم المقدس لديهم، وهي آخر طبعة معدَّلة من كتابهم وآخر طبعة حتى الآن، يقول المحررون:

- سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية: مؤلفه موسى على الأغلب.

- سفر يشوع: معظمه منسوب إلى يشوع.

وتكرر منهم الشرك والردَّة عن دين الله الحق مرات عديدة في عهد الملوك.

- انظر: (سفر الملوك الأول)، (الإصحاحات: ١٩، ٢٢)، و(سفر الملوك الثاني)، (الإصحاحات: ١/ ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤).

بل وصل بهم الكفر إلى حد وصف نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بالكفر وعبادة غير الله، والعياذ بالله.

- انظر: (سفر الملوك الأول)، (الإصحاح: ١١). نقلًا من كتاب (التحريف في التوراة)، (ص: ٣) د. محمد الخولي، ووجدت أيضًا تلك

الاعترافات بجهالة مؤلفي أسفارهم في مقدمة الكتاب المقدس (المدخل) طبع المطبعة الكاثوليكية سنة (١٩٨٨م) بلبنان، وفي كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) - تأليف الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا، وكتاب (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم)، و(قاموس الكتاب المقدس) في التعليق على تلك الأسفار.

- سفر القضاة: مؤلفه صموئيل على الاحتمال.
- سفر راعوث: مؤلفه غير محدد، ولكن ربما يكون صموئيل.
- سفر صموئيل الأول: المؤلف مجهول.
- سفر صموئيل الثاني: المؤلف مجهول.
- سفر الملوك الأول: المؤلف مجهول.
- سفر الملوك الثاني: المؤلف مجهول
- سفر أخبار الأيام الأول: المؤلف مجهول، ولكن ربما جمعه وحرره عزرا.
- سفر أخبار الأيام الثاني، المؤلف مجهول، ولكن ربما جمعه وحرره عزرا.
- سفر عزرا: من المحتمل أن عزرا كتبه أو حرره.
- سفر أستير: المؤلف مجهول.
- سفر المزامير: المؤلف الرئيسي داود، لكن معه آخرون وبعضهم مجهولون.
- سفر الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد: المؤلف مجهول، ولكنها عادة تنسب إلى سليمان.
- سفر إشعياء: ينسب معظمه إلى أشعيا، ولكن بعضه من المحتمل كتبه

آخرون.

- سفر يونان: المؤلف مجهول.

- سفر حبقون: لا يُعرف شيء عن مكان أو زمان ولادته.

وبعد هذا الاعتراف منهم فإن الأمر لا يحتاج إلى زيادة تعليق منا.

ومن الأدلة أيضًا على عدم الوثوق بالتوراة الحالية ما ورد في (سفر الملوك الثاني) (٢٢/ ٨ - ١٣) في عهد الملك يوشيا من ملوك مملكة يهوذا، أن التوراة قد فُقدت وضاعت من بني إسرائيل سنوات عديدة، ثم ادعاء العثور عليها على يد الكاهن في الهيكل، ولا نُسَلم لهم بأن التوراة التي عثر عليها هي توراة موسى؛ إذ إن اتهام الكاهن بالتزوير قائم في مسايرته لرغبة الملك في العودة إلى التوحيد بعد ارتداد وكفر مَن سبقه من آبائه، إضافة إلى أن هذه النسخة من التوراة قد فُقدت أيضًا في الغزو البابلي وحوادث الحروب الأخرى.

ومن الأدلة القاطعة على عدم صحة نسبة التوراة الحالية إلى موسى عليه الصلاة والسلام نصوص التوراة نفسها، وإليك بعض الشواهد:

- خاتمة التوراة في (سفر التثنية) (٣٤/ ١ - ١٢) وفيه: «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يومًا، فكملت أيام بكاء مناحة موسى، ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة، إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى، ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه...» وبذلك ينتهي كتاب التوراة.

ولا أعتقد أن عاقلًا يجرؤ على القول أن كاتب هذا الكلام هو موسى عليه الصلاة والسلام!!!

- إن بعض نصوص التوراة تتحدث عن موسى بضمير الغائب، وبصيغة لا يمكن التصديق بأن كاتبها هو موسى، ومن تلك النصوص: (تحدث الله مع موسى) (وكان الله مع موسى وجهًا لوجه) (وكان موسى رجلًا حليمًا جدًّا أكثر من جميع الناس) (فسخط موسى على وكلاء الجيش) (موسى رجل الله) ونحو ذلك.

فلو كان موسى كاتب تلك النصوص لقال مثلًا: كلمني الرب، تحدثت مع الله. ونحوه.

- إن ملاحظة اللغات والأساليب التي كُتبت بها التوراة وما تشتمل عليها من موضوعات وتشريعات وبيئات اجتماعية وسياسية وجغرافية تنعكس فيها - تُظهر أنها قد أُلفت في عصور لاحقة لعصر موسى، مما يُثبت أن هذه الأسفار قد كُتبت بأقلام اليهود التي تعكس أفكارهم ونظمهم المتعددة في مختلف أدوار تاريخهم الطويل.

مثال ذلك:

ورد في التوراة في (سفر التكوين) (١٤/ ١٤) أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تتبع أعداءه إلى (دان). وهي اسم مدينة لم تُسَمَّ بهذا الاسم إلا بعد موت يوشع بعد دخول بني إسرائيل فلسطين واستقرارهم بها، فقد ورد في (سفر القضاة) (١٨/ ٢٩) (وسمّوا المدينة دان) باسم أبيهم الذي وُلد لإسرائيل، وكان اسم المدينة قبل ذلك (لاييش) فكيف يذكر موسى - وهو يقص قصة إبراهيم- اسم مدينة لم تسمَّ بهذا الاسم إلا من بعده بزمن طويل جدًّا؟!!

تلك بعض الملاحظات التي جعلت الفيلسوف اليهودي باروخ سبنوزا (ت١٦٧٧م) يعلن صراحة قوله: (من هذه الملاحظات كلها يظهر واضحًا وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بقرون عديدة). اهـ.

أضف إلى ذلك أيضًا اختلاف فرق اليهود في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم، فطائفة السامرة من اليهود لا تعترف إلا بالتوراة الخمسة الأسفار، وتنكر ما عداها من الأسفار، وتقبل منها سفري يوشع والقضاة باعتبارهما أسفارًا تاريخية فقط. ويخالفها جمهور اليهود الذين يقبلون أسفار العهد القديم المذكورة. ويختلف مع اليهود أيضًا طائفة الكاثوليك من النصارى في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم(١).

الناحية الثانية: نقد المتن:

تمهيد:

قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) نقل من «مجلة الجامعة الإسلامية» لمحمود عبد الرحمن قدح (العدد ١١١) وانظر «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٤٠٨).

في ضوء هذه الآيات الكريمة - التي وضحت بعض خصائص الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - نبين بعض مواطن الاختلاف والتناقض والباطل الذي يدل على وقوع التحريف والتزوير في أسفار اليهود، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما تقدم.

ويمكننا تلخيص أبرز الانتقادات الموجهة إلى متن الأسفار في العناوين الرئيسة الآتية وتندرج تحتها عشرات الأمثلة والشواهد[1]. وسنكتفي بذكر بعضها:

أولًا: الاختلاف في عدد الأسفار:

مما هو معلوم أن بين يدي اليهود والنصارى ثلاث نسخ مشهورة من التوراة والعهد القديم. ومن هذه النسخ تتفرع سائر الترجمات تقريبًا، وهي:

١ - النسخة العبرية:

وهي المقبولة والمعتبرة لدى اليهود وجمهور علماء البروتستانت النصارى، وهي مأخوذة من الماسورية وما تُرجم عنها.

٢ - النسخة اليونانية:

وهي المعتبرة لدى النصارى الكاثوليك والأرثوذكس، وهي التي تسمى السبعينية وما تُرجم عنها.

٣ - النسخة السامرية:

وهي المعتبرة والمقبولة لدى اليهود السامريين.

---

(١) نقل من «الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم» لمحمود عبد الرحمن قدح - مجلة الجامعة الإسلامية - (عدد ١١١). وانظر: «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٤٠٨).

وإذا عقدنا مقارنة بين النسخ الثلاث من ناحية عدد الأسفار نجد أن النسخة العبرية تسعة وثلاثون سفرًا فقط. أما النسخة اليونانية فهي ستة وأربعون سفرًا، حيث تزيد سبعة أسفار عن النسخة العبرية، ويعتبرها النصارى الكاثوليك والأرثوذكس مقدسة. أما النسخة السامرية فلا تضم إلا أسفار موسى الخمسة فقط، وقد يضمون إليها سفر يوشع فقط، وما عداه فلا يعترفون به ولا يعدونه مقدسًا.

فهذا الاختلاف الهائل بين النسخ لكتاب واحد، والكل يزعم أنه موحى به من قِبل الله ﷻ، ويدَّعي أن كتابه هو الكتاب الحق وما عداه باطل، مع عدم القدرة على تقديم الدليل القاطع على صحة ما يدعيه، فذلك دليل على التحريف من قبل المتقدمين، وأن المتأخرين استلموا ما وصل إليهم بدون نظر في ثبوته أو عدم ثبوته، أو أن المتأخرين وصلتهم كتب عديدة ومتنوعة، فأدخلوا ما رأوا أنه مناسب وذو دلالات مهمة، وحذفوا ما رأوا عدم تناسبه مع ما يعتقدون أو يرون، بدون أن يكون لهم دليل صحيح على إضافة ما أضافوا من الأسفار، أو حذف ما حذفوا منها.

ثانيًا: الاختلاف والتباين بين النسخ في المعلومات المدونة:

إذا قارنا بين النسخ الثلاث فيما اتفقت في ذكره من أخبار وقصص نجد بينها تباينًا شديدًا واختلافًا كبيرًا.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ - أن اليهود ذكروا تاريخ مواليد بني آدم إلى نوح عليه السلام، ونصوا على عمر كل واحد منهم، وكذلك عمره حين وُلد له أول مولود.

وبعقد مقارنة بين أعمار مَن ذُكروا حين وُلد لهم أول مولود، تتبين اختلافات واضحة بين النسخ الثلاث، فمن ذلك:

الاسم	العبرانية	السامرية	اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
الزمان من خلق آدم إلى الطوفان	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢

فهذه أمثلة تدل على تحريفهم وتبديلهم لكلام الله - إن ثبت أن ما سبق هو من كلام الله المنزل- حيث لا يمكن الجمع بين هذه الروايات المتناقضة.

ثالثًا: الاختلاف بالمقارنة مع ما ذكروه في مواضع أخرى من كتابهم:

١ - ذكروا في سفر التكوين أن سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبال أراراط بعد سبعة أشهر وسبعة عشر يومًا، ثم ذكروا أن رؤوس الجبال بعد الطوفان لم تظهر إلا في أول الشهر العاشر.

وهذا نص كلامهم في (سفر التكوين) (٨/ ٤): «واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط، وكانت المياه تنقص نقصًا متواليًا إلى الشهر العاشر، وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال».

ففي هذا تناقض ظاهر، فكيف رست السفينة على الجبال بعد سبعة أشهر مع أن رؤوس الجبال لم تظهر إلا في أول الشهر العاشر؟!

٢ - ذكروا أن الله أمر نوحًا أن يحمل في الفلك من كل جنس اثنين، فقالوا في (سفر التكوين) (٦/ ١٩): «ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كلٍّ تدخل إلى الفلك؛ لاستبقائها معك، تكون ذكرًا وأنثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها، ومن كل دبابات الأرض كأجناسها».

وبعده مباشرة ذكروا أن الله أمره أن يأخذ من كل جنس سبعة سبعة ذكرًا وأنثى، ماعدا البهائم غير الطاهرة فيأخذ اثنين.

ففي (سفر التكوين) (٧/ ٢) قالوا: «من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرًا وأنثى، ومن طيور السماء أيضًا سبعة سبعة ذكرًا وأنثى؛ لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض».

٣ - ذكروا في (سفر الخروج) (٢٤/ ٩) أن موسى وهارون وشيوخ إسرائيل رأوا الله، فقالوا: «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا». هكذا زعموا في هذا الموضع.

وفي (سفر التثنية) (٤٤/ ١٢) زعموا أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام ممتنًّا عليه وعلى بني إسرائيل: «فكلَّمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام، ولكن لم تروا صورة بل صوتًا. . . فاحتفِظوا جدًّا لأنفسكم، فإنكم لم تروا صورة ما. . .». فهذا فيه أنهم لم يروا الله ﷻ، وهذا الحق، فهم لم يروا الله ﷻ إلا أن فيه بيان تناقض كلامهم.

٤ - قالوا في (سفر الخروج) (٣٣/ ١١) في كلام الله لموسى: «ويكلم

الرب موسى وجهًا لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه». ففي هذا يزعمون أن الكلام يتم مقابلة، مما يوحي بأن موسى عليه السلام يرى وجه الله تعالى حين يكلمه.

وفي نص آخر بعد هذا يقولون: إن الله قال لموسى لما طلب أن يراه (سفر الخروج) (٣٣/ ٢٠): «لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش». فهنا ذكروا أن الله تعالى نفى أن يستطيع موسى أو أي إنسان رؤية وجهه عز وجل.

وفي هذا تناقض واضح مع ما قبله، ودليل على التحريف.

والحق أن موسى عليه السلام لم يرَ الله عز وجل، كما ذكر ذلك ربنا جلَّ وعلا في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٥ - أنهم ذكروا أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام كما في (سفر التكوين) (٢٢/ ٢): «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريا وأصعِده هناك محرقة على أحد الجبال».

فلا شك أن هذا خطأ؛ لأن إسحاق عليه السلام لم يكن وحيد إبراهيم عليه السلام، بل الذي كان وحيده هو بكره إسماعيل عليه السلام، حيث نص اليهود في كتابهم على أن إسماعيل عليه السلام وُلد قبل إسحاق عليه السلام، حيث خُتن وعمره ثلاث عشرة سنة، ولم يكن إسحاق وُلد بعد.

وفي هذا قالوا في (سفر التكوين) (١٧/ ٢٥): «وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه».

ثم ذكروا بعد ذلك بشارة الملائكة بإسحاق حين ضافوا إبراهيم عليه السلام، وهم في طريقهم إلى قوم لوط، والذي يبدو أن اليهود حسدوا أبا العرب إسماعيل عليه السلام على هذه المنقبة العظيمة فغيَّروا وحرَّفوا لأجل ذلك.

رابعًا: الزيادة والإضافات:

توجد في التوراة العديد من الجمل التي لا يمكن أن يصح نسبتها إلى موسى عليه السلام، ومن ذلك:

١ - أن الكتاب من أوله إلى آخره ملئ بقولهم: «وقال الرب لموسى»، «وقال موسى للرب» «وحدَّث موسى الشعب». ونحو ذلك من العبارات التي تدل على الحكاية والرواية، مما يقطع بأنها ليست من كلام موسى عليه السلام ولا من كلام الله عز وجل.

٢ - جاء في (سفر التكوين) (٣٦/ ٣١): «وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل ما مَلَك ملكٌ لبني إسرائيل»، فهذه العبارة لا يمكن أيضًا أن تكون من كلام موسى عليه السلام؛ إذ إن ملوك بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمن طويل.

٣ - جاء في (سفر التثنية) في آخره (٣٤/ ٥) حكاية وفاة موسى ودفنه فقالوا: «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض مؤاب، مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم».

فهذا النص لا شك أنه أُدخل في الكتاب وليس منه؛ إذ ليس من المعقول أن يكتب موسى عليه السلام موته ودفنه، وأن إنسانًا لا يعرف قبره إلى يوم كتابة ذلك الكلام.

وببعض ما ذكرنا يستدل اللبيب والعاقل على أن اليهود لم يحافظوا على كلام

الله وكتبه، بل ضيَّعوها وحرَّفوها، وغيَّروا فيها وبدَّلوا، وأضافوا وحذفوا حسب أهوائهم وشهواتهم وأغراضهم.

خامسًا: التنقص لله ﷻ وأنبيائه:

أولًا: صفات الله ﷻ في التوراة المحرفة:

الله ﷻ له صفات الكمال المطلق التي لا تشوبها شائبة نقص، ولا شك أن موسى عليه السلام قد عَلَّم بني إسرائيل ذلك. كما أن التوراة المنزلة قد تضمنت ذلك، إلا أن بني إسرائيل قد كفروا وضلوا وانحرفوا عن دين الله ﷻ فتكونت لديهم عقيدة منحرفة جعلتهم يقولون في الله قولًا عظيمًا.

ومن ذلك ما ذكره الله ﷻ في القرآن الكريم من قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فهذا الكفر والوقاحة من اليهود أثر من آثار تحريفهم لكتابهم حيث تضمن كتابهم المسمى «التوراة» وكذلك الكتب الملحقة به - كثيرًا من الصفات التي لا يصح ولا يليق وصف الله ﷻ بها، وهي من أدل الأدلة على التحريف.

فمن ذلك:

١- وَصْفهم الله ﷻ بالتعب:

يزعم اليهود في كتابهم أن الله ﷻ تعب من خلق السموات والأرض فاستراح في اليوم السابع، فقد ورد في سفر التكوين (٢/ ٢) ما نصه: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل».

وفي سفر الخروج (٣١/ ١٧) قالوا: «لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفس».

وقد رد الله ﷻ عليهم وبَيَّن بطلان قولهم هذا في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨].

٢- وَصْفهم الله ﷻ بالجهل:

وَصَف اليهود الله ﷻ بالجهل في عدة مواطن من كتابهم.

منها قولهم في قصة آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة كما في سفر التكوين (٣/٨): «وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: مَن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني فأكلتُ».

فيتضح من كلامهم هذا أن الله ﷻ لم يعلم بآدم حين أكل من الشجرة، ولم يره حين أكل، بل لم يعلم بمكانه بعد أن اختبأ في الجنة.

فهل يصح أن يقول أحد: إن الله العليم بكل شيء، والذي لا يغيب عن سمعه وبصره شيء مهما خفي ودق، يخفى عليه أمر آدم على هذه الحال التي ذكر اليهود؟! فلاشك أن ذلك من تحريفهم.

ولو نظرنا في كلام الله ﷻ في القرآن الكريم عن هذه الحادثة لوجدنا الفرق الشاسع بين التعبيرين ودلالتهما.

ففي القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ

عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٩- ٢٣].

ففي هذا النص الكريم ما يتناسب مع كمال علم الله وكمال سمعه وبصره وأنه محيط بكل شيء، فحالما أكل آدم وزوجته من الشجرة ناداهما ربهما قائلًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلم يسأل آدم أين هو؟ ولا مَن أعلمه أنه عريان؟ وهل أكل من الشجرة؟ كما يزعم اليهود.

كما أن جواب آدم في القرآن الكريم هو الجواب اللائق بالنبي الكريم، حيث اعتذر مباشرة بأنه معتدٍ في هذا الأكل وسأل الله المغفرة والرحمة، وهذا هو اللائق بآدم العبد الصالح والنبي الكريم، لا ما ذكره اليهود من أنه ألقى باللائمة على زوجته وحَمَّلها وحدها المسئولية.

ومِن وصفهم الله ﷻ بالجهل أيضًا زعمهم أن الله ﷻ يجب أن توضع له علامة ليستدل بها عليهم حيث قالوا: إن الله أمرهم قبل خروجهم من مصر أن يلطخوا أبوابهم العتبة العليا والقائمتين بالدم. ويعللون ذلك بقولهم: «فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين، فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يَعْبُر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضر» سفر الخروج (١٢/ ٢٣).

وهذا باطل فإن الله جل وعلا عالم الغيب والشهادة، يقول سبحانه عن نفسه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

٣- وَصْفهم الله ﷻ بالندم:

يزعم اليهود أن الله ﷻ ندم على فعله.

فمن ذلك قولهم في سفر الخروج (٣٢/ ١٤): «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه».

وقد كذبهم الله في ذلك فقال جل وعلا: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وهل يندم إلا الغر الجاهل بالعواقب؟ والله ﷻ منزه عن ذلك.

وقد ورد في كتابهم أيضًا ما يبين بطلان هذا الوصف وأن الله جل وعلا لا يوصف به.

جاء في سفر العدد (٢٣/ ١٩): «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم».

٤- وَصْفهم الله عز وجل وتعالى وتقدس بالبكاء وذرف الدموع:

وفي هذا يقولون في كتابهم: إن الله قال لهم: «وإن لم تسمعوا - أي: كلامه وتطيعوه - فإن نفسي تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء وتبكي عيني بكاءً وتذرف الدموع لأنه قد سبي قطيع الرب» سفر إرميا (١٣/ ١٧).

وأيضًا قالوا بعد ذلك مثله في سفر إرميا (١٤/ ١٧): إن الله قال لهم: «لتذرف عيناي دموعًا ليلًا ونهارًا ولا تكفا لأن العذراء بنت شعبي سُحقت سحقًا عظيمًا بضربة موجعة جدًّا».

فهذا كله لا شك أنه من افتراءات اليهود على الله ﷻ ووقاحتهم في كلامهم عن الله سبحانه. وهو دليل واضح على التحريف والتلاعب بكلام الله وكتب الأنبياء وَفق أهوائهم، لا يراعون في ذلك لله وقارًا ولا لكلامه تعظيمًا وإكبارًا، سوى

ما يتفق مع أمزجتهم وأهوائهم، فعليهم من الله ما يستحقون.

ثانيًا: وَصْف الأنبياء عليهم السلام في التوراة المحرفة:

مَن يقرأ التوراة والكتب الملحقة بها يجد أن أنبياء الله والموكلين بهداية الناس وتعليمهم الهدى والخير - لا يتمتعون بصفات الصالحين والأتقياء، بل يجد أن العهد القديم ينسب إليهم كثيرًا من المخازي والقبائح التي يتنزه عنها كثير من الناس العاديين، فكيف يليق أن يُنسب شيء من ذلك إلى الأنبياء الذين قد اصطفاهم الله وخصهم بهذه المهمة العظيمة وهي تبليغ دينه والذين هم قدوة للصالحين وأئمة في البر والتقى؟!

ومما لا شك فيه أن الأنبياء عليهم السلام أكمل الناس دينًا وورعًا وتقوى، وأن الله اصطفاهم ورعاهم وكَمَّلهم وحفظهم وعصمهم من القبائح والرذائل، هذه حقيقتهم بلا مراء ولا تردد.

وما أضافه اليهود إليهم مما لا يليق نسبته إليهم هو محض افتراء وكذب، ودليل واضح على تحريفهم لكتبهم لأغراض في نفوسهم، غير مراعين حرمة لمقام النبوة، ولا لما جبل الله عليه أولئك الأنبياء عليهم السلام من الكمال البشري في خَلْقهم وخُلقهِم.

وإليك الأمثلة الدالة على تحريف اليهود لكتابهم بطعنهم في أنبياء الله عز وجل ووصفهم بالصفات التي لا يجوز بحال نسبتها إليهم.

فمن ذلك قولهم في:

١- نوح عليه السلام:

زعم اليهود في كتابهم أن نوحًا عليه السلام شرب الخمر وتعرى داخل خبائه.

وفي هذا قالوا في سفر التكوين (٩/ ٢٠): «وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه».

هكذا وصفوا نبي الله نوحًا عليه السلام وهو أول أنبياء الله إلى المشركين والذي دعا قومه إلى دين الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما ذكر الله عز وجل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

وامتن الله على بني إسرائيل أنهم ذرية ذلك العبد الصالح نوح عليه السلام فقال جل وعلا ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

فامتن الله على بني إسرائيل بنسبتهم إلى ذلك العبد الصالح، واليهود يصفونه بتلك النقيصة، وما ذلك منهم إلا خدمة لأهوائهم وأغراضهم التي تتضح من بقية كلامهم في القصة نفسها حيث يقولون بعد الكلام السابق في سفر التكوين (٩/ ٢٢): «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته».

فيتضح من هذا النص أن مقصد اليهود منه لعن الكنعانيين الذين كانوا أعداءً لبني إسرائيل، كما أن فيه خطأً ظاهرًا من ناحية أن حام هو الذي أبصر عورة أبيه حَسَب النص السابق، فلماذا يلعن ابنه كنعان، مع أن لحام أبناءً آخرين غير كنعان؟ فإن اليهود قالوا في سفر التكوين (١٠/ ٦): «وبنو حام كوش ومصرايم ونوط وكنعان». فلماذا خُص كنعان من بين إخوته؟ ما ذلك إلا لهدف خاص في نفوسهم، وهو لعن الكنعانيين أعدائهم ولو كان بالافتراء على الله عز وجل وعلى نبيه نوح عليه السلام.

٢- لوط عليه السلام:

ومن الأنبياء الذين افترى عليهم اليهود لوط عليه السلام فقد افتروا عليه فرية

عظمى ورموه بشنيعة كبرى يترفع عنها أعظم الناس فسادًا.

حيث زعم اليهود أن لوطًا عليه السلام قد زنى بابنتيه الكبرى والصغرى بعد أن أنجاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وأن البنتين أنجبتا من ذلك الزنى[١].

وهذا محض افتراء وبهتان لنبي كريم ولبناته وأهل بيته الصالحين، وقد ذكر الله عز وجل لنا صلاح لوط عليه السلام وأهل بيته وطهارتهم على لسان أعدائه فقال جل وعلا: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ ﴾ [النمل آية: ٥٦].

ولو بحثنا عن سبب افتراء اليهود لهذه الفرية في كتابهم، لوجدنا أنهم إنما قصدوا الطعن في أعدائهم المؤابيين والعمونيين من خلال هذه الفرية؛ لأنهم زعموا أن البنت الكبرى حملت من ذلك الزنى فأنجبت مؤاب وهو أبو المؤابيين، وأن الصغرى حملت أيضًا من ذلك الزنى وأنجبت بني عمي وهو أبو بني عمون.

فلهذا السبب والهوى كذب اليهود على نبي الله ووصموه بهذه الفعلة الشنيعة، وفي ذلك أوضح دليل على التحريف.

٣- يعقوب عليه السلام:

زعموا أن يعقوب عليه السلام احتال لأخذ النبوة والبركة من أبيه إسحاق عليه السلام لنفسه، فذكروا أن إسحاق عليه السلام لما كبر وكُف بصره دعا ابنه عيسو وهو الأكبر، وحسب التقليد لديهم فإن البركة تكون للأكبر، وطلب منه أن يصطاد له جديًا ويطبخه حتى يباركه، فذهب عيسو للصيد كما أمره أبوه، إلا أن أمهما كانت تحب يعقوب وهو الأصغر أكثر من أخيه عيسو، وأرادت أن

---

(١) انظر: «سفر التكوين» (١٩/ ٣٠- ٣٨).

تكون البركة له، فدعته وأمرته أن يُحضر جديًا فيطبخه وأن يلبس ملابس أخيه ويضع فوق يديه جلد جدي حتى يبدو جسمه بشعر مثل جسم أخيه عيسو، فيظن إسحاق عليه السلام أنه هو فيباركه، ففعل يعقوب عليه السلام ذلك، ثم دخل على أبيه.

ففي ذلك قالوا: «فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي. فقال: ها أنذا، من أنت؟ فقال: يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحاق لابنه: ما هذا الذي أسرعت لتجد يا بني؟

فقال: إن الرب إلهك قد يَسَّر لي. فقال إسحاق ليعقوب: تقدم لأجسك ياابني، أأنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو!! ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه، فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو. فقال: قَدِّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل وأحضر له خمرًا فشرب، فقال له إسحاق أبوه: تقدم وقبِّلني يا ابني. فتقدم وقَبَّله، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر رائحة ابني كرائحة حقل، قد باركه الرب، فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيدًا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين» سفر التكوين (٢٧/ ١٨-٢٩).

وفاز يعقوب بالبركة بهذه الحيلة، وبعد أن جاء أخوه عيسو لم يكن أمامه إلا الصراخ والعويل لفوات البركة.

وبهذا الكلام يصمون أباهم يعقوب عليه السلام بالكذب مرارًا، وانتحال شخصية أخيه كيدًا، وأَخْذ ما ليس له فيه حق احتيالًا، كما يصمون أباهم

إسحاق عليه السلام بالجهل الشديد إلى حد التغفيل والغباء حيث لم يستطع أن يميز بين ولديه، وهو أمر مستبعد جدًّا أن يقع لأقل الناس إدراكًا وأشدهم تغفيلًا فضلًا عن نبي الله إسحاق عليه السلام.

وهذا كله مما لا يليق وصف الأنبياء عليهم السلام به، كما أن النبوة ليست بيد إسحاق ولا بيد غيره من الأنبياء، بل هي محض تفضل من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام آية: ١٢٤].

ويتجلى في هذه القصة طرف من مكر اليهود وكيدهم، فإذا نظرنا إلى قصة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام نجد أنهم أغفلوا مسألة البكورية في استحقاق البركة والتي يقصدون بها النبوة، وجعلوا البركة لإسحاق دون إسماعيل عليه السلام لأن إسماعيل عندهم ابن جارية(١)، ولما صار الأمر متعلقًا بعيسو ويعقوب، وعيسو هو الأكبر حسب كلامهم، اخترعوا هذه القصة حتى يبينوا أن يعقوب قد أخذ البركة دون أخيه عيسو.

وأيضًا تلك البركة التي يزعمون أنها للأكبر لا نراها بَعْدُ في نبي آخر من أنبيائهم، حتى إن يعقوب عليه السلام لما بارك أبناءه عند موته جعل البركة العظمى ليوسف عليه السلام(٢) وهو أصغر أبناء يعقوب ما عدا شقيقه بنيامين فقد كان أصغر منه.

وهكذا أيضًا بارك يعقوب أفرايم ومنسي ابنى يوسف عليه السلام، فقد كان منسي هو البكر، فجعل يعقوب عليه السلام البركة الأهم لأفرايم وهو الصغير حيث

---

(١) «سفر التكوين» (٢٥/ ٥).

(٢) «سفر التكوين» (٤٩/ ٢٢-٢٧).

وضع عليه يده اليمنى[١].

فهذه قصة مخترعة مفتراة على نبي الله إسحاق ويعقوب عليهما السلام، لا شك في ذلك.

٤- هارون عليه السلام:

زعموا أن هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل ودعاهم إلى عبادته، فقالوا في سفر الخروج (٣٢/ ١): «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها... فأخذ ذلك من أيديهم وصَوَّره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل».

فهل يعقل أن نبيًّا أرسله الله لدعوة قومه إلى عبادة الله وحده - يصنع لقومه عجلًا ويدعوهم إلى عبادته؟!. حاشى أنبياء الله من ذلك.

وقد بَيَّن الله ﷻ في القرآن أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، فقال ﷻ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه: ٨٥].

أما هارون عليه السلام فقد قام بواجبه من ناحية نهيهم عن عبادة العجل، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠﴾ [طه: ٩٠].

٥- داود عليه السلام:

زعموا أنه زنى بامرأة أحد جنوده، وحبلت من ذلك الزنى، ثم إنه تسبب في مقتل زوجها حيث أمر أن يُجعل في مقدمة الجيش حتى يعرضه للقتل، ثم بعد مقتل زوجها تزوجها ومات ذلك المولود الأول، ثم حبلت مرة

---

(١) «سفر التكوين» (٤٨/ ١٣).

أخرى فأنجبت النبي سليمان عليه السلام[1].

٦- سليمان عليه السلام:

زعموا أن سليمان عليه السلام تزوج بنساء مشركات يعبدن الأصنام، ثم هو عَبَد الأصنام معهن وبنى للأصنام أيضًا معابد لعبادتها[2].

ذلك كله محض افتراء وكذب، وهو من افتراءات اليهود على أنبياء الله تعالى وكذبهم عليهم، وأن هذا من أظهر أدلة تحريف الكتب الإلهية والعبث فيها وَفق أهوائهم ورغباتهم.

ولسائل أن يسأل لماذا طعن اليهود في أنبيائهم وقد كان لأنبيائهم الدور الأكبر والفضل العظيم عليهم بعد فضل الله فيما نالوا من خير الدنيا وعزها في سابق حياتهم؟

إن هذا لسؤال محير!! إلا أنا إذا تصورنا أن هذه الكتب قد طالتها يد التحريف، ولا نعرف على التحقيق من الذي تولى تحريفها، ولا الزمان الذي حرفت فيه.

إلا أننا نقطع حسب ما أوردوا في كتبهم أن بني إسرائيل انحرفوا عن دينهم انحرافات خطيرة وكثيرة، بل تركوا دينهم وعبدوا الأصنام والأوثان خاصة فيما قبل السبي، ولا نشك أن جزءًا كبيرًا من التحريف كان في تلك الفترات وهي التي لا يتورع أصحابها عن الافتراء على الله ﷻ وعلى أنبيائه عليهم السلام فتمت في ذلك الزمان التحريفات الكثيرة أو كتابة كتب كاملة ونِسبتها إلى نبي من الأنبياء.

ثم إن المتأخرين منهم لم يكن لديهم الجرأة على تمحيص تلك النصوص

---

(١) انظر «سفر صموئيل الثاني» (١١/ ١-٢٦).

(٢) انظر «سفر الملوك الأول» (١١/ ١-٩).

أو أنهم أيضًا اختلت موازينهم بسبب ذلك التحريف.

ولكن السؤال لا زال قائمًا: لماذا حرف أولئك اليهود كلام الله وطعنوا في أنبيائهم وأصحاب الفضل عليهم بهذه المطاعن؟

الذي يبدو لي أن أولئك المحرفين أرادوا أن يبرروا ما هم فيه من فساد وانحراف وفسق، فألصقوا أنواعًا من التهم بأنبيائهم، حتى لو احتج عليهم محتج بأمر من الأمور المتعلقة بانحرافهم احتجوا له بأن النبي الفلاني فعل كذا وفعل كذا، كذبًا وزورًا.

وأيضًا ليخدموا غرضًا في نفوسهم كما سبق أن قلنا عن طعنهم في نبي الله نوح ولوط عليهما السلام.

وهذا كله يكفي في التعبير عنه قول الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩][1].

سادسًا: اليوم الآخر في التوراة:

كانت عقيدة بني إسرائيل وذلك حين كانت تستمد تشريعها من السماء - هي الإيمان باليوم الآخر وأنه دار الجزاء، وقد أثبت الله ذلك عنهم في عدة آيات من القرآن الكريم:

قال ﷻ في خطابه لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥].

وقال ﷻ على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص٩٦)، وانظر «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٤٠٨).

وقال ﷻ عن صالحي جنود طالوت: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إلا أن اليهود انحرفوا عن هذا الاعتقاد بانحرافهم عن دين الله ﷻ.

وقد سجل الله عليهم هذه الانحرافات، وعابهم عليها، وكذبهم فيها، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٠﴾ [البقرة: ٨٠].

وزعموا أن الجنة لهم وحدهم، وكَذَّبهم الله بذلك، قال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾ [البقرة: ١١١].

هذا ما حكاه الله ﷻ عن صالحيهم وفاسقيهم من ناحية الإيمان بالبعث والجنة والنار.

أما كتابهم التوراة: فقد خلا تمامًا من ذكر الجنة والنار والبعث والنشور، وكذلك سائر الكتب الملحقة فيه إلا نزرًا يسيرًا.

فمن ذلك صورة غير واضحة وردت في سفر دانيال (١٢/ ٢) وهو قولهم: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقضون هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي».

ويذكر الدكتور علي وافي أنه لا يوجد في فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر:

ففرقة الصادوقيين تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين إنما يحصلان في حياتهم.

وفرقة الفريسيين تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون في هذه

الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي آخر الزمان. فهم ينكرون على هذا البعث يوم القيامة.

ومَن نظر أدنى نظرة في كتاب اليهود التوراة والكتب الملحقة بها، يجد أن الوعود الواردة فيه مقابل الأعمال الصالحة والإيمان بالله تدور حول المتعة الدنيوية من انتصار على الأعداء وكثرة الأولاد، ونماء الزرع... إلى غير ذلك.

كذلك الوعيد الوارد على المعاصي والكفر، كله يدور حول انتصار الأعداء عليهم وسبي ذراريهم وموت زرعهم وماشيتهم... إلى غير ذلك من العقوبات الدنيوية.

مما يدل على عدم إيمانهم باليوم الآخر حسب التوراة والكتب الملحقة بها[١].

وهذا يختلف عما لديهم في التلمود، حيث صرحوا بالنعيم والجحيم، فقد ورد فيه: أن الجنة مأوى الأرواح الزكية[٢] لا يدخلها إلا اليهود، والجحيم مأوى الكفار ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين. وأن الجحيم أوسع من النعيم ستين مرة[٣].

كما ورد في نص الأصول الثلاثة عشر التي وضعها موسى بن ميمون وجعلها أركان الإيمان اليهودي - قولهم في الركن الثالث عشر: «أنا أؤمن إيمانًا كاملًا بقيامة الموتى، في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق،

---

(١) انظر: «بنو إسرائيل في القرآن الكريم» (ص١٤١-١٤٣)، و«اليهودية» د. علي وافي (ص٤٩-٥٠)، و«اليهودية» أحمد شلبي (ص١٩٥).

(٢) المراد بها أرواح اليهود فقط.

(٣) انظر: «الكنز المرصود في قواعد التلمود» (ص٦٨).

تبارك اسمه وتعالى ذكره الآن وإلى الأبد الآبدين»[١].

وهذا ليس فيه تصريح باليوم الآخر لاحتمال أن يقصد بذلك بعثًا دنيويًّا على نحو عقيدة الفريسيين السابقة، ولكن ذلك يدل على تغير في العقيدة لديهم عما كان عليه كثير من أسلافهم المتقدمين، ولعله من تأثرهم بعقيدة المسلمين لاحتكاكهم بهم لأن موسى بن ميمون كان طبيبًا للأيوبيين في مصر[٢].



(١) «الفكر الديني اليهودي» (ص١٣٥).

(٢) نقل من «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» (ص: ١١٧).

الزبور

الزبور: هو الكتاب الذي أنزله الله ﷻ على داود عليه السلام، والزبر هي الكتب وهي جمع زبور، والزبور الكتاب بمعنى المزبور أي المكتوب، يقال: زبرت الكتاب، أي كتبته. وكل كتاب زبور. قال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة، وعلى هذا الأشبهُ أن يكون معنى الزبور من الزَّبْر الذي هو الزجر، يقال: زبرت الرجل؛ إذا زجرته عن الباطل، وسُمي الكتاب زبورًا لما فيه من الزبر عن خلاف الحق. وبه سُمي زبور داود لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣][(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) قال البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣١١): ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ قَرَأَ الْأَعْمَشُ وَحَمْزَةُ: «زُبُورًا» وَالزُّبُورُ بِضَمِّ الزَّايِ حَيْثُ كَانَ، بِمَعْنَى: جَمْعُ زَبُورٍ، أَيْ: آتَيْنَا دَاوُدَ كُتُبًا وَصُحُفًا مَزْبُورَةً، أَيْ: مَكْتُوبَةً.

وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِفَتْحِ الزَّايِ، وَهُوَ اسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَاوُدَ عليه السلام، وَكَانَ فِيهِ التَّحْمِيدُ وَالتَّمْجِيدُ وَالثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَكَانَ دَاوُدُ يَبْرُزُ إِلَى الْبَرِيَّةِ فَيَقُومُ وَيَقْرَأُ الزَّبُورَ وَيَقُومُ مَعَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَقُومُونَ خَلْفَهُ وَيَقُومُ النَّاسُ خَلْفَ الْعُلَمَاءِ، وَيَقُومُ الْجِنُّ خَلْفَ النَّاسِ، الْأَعْظَمُ فَالْأَعْظَمُ، وَالشَّيَاطِينُ خَلْفَ الْجِنِّ، وَتَجِيءُ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي الْجِبَالِ فَيَقُمْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَجُّبًا لِمَا يَسْمَعْنَ مِنْهُ، وَالطَّيْرُ تُرَفْرِفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

في أي شهر نزل؟

وردت بعض الأحاديث والآثار في ذلك:

فعن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: «...**وأنزل الزبور، لثمان عشرة خلت من رمضان**»(١).

وورد عَنْ أَبِي الْجَلْدِ: «نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَنَزَلَ الزَّبُورُ فِي سِتٍّ. . .»(٢).

وعَنْ قَتَادَةَ: «وَنَزَلَ الزَّبُورُ لَسِتَّ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ»(٣).

مَا شُبِّهَ مِنَ الْقُرْآنِ بِه:

عن عبد الله بن مسعود قَالَ: «الطُّوَلُ كَالتَّوْرَاةِ، وَالْمِئُونَ كَالْإِنْجِيلِ، وَالْمَثَانِي كَالزَّبُورِ، وَسَائِرُ الْقُرْآنِ فَضْلٌ»(٤).

بعض ما جاء فيه:

عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: قَرَأْتُ فِي الزَّبُورِ: بِكِبْرِيَاءِ الْمُنَافِقِ يَحْتَرِقُ الْمِسْكِينُ، وَقَرَأْتُ فِي الزَّبُورِ: إِنِّي أَنْتَقِمُ لِلْمُنَافِقِ بِالْمُنَافِقِ ثُمَّ أَنْتَقِمُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ جَمِيعًا. وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا

---

(١) تقدم تخريجه في صحف إبراهيم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) **إسناده منقطع:** أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٧١) والدارمي (٣٤٤٣) من طريق المسيب بن رافع، عن عبد الله، به.

المسيب بن رافع، لم يسمع من ابن مسعود. قال أحمد بن حنبل: لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئًا «جامع التحصيل» (ص: ٢٨٠).

 [الأنعام: ١٢٩][1].

وعنه أيضًا، قال: مكتوب في الزبور: طوبى لمن لم يسلك طريق الأئمة ولم يجالس البطالين ولم يقم في هوى المستهزئين، إنما همه حكمة الله، لها يطلب وبها يتكلم، فمثله مثل شجرة في وسط الماء لا يتساقط من ورقها شيء، وكل عمل مثل هذا تام لا يذهب منه شيء[2].

وعَنْ، خَالِدٍ الرَّبَعِيِّ، قَالَ: «أُخْبِرْتُ أَنَّ فَاتِحَةَ الزَّبُورِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ زَبُورُ دَاوُدَ عليه السلام، رَأْسُ الْحِكْمَةِ خَشْيَةُ الرَّبِّ»[3].

وعن قتادة قال: «فِي الزَّبُورِ مَكْتُوبٌ: لَا يُحَدَّثُ بِالْحَدِيثِ فِي الْيَوْمِ إِلَّا مَرَّةً»[4].

وعنه أيضًا قال: «زبور داود مواعظ وحِكم ودعاء، ليس فيه حلال ولا حرام»[5].

وعن سفيان بن عيينة، قال: «أول ما كُتب في الزبور: ويل للظلمة»[6].

---

(١) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٤٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٩٠١) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٦) من طريق مرحوم بن عبد العزيز العطار، قال: سمعت مالك بن دينار، به.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٨٠) من طريق عبد العزيز بن عبد الصمد، عن مالك بن دينار، به.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» (٣٧٨) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٢٥٢) وهناد بن السري في «الزهد» (٤٥٨) من طريق عوف، عن خالد بن ثابت الربعي، به.

(٤) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ٦) من طريق يوسف بن مسلم، عن إسحاق بن عيسى، عن عباد بن العوام، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، به.

(٥) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٦٥).

(٦) أخرجه أبو بكر الدِّينوري في «المجالسة» (٤٣٩) عن محمد بن يونس القرشي، =

وعَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ قَالَ: «كَانَ فِي زَبُورِ دَاوُدَ مَكْتُوبًا: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا مَلِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَأَيُّمَا قَوْمٍ كَانُوا عَلَى طَاعَةٍ جَعَلْتُ الْمُلُوكَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةً، وَأَيُّمَا قَوْمٍ كَانُوا عَلَى مَعْصِيَةٍ جَعَلْتُ الْمُلُوكَ عَلَيْهِمْ نِقْمَةً، لَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبَبِ الْمُلُوكِ وَلَا تَتُوبُوا إِلَيْهِمْ، تُوبُوا إِلَيَّ أَعْطِف قُلُوبَهُمْ عَلَيْكُمْ»[١].

وعن الأصمعي قال: «بلغني أن في الزبور مكتوبًا: مَن بلغ السبعين اشتكى من غير علة»[٢].

وعن وهبا الذماري يقول: «قرأت في الزبور: إن الله تبارك وتعالى يقول: مَن اغتسل من الجنابة؛ فإنه عبدي حقًّا»[٣].

وعن عبد الواحد بن حبيب الدمشقي قال: «فِي زَبُورِ دَاوُدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: طُوبَى لِرَجُلٍ اطَّلَعَ اللَّهُ في قَلْبِهِ عَلَى الرِّضَا لِيَسْتَوْجِبَ عَظِيمًا مِنَ الْجَزَاءِ!! طُوبَى لِمَنْ لَمْ يُهِمَّهُ هَمُّ النَّاسِ، وَإِذَا عُرِضَ لَهُ غَضَبٌ فِيهِ مَعْصِيَةٌ كَظَمَ الْغَيْظَ بِالْحِلْمِ!!»[٤].

= عن الحميدي؛ قال: سمعت سفيان بن عيينة، به. ومحمد بن يونس القرشي ضعيف، كما في «التقريب».

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٢١٨، ٣٤٢٦٠) عن عبد الله بن نمير، عن، مالك بن مغول، به.

(٢) أخرجه أبو بكر الدِّينوري في «المجالسة» (١٢٧٨) من طريق الأصمعي، به.

(٣) أخرجه أبو بكر الدِّينوري في «المجالسة» (٢٤٧٨) من طريق زيد بن أسلم؛ عن وهبا الذماري.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٩٩) من طريق علي بن الحسن، عن عبد الواحد ابن حبيب الدمشقي، به.

وعن عبد الصمد بن معقل بن منبه، قال: سمعت رجلًا يسأل عمي وهب ابن منبه في المسجد الحرام، فقال له: حَدِّثني رحمك الله عن زبور داود. قال: نعم، وجدت في آخره ثلاثين سطرًا:

يا داود، اسمع مني، الحق أقول، مَن لقيني وهو يحبني أدخلته جنتي. يا داود، اسمع مني والحق أقول، مَن لقيني وهو يخاف عذابي لم أعذبه. يا داود، اسمع مني والحق أقول، مَن لقيني وهو مستحي من معاصيه أنسيت الحفظة ذنوبه. يا داود، اسمع مني والحق أقول، لو أن عبدًا من عبادي عمل حشو الدنيا ذنوبًا مغاربها ومشارقها ثم ندم حَلْب شاة واستغفرني مرة واحدة، وعلمت من قلبه أن لا يعود إليها؛ ألقيتها عنه أسرع من هبوط الماء من السماء إلى الأرض. يا داود، اسمع مني والحق أقول، لو أن عبدًا أتاني بحسنة واحدة حَكَّمته في جنتي.

قال داود: من أجل ذلك لا يحل لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك.

قال: يا داود، إنما يكفي أوليائي اليسير من العمل، كما يكفي الطعام القليل من الملح، يا داود، هل تدري متى أتولاهم؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك، ونزعوا من قلوبهم الشك، وعلموا أن لي جنة ونارًا، وأني أحيي وأميت، وأبعث من في القبور، وأني لم أتخذ صاحبة ولا ولدًا، فإن توفيتُهم بيسير من العمل وهم يوقنون بذلك، جعلته عظيمًا عندهم، هل تدري يا داود من أسرع مَرًّا على الصراط؟ الذين يرضَون بحكمي، وألسنتهم رطبة من ذكري. هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم منزلة عندي؟ الذي هو بما أعطى أشد فرحًا بما حبس. هل تدري يا داود أي الفقراء أفضل؟ الذين يرضَون بحكمي وبقسمتي، ويحمدونني على ما أنعمت عليهم من المعاش. هل تدري يا داود أي المؤمنين أحب إليَّ أن أطيل حياته؟ الذي إذا

قال: لا إله إلا الله، اقشعر جلده، فإني أكره له الموت كما يكره الوالد لولده، ولابد منه، إني أريد أن أسره في دار سوى هذه الدار، فإن نعيمها فيها بلاء، ورخاءها فيها شدة، فيها عدو لا يألوهم بها خبالًا، يجري منهم مجرى الدم؛ من أجل ذلك عجلت أوليائي إلى الجنة، لولا ذلك ما مات آدم ولا أولاده المؤمنين حتى يُنفخ في الصور، إني أدري ما تقول في نفسك يا داود، تقول: قطعت عنهم عبادتك. أما تعلم يا داود أني أُعين المؤمن على عثرة يعثرها، فكيف إذا ذاق الموت وهو أعظم المصائب، وترى جسده الطيب بين أطباق الثرى، إنما أحبسه طول ما أحبسه لأُعظم له الأجر، وأُجري عليه أحسن ما كان يعمله إلى يوم القيامة.

قال داود: لك الحمد إلهي؛ من أجل ذلك سميت نفسك أرحم الراحمين. إلهي، فما جزاء مَن يُعزي الحزين على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن أُلبسه رداء الإيمان، ثم لا أنزعه عنه أبدًا.

قال: إلهي، فما جزاء مَن يشيع الجنائز ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن تشيعه ملائكتي يوم يموت، وأُصلي على روحه في الأرواح.

قال: إلهي، فما جزاء مساعد الأرملة واليتيم ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن أُظله في ظل عرشي، يوم لا ظل إلا ظلي. قال: إلهي، فما جزاء من يبكي من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجنتيه؟ قال: جزاؤه أن أُحرم وجهه على النار[١].

وعنه أيضًا في قصة داود النبي ﷺ وما أوحي إليه في الزبور: يا داود، إنه

(١) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (٤١٣) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٤٦) وفي «الرضا» (٣٨، ٨٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤٦) وفي «تاريخ أصبهان» (١/ ١٢٢) من طريق عبد الصمد بن معقل بن منبه، عن وهب بن منبه.

سيأتي من بعدك نبي يسمى: أحمد ومحمدًا، صادقًا سيدًا، لا أغضب عليه أبدًا، ولا يغضبني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا لي لكل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم.

وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

يا داود، فإني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلها، أعطيتهم ستة خصال لم أعطها غيرهم من الأمم: لا آخذهم بالخطأ والنسيان، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته لهم، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافًا مضاعفة، ولهم في المدخور عندي أضعافا مضاعفة وأفضل من ذلك، وأعطيتهم على المصائب في البلايا إذا صبروا وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون- الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم. فإن دعوني استجبت لهم، فإما أن يروه عاجلًا، وإما أن أصرف عنهم سوءًا، وإما أن أدخره لهم في الآخرة.

يا داود، مَن لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقًا بها، فهو معي في جنتي وكرامتي. ومن لقيني وقد كَذَّب محمدًا، وكَذَّب بما جاء به، واستهزأ بكتابي؛ صببت عليه في قبره العذاب صبًّا، وَضَرَبَتِ الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره، ثم أُدخله في الدرك الأسفل من النار[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٨٠) عنه.

الإنـجيل

الإنجيل كلمة يونانية تعني الخبر الطيب (البشارة).

والإنجيل عند المسلمين: هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام فيه هدى ونور

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وقد دعا المسيح عليه السلام بني إسرائيل إلى الأخذ بالإنجيل والإيمان به: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤].

وجاء في إنجيل مرقص (١/ ١٤): «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمِنوا بالإنجيل».

وقد ذكر هذا الإنجيل أوائل النصارى، ودعوا إلى الإيمان به،

وفي هذا يقول سفر (أعمال الرسل) (٨/ ٢٥) عن بطرس ويوحنا في دعوتهما للسامريين من اليهود: «وكما شهدا وتكلما بكلمة الرب، رجعا إلى أورشليم، وبشَّرا بالإنجيل في قرى كثيرة للسامريين».

ذكره بولس أيضًا في رسائله، مثل قوله في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (٢/ ٢): «جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله في جهاد كثير؛ لأن وعظنا ليس عن ضلال ولا عن دنس ولا بمكر، بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل هكذا نتكلم... ثم يقول: ... فإنكم أيها

الإخوة تذكرون تعبنا وكدنا إذ كنا نكرز لكم بإنجيل الله...».

فإذًا الإنجيل كان كتابًا موجودًا ومعروفًا لدى النصارى الأوائل بأنه إنجيل الله أو إنجيل المسيح.

إلا أن هذا الإنجيل لا نجده بين الأناجيل الموجودة بين يدي النصارى اليوم، فأين هو؟

على النصارى أن يجيبوا على هذا السؤال، أو يعترفوا بأنهم فقدوه في زمن مبكر من تاريخهم، ولعل هذا هو الأرجح؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝١٤﴾ [المائدة: ١٤].

وقد صار عند النصارى بدل الإنجيل الواحد أربعة أناجيل، يجعلونها في مقدمة كتابهم العهد الجديد، ولا ينسبون أيًّا منها إلى المسيح عليه السلام، وإنما هي منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا - الذي يزعم النصارى أن اثنين منهم من الحواريين وهما متى ويوحنا، والآخران أحدهما مرقص تلميذ بطرس، والآخر لوقا تلميذ بولس في زعمهم.

وهذه الأناجيل تحوي شيئًا من تاريخ عيسى عليه السلام حيث ذُكِرَ فيها ولادته، ثم تنقلاته في الدعوة، ثم نهايته بصلبه وقيامته في زعمهم، ثم صعوده إلى السماء.

كما تحتوي على مواعظ منسوبة إليه وخطب، ومجادلات مع اليهود، ومعجزات كان يظهرها للناس دليلًا على صدقه في أنه مرسل من الله.

فهذه الأناجيل أشبه ما تكون بكتب السيرة، إلا أن بينها اختلافات ليست قليلة، وبعضها اختلافات جوهرية لا يمكن التوفيق بينها إلا بالتعسف كما سيتبين.

والقارئ لهذه الأناجيل الأربعة يستطيع بسهولة أن يدرك أن ما ورد فيها من دعوة وخطب ومواعظ ومجادلات تعود إلى مطلبين أساسيين، هما:

١ - الدعوة إلى التوبة والعمل بما جاء في الشريعة التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢- التبشير بقرب قيام مملكة الله التي يتحقق فيها العدل والمساواة(١).

ذِكر الإنجيل في القرآن:

لقد ورد ذكر القرآن الكريم في الإنجيل مرات كثيرة، ويكاد يكون حديث القرآن عن الإنجيل قريبًا عن حديثه عن التوراة، إلا في بعض النقاط.

وقد وصفه القرآن الكريم بصفات، فمنها:

١- أنه هدى ونور وموعظة:

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

٢- أن الإنجيل جاء مكملًا أو معدلًا لما جاء في التوراة من أحكام.

ولم يصف القرآن الإنجيل بما وصف به التوراة من أنه كتاب شامل يفصل كل شيء، بل على العكس، جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة هي نسخ بعض ما ورد في التوراة من أحكام؛ لحكمة يعلمها الله، يقول القرآن على لسان عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٥٠].

---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص ١٩٩)، وانظر «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٤٢٧).

ولهذا ربط القرآن بينهما في مهمة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

٣- هناك فرق واضح في اهتمام القرآن، فالظاهر اهتمامه برسالة موسى أكثر من الإنجيل، ويظهر هذا في عدد المرات التي ذُكرت فيها التوراة (١٨) مرة بينما ذُكر الإنجيل (١) مرة وذُكر موسى (١٣٦) مرة بينما لم يذكر عيسى إلا (٢٥) مرة.

هناك إشارة ربما تكون أظهر في الدلالة على اهتمام القرآن بالتوراة أكثر من اهتمامه بالإنجيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠][(١)].

٤- بشارته بالرسول ﷺ كما في التوراة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦][(٢)].

(١) «المحكم في العقيدة» (ص١٨٥).

(٢) «العقيدة الإسلامية» د. أحمد محمد جلي (ص١٩٧).

٥- تصديق القرآن لرسالة عيسى عليه السلام كما هو مصدق لجميع الرسالات السابقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: ٩٧].

٦- وتحدث القرآن عن حَمَلة الإنجيل كما تحدث عن حَمَلة التوراة، فقسمهم إلى قسمين: فئة وقفت مع الإنجيل الحق، وأخرى كاذبة كافرة خائنة.

فقال عن الأولى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

وأما الثانية فهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

٧- بيان القرآن أن هذا الإنجيل الذي بين أيدينا الآن ليس هو كلام الله، بل هو من تحريف المحرفين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٨، ٧٩].

والحقيقة فالقرآن لا يُفصل في مقدار التحريف الذي ورد على التوراة والإنجيل، وكأن هدفه فقط أن يقول لنا: إن هذين الكتابين ليسا مصدر ثقة؛ لأن الأهواء دخلتهما. أما التفصيل فلا نحتاجه نحن، وأيضًا فإن مقدار التحريف مختلف زمانًا ومكانًا ومذاهب، فلم يهتم القرآن إلا بالذي فيه الفائدة للناس[١].

في أي شهر نزل؟

وردت بعض الأحاديث والآثار في ذلك:

فعن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: «**وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان...**»[٢].

وورد عَنْ أَبِي الْجَلْدِ: «نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ... وَالْإِنْجِيلُ فِي ثَمَانِ عَشْرَةَ...»[٣].

وأيضًا عَنْ قَتَادَةَ، مثل قول أَبِي الْجَلْدِ[٤].

الإنجيل الموجود اليوم:

الإنجيل بعد عيسى عليه السلام:

الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل، ورسائل الرسل.

وتسمى التوراة العهد القديم، ويسمى الأناجيل ورسائل الرسل العهد

(١) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ١٦٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الجديد.

فالعهد الجديد - إذًا - هو الذي يشتمل على أناجيلهم.

والأناجيل المعتبرة عند النصارى أربعة هي:

١- إنجيل يوحنَّا. ٢-إنجيل مرقُس.

٣- إنجيل مَتَّى. ٤-إنجيل لُوقا.

وهناك أناجيل أخرى مثل إنجيل برنابا، وأناجيل أخرى أهملت.

هذا وقد بيَّن كثير من العلماء المسلمين قديمًا وحديثًا ومن علماء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، أو المتحررين منهم من ربقة التقليد - عدم صحة هذه الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى، ووجهوا إليها انتقادات كثيرة.

ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى».

ومن العلماء المحدثين الشيخ رحمة الله الهندي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «إظهار الحق»، والشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «محاضرات في النصرانية»، ومن علماء النصارى الذين أسلموا إبراهيم خليل أحمد كما في كتابه: «محاضرات في مقارنة الأديان»[١].

وفيما يلي إجمال لتاريخ الأناجيل الأربعة:

تاريخ الأناجيل الأربعة إجمالًا:

قبل الحديث عن تاريخ الأناجيل الأربعة لدى النصارى لا بد من بيان أن الكتب الدينية لها مكانة عظيمة لدى أتباعها، ولها دور خطير في الحياة؛ إذ

(١) «الايمان بالكتب» للحمد (ص١٥).

يُعتمد عليها في توضيح الطريق إلى سعادة الدنيا وفوز الآخرة. فلهذا يجب أن تكون الكتب ثابتة الإسناد إلى أصحابها الذين هم رسل الله، والمبلغون عن الله ﷻ، فإذا لم تكن كذلك فإنها تفقد قيمتها؛ إذ تكون عرضة للتحريف والتبديل من قِبل أصحاب الأهواء والمقاصد الخبيثة، أو من قِبل العوارض البشرية كالنسيان، وقلة العلم والوهم ونحو ذلك.

فصحة الإسناد بعدالة رواة الأخبار وضبطهم وعدم انقطاعه - هو السبيل الذي يمكن به وصول هذه الكتب إلى الناس سليمة صحيحة كاملة، فيتعرَّف الناس على الحق من خلالها.

وإذا نظرنا في كتب الحديث عند أهل الإسلام - والتي تتضمن أقوال نبينا محمد ﷺ وأفعاله وتقريراته وجميع ما يتعلق به - عرفنا الجهد العظيم الذي بذله أولئك الأئمة في المحافظة على حديث رسول الله ﷺ سليمًا صحيحًا، حيث يستطيع المسلم في القرن الخامس عشر الهجري أن يعرف صحة الحديث من عدمها.

وإذا بحثنا في التاريخ لدى النصارى عن إسناد لهذه الأناجيل إلى من تنسب إليه، لا نجد من ذلك شيئًا البتة لا قليلًا ولا كثيرًا. ورسائل بولس وكذلك الرسائل الأخرى وأعمال الرسل - ليس في شيء منها إشارة إلى واحد من هذه الكتب الأربعة، الأمر الذي يترتب عليه أن هذه الكتب لم تكن معروفة في ذلك الزمن، ولم يطَّلع عليها أحد منهم.

وفي هذا دلالة قوية على أن نشأة هذه الكتب وظهورها كان متأخرًا عن هذه الرسائل، بخلاف إنجيل الله أو إنجيل المسيح، فقد ورد ذكره في كلام بولس مرارًا عديدة، كما ورد ذكره في إنجيل مرقص وأعمال الرسل، مما يدل على وجوده وأنه معروف معلوم.

وقد حاول النصارى أن يجدوا لهذه الكتب إسنادًا أو إخبارًا عنها في كلام متقدميهم يتفق مع الزمن الذي يزعمون أنها كُتبت فيه، وهو الربع الأخير من القرن الأول الميلادي على أكثر تقدير، إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع؛ مما اضطرهم إلى الاعتراف بأن هذه الكتب لم تُعرف إلا بعد موت من تُنسب إليه بعشرات السنين، فتكون نسبتها إلى أولئك الناس نسبة لا تقوم على أدنى دليل.

وإليك بعض كلام النصارى في هذا الأمر:

يقول القس (فهيم عزيز) الأستاذ بكلية اللاهوت الإنجيلية: «لكن قانونية أسفار العهد الجديد لم تتم في وقت واحد ولم يكفها جيل أو جيلان، بل استمرت مدة طويلة، ولم تقف الكنائس المختلفة موقفًا موحدًا من الأسفار المختلفة، بل اختلفت آراؤها من جهة بعض الأسفار، واستمرت في ذلك حقبة طويلة؛ فلهذا يلزم تتبع هذا التاريخ الطويل لقانونية أسفار العهد الجديد:

الكنيسة الأولى: يوم الخمسين (١٠٠م):

من المعلوم جيدًا أنه لم تكن في تلك الفترة كتب مقدسة تسمى العهد الجديد، ولكن الكنيسة لم تمكث بدون مصادر إلهية تستند عليها في كل شيء من وعظ وتعاليم وسلوك ومعاملات، وقد كان لها في هذا المجال ثلاثة مصادر...». ثم ذكر أن المصادر الثلاثة هي: العهد القديم، المسيح، الرسل.

ثم قال:

ثانيًا: (١٠٠ - ١٧٠م)، ظهور الكتب القانونية في العهد الجديد:

كانت أول مجموعة عرفتها الكنيسة من العهد الجديد هي مجموعة رسائل بولس. فهي أول ما جُمع من كل كتب العهد الجديد، ولقد كتب بولس رسائله إلى كنائس وأفراد لظروف خاصة ومواقف محددة...».

ثم قال: «أما المجموعة الثانية: فهي مجموعة الأناجيل الأربعة، وقد ظهرت هذه المجموعة متأخرة بعض الوقت عن مجموعة كتابات بولس. ومع أن تاريخ اعتبارها كتبًا قانونية مقدسة متساوية في ذلك مع كتب العهد القديم لا يزال مجهولًا، لكن الاقتباسات العديدة التي وُجدت في كتابات آباء الكنيسة الرسوليين وشهاداتهم - تُلقي بعض الضوء على هذه الحقيقية الجوهرية في العصر المسيحي.

ويلاحظ الدارس الأمور الآتية:

أن بولس لم يشر في كتاباته إلى أي من الأناجيل المكتوبة، ولا إلى أي كتاب عن حياة المسيح أو أقواله...».

ثم ذكر المصنف سبع نقاط أخرى أورد في بعضها اقتباسات لمتقدمين من النصارى تتوافق في بعضها مع ما ورد في بعض الأناجيل بدون النص على اسم الإنجيل. وأهم ما ذكره من الملاحظات هو قوله في الملاحظتين السابعة والثامنة:

٧ - أما جاستن أو يوستينوس الشهيد الذي كان سامريًّا يونانيًّا، وتحوَّل إلى المسيحية، ودرس في روما، واستشهد حوالي (١٦٥م)، فيؤخذ من كتاباته أنه قد عرف الأناجيل الأربعة مرتبطة معًا، مع أنه لم يكشف النقاب عمن جمعها، ولا في أي مكان جُمعت، وهو يصفها عندما يذكرها في دفاعه ضد الوثنيين بأنها الذكريات، ولكنه عندما كان يكتب للمسيحيين كان يقول عن الرسل: «هم أولئك الذين كتبوا ذكرياتهم عن كل الأشياء التي تختص بيسوع المسيح المُخلِّص». ثم يقول مرة أخرى: «الذكريات التي عملها الرسل التي تسمى الأناجيل».

٨ - أما الشاهد الأخير فهو (الديا طسرن) الذي كتبه (تاتيان)، وأراد أن يجمع فيه الأناجيل الأربعة معًا في إنجيل واحد، وقد أضاف تاتيان هذا بضعة كلمات للمسيح لا توجد في هذه الأناجيل، ولكنها أُخذت من كتب

أبوكريفية أخرى، وهو بذلك يشهد أن الأربعة الأناجيل وُجدت معًا، ولكن إضافاته مجرد اقتباسات لا تدل على أنه كان يعتبر أن هناك كتبًا أخرى تضارعها في سلطانها وقداستها.

وبعد هذا النقل عن أحد القسس المتعمقين والمتخصصين في دراسات العهد الجديد، ننقل كلام مجموعة من المتخصصين النصارى عن أناجيلهم، وذلك في المدخل إلى العهد الجديد.

قالوا في التعريف بتاريخ وقانونية العهد الجديد ما يلي:

«لقد سيطرت على المسيحيين الأوائل فكرة تناقلتها الألسن شفاهًا – تعلن انتهاء هذا العالم سريعًا وعودة المسيح ثانية إلى الأرض؛ ليُدين الناس، وكان من بين نتائج هذا المعتقد أن توقف التفكير في تأليف كتابات مسيحية تسجل أخبار المسيح وتعاليمه، فتأخر لذلك تأليف الأناجيل؛ إذ لم يشرع في تأليف أقدمها – وهو إنجيل مرقس الذي لم يكن قط من تلاميذ المسيح – إلا بعد بضع عشرات من السنين، لقد كانوا يؤمنون بنهاية العالم وعودة المسيح سريعًا إلى الأرض قبل أن يكمل رسله التبشير في مدن إسرائيل، وهي عملية لا تستغرق أكثر من عدة أشهر أو بضع سنين على أكثر تقدير. . . الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان». متى (١٠/ ٢٣).

– وقبل أن يموت عدد من الذين وقفوا أمامه يستمعون إلى تعاليمه ومواعظه. وهي فترة يمكن تقديرها دون خطأ يُذكر في حدود خمسين عامًا على أقصى تقدير: الحق أقول لكم: إن من القيام هاهنا قوم لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته. متى (١٦/ ٢٨).

– وهو يعود ثانية إلى الأرض قبل أن يفنى ذلك الجيل الذي عاصر المسيح، وهي فترة لا تتجاوز أقصى ما قدرناه، أي: خمسين عامًا: . . .

الحق أقول لكم: لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله. متى (٢٤/ ٢٤). ومعلوم أن ذلك كله لم يحدث؛ إذ لا يزال الكون قائمًا، وبنو آدم يعيشون في عالمهم الدنيوي حتى يأتي أمر الله، هذا - ولما بردت الحمية التي أثارتها فكرة عودة المسيح سريعًا إلى الأرض، ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات عنه وعن تعاليمه، ومن هنا كانت النواة لتأليف أسفار- ما صار يُعرف فيما بعد باسم - العهد الجديد، وهي الأسفار التي لم يُعترف بشرعيتها إلا على مراحل وعلى امتداد أكثر من ثلاثة قرون.

إن كلمة (قانون) اليونانية مثل كلمة (قاعدة) في العربية قابلة لمعنى مجازي يراد به قاعدة للسلوك أو قاعدة للإيمان، وقد استعملت هنا للدلالة على جدول رسمي للأسفار التي تعدها الكنيسة ملزمة للحياة وللإيمان. ولم تندرج هذه الكلمة بهذا المعنى في الأدب المسيحي إلا منذ القرن الرابع، كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحي الجيل الأول في مرجعين:

أولهما: العهد القديم، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب استشهادهم بوحي الله.

وأما المرجع الآخر الذي نما نموًّا سريعًا، فقد أجمعوا على تسميته الرب.

ولكن العهد القديم كان يتألف وحده من نصوص مكتوبة، وأما أقوال الرب وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحفاظ مدة طويلة، ولم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة كل من: تدوين أهم ما علَّمه الرسل، وتولى حفظ ما كتبوه.

ويبدو أن المسيحيين حتى ما يقرب من السنة (١٥٠م) تدرجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلًا جدًّا إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من

الأسفار المقدسة، وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستعملوها في حياتهم الكنسية، ولم تكن غايتهم قط أن يؤلفوا ملحقًا بالكتاب المقدس، بل كانوا يَدَعُون الأحداث توجِّههم، فقد كانت الوثائق البولسية مكتوبة، في حين أن التقليد الإنجيلي كان لا يزال في معظمه متناقلًا على ألسنة الحفاظ. ولا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهورًا واضحًا كما يظهر شأن رسائل بولس.

أجل، لم تَخْلُ مؤلفات الكتبة المسيحيين الأقدمين من شواهد مأخوذة من الأناجيل أو تلمح إليها، ولكنه يكاد أن يكون من العسير في كل مرة الجزم: هل الشواهد مأخوذة من نصوص مكتوبة كانت بين أيدي هؤلاء الكتبة، أم هل اكتفوا باستذكار أجزاء من التقليد الشفهي؟

ومهما يكن من أمر، فليس هناك قبل السنة (١٤٠م)، أي شهادة تُثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة، ولا يُذكر أن لمؤلَفٍ من تلك المؤلفات صفة ما يلزم، فلم يظهر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحًا على مرِّ الزمن بأن هناك مجموعة من الأناجيل، وأن بها صفة ما يلزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي.

فيمكن القول أن الأناجيل الأربعة حظيت نحو السنة (١٧٠م) بمقام الأدب القانوني، وإن لم تستعمل تلك اللفظة حتى ذلك الحين. لم يوضع (لم يستقر) الجدول التام للمؤلفات العائدة إلى القانون إلا على نحو تدرجي، وكلما تحقق شيء من الاتفاق، فهكذا يجدر بالذكر ما جرى بين السنة (١٥٠م)، والسنة (٢٠٠م)، إذ حدد على نحو تدرجي أن سفر أعمال الرسل مؤلف قانوني، وقد حصل شيء من الإجماع على رسالة يوحنا الأولى. ولكن ما زال هناك شيء من التردد في بعض الأمور، فإلى جانب

مؤلفات فيها من الوضوح الباطني ما جعل الكنيسة تتقبَّلها تقبُّلها لما لابد منه، هناك عدد كبير من المؤلفات الحائرة يذكرها بعض الآباء ذِكْرَهم لأسفار قانونية، في حين أن غيرهم ينظر إليها نظرته إلى مطالعة مفيدة، ذلك شأن: الرسالة إلى العبرانيين، ورسالة بطرس الثانية، وكل من رسالة يعقوب ويهوذا.

وهناك أيضًا مؤلفات جرت العادة أن يُستشهد بها في ذلك الوقت على أنها من الكتاب المقدس، ومِن ثَم جزء من القانون، لم تَبْقَ زمنًا على تلك الحال، بل أُخرجت آخر الأمر من القانون، ذلك ما جرى لمؤلَّف: هرماس، وعنوانه (الراعي)، وللديداكي ورسالة إكليمنضس الأولى، ورسالة برنابا، ورؤيا بطرس، وكانت الرسالة إلى العبرانيين، والرؤيا، موضوع أشد المنازعات، وقد أنكرت صحة نسبتها إلى الرسل إنكارًا شديدًا مدة طويلة. ولم تُقبل من جهة أخرى إلا ببطء: رسالتا يوحنا الثانية والثالثة ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يهوذا. ولا حاجة إلى أن نتتبع تتبعًا مفصلًا جميع مراحل هذا التطور الذي أدَّى خلال القرن الرابع إلى تأليف قانون هو في مجمله القانون الذي نعرفه اليوم).

من خلال هذا البيان والنقل المطول عن النصارى أنفسهم في حديثهم عن كتبهم يتلخص لنا ما يلي:

١ - أن الله أنزل كتابًا على المسيح سماه الإنجيل، ودعا المسيح عليه السلام الناس إلى الإيمان به، وذكره أوائل النصارى، كما ذكره بولس في رسائله.

٢ - أن النصارى لا يعرفون شيئًا عن مصير ذلك الإنجيل، ولا أين ذهب!!

٣ - أنه كانت هناك روايات شفوية ووثيقة مشتركة متداولة كان يتناقلها الحواريون ودعاة النصارى الأوائل، ويعتقد أنها كانت المصدر الأساسي

لأوجه الاتفاق بين الأناجيل.

وأرى أن تلك الروايات الشفوية لا يبعد أن يكون الإنجيل الأصلي من ضمنها، إلا أن النصارى لم يدوِّنوه مجموعة واحدة، كما أنهم لم يميزوه عن غيره من الروايات؛ مما جعله غير محدد، ولا يستطيع أحد الجزم والاعتقاد بشيء من النصوص أنها منه.

وهذا تصديق قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤].

٤ - أن المتقدمين من النصارى لم يشيروا إلى الأناجيل الأربعة، ولم يذكروها ألبتة، فبولس - على كثرة رسائله - لم يذكرها في رسائله أبدًا، وكذلك لم يذكرها سفر أعمال الرسل الذي ذكر دعاة النصارى الأوائل.

وهذا يدل على أن هذه الكتب لم تكن موجودة في ذلك الزمن، وأنها أُلِّفت وكُتبت بعد ذلك.

٥ - أن أول من ذكر مجموعة من الكتب المدونة ذكرًا صريحًا هو جاستن الذي قُتل عام (١٦٥م)، وهذا لا يدل صراحة على الأناجيل الأربعة نفسها. وأما أول محاولة للتعريف بها ونشرها فكانت عن طريق «تاتيان» الذي جمع الأناجيل الأربعة في كتاب واحد سماه (الدياطسرن) في الفترة من (١٦٦ - ١٧٠م)، وهذا هو التاريخ الذي يمكن أن يعزى إليه وجود هذه الكتب، وهو تاريخ متأخر جدًّا عن وفاة مَن تُعزى إليهم هذه الكتب؛ إذ إنهم جميعًا ماتوا قبل نهاية القرن الأول، مما يدل على أنهم برءاء منها، وأنها منحولة إليهم.

٦- أنه حتى بعد هذا التاريخ - وهو (١٧٠م)، إلى القرن الرابع الميلادي- لم تكن الأناجيل الأربعة وحدها هي الموجودة، بل كانت هناك أناجيل كثيرة موجودة منتشرة ربما تبلغ مائة إنجيل، ولم يكن لأيٍّ منها صفة الإلزام والقداسة، وذلك أمر تكون الأناجيل الأربعة معه عرضة للتحريف

والتغيير خلال تلك الفترة أيضًا.

٧ - أن النصارى لا يعرفون بالضبط تاريخ إعطاء هذه الكتب صفة الإلزام والقداسة، وإنما يرون أنه خلال القرن الرابع الميلادي أخذت كتبهم صفة القداسة بشكل متدرج، يعني: رويدًا رويدًا.

٨- أن النصارى لا يملكون السند لكتبهم، ولا يعرفون مصدرها الحقيقي، ولا تعدو أن تكون كتبًا وجدوها منحولة إلى أولئك الناس الذين نُسبت إليهم فنسبوها إليهم، واعتقدوا صحة ذلك بدون دليل.

وهذا أمر لا يمكن أن يعطي النفس البشرية القناعة المناسبة لما تراد له هذه الكتب في الأصل من تجنب سخط الله وبلوغ رضوانه.

٩ - أننا نعجب غاية العجب من زعم النصارى: أن هذه الكتب حقيقية وصادقة، وتَنقل بأمانة وإخلاص كلام المسيح، وتروي أخباره.

كيف تجرؤوا على مثل هذا الكلام، وكيف قَبِله أتباعهم مع أنهم لا يملكون الدليل على ذلك؟! وكل دعوى عريت عن الدليل فهي باطلة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكل مَن تحدث في دين الله بلا علم فهو ضال مضل، قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج: ٣].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

ولأن دعاويهم عارية عن الدليل فهي نابعة من الهوى؛ فلهذا سمى الله ﷻ ما عند اليهود والنصارى من دين أهواء، في قوله ﷻ لنبيه محمد ﷺ:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولكن ذلك العجب يذهب وتلك الدهشة تزول إذا علمنا أن للآباء والكبراء والسادة من أهل الضلالة الذين يسعون إلى المحافظة على مكاسبهم الدنيوية - الدور الأكبر في إضلال العوام والدهماء الذين لا يستخدمون ما وهبهم الله من عقل وسمع وإدراك، وإنما يتابعون وينقادون انقياد الأعمى.

وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

والواجب على الإنسان أن لا يخضع للتقليد فيما تتعلق به نجاته وسعادته أو هلاكه وشقاوته، بل يتحقق من الأمر، ويتأكد من صحته، ويسأل الله الهداية والتسديد والرشد إلى أن يصل إلى الحق والنور الذي لن يخطئه بإذن الله تعالى إذا أخلص الطلب، واجتهد في الدعاء، وتحرَّر من الأهواء والتقليد والعصبية(١).

---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص٢٠٣).

تاريخ الأناجيل الأربعة وغيره مفصلًا:

أولًا: إنجيل متى.

ثانيًا: إنجيل مرقص.

ثالثًا: إنجيل لوقا.

رابعًا: إنجيل يوحنا.

خامسًا: إنجيل برنابا.

أولًا: إنجيل متى:

يُصَدر النصارى كتابهم المقدس بهذا الإنجيل، فهو أول كتبهم في الترتيب، وهو أطولها؛ إذ يحوي ثمانية وعشرين إصحاحًا.

ويزعم النصارى أن (متى) الذي يُنسب الكتاب إليه هو أحد الحواريين، وكان قبل اتباعه للمسيح عشارًا (جابي ضرائب).

إلا أن النصارى لم يستطيعوا أن يُبرزوا لنا دليلًا يُعتمد عليه في صحة نسبة هذا الكتاب إلى (متى).

وأقدم من يعتمدون على قوله في نسبة الكتاب إلى (متى) أحد كُتابهم، ويسمى (يوسابيوس القيصري) في كتابه (تاريخ الكنيسة) حيث نقل عن أسقف كان لهيرا بوليس سنة (١٣٠م)، يدعى (بابياس) أنه قال: (إن (متى) كتب الأقوال باللغة العبرانية).

وهذا القول ولدى جميع العقلاء لا يمكن أن يُعتمد عليه في إثبات صحة نسبة الكتاب إلى «متى» الذي يزعمون أنه حواري.

وذلك لأن «بابياس» المذكور هنا لم يكن سمع تلك التعاليم وتلك الكتب من أصحابها، بل كان يسمعها بواسطة، حيث يقول عن نفسه فيما ذكر عنه

(يوسابيوس): (وكلما أتى واحد ممن كان يتبع المشايخ سألته عن أقوالهم؛ لأنني لا أعتقد أن ما تحصل عليه من الكتب يفيد بقدر ما يصل من الصوت الحي).

فهو هنا لا يتحرى في النقل، ومما لاشك فيه أن أولئك الوسائط لابد أن تثبت عدالتهم، وإلا فلا يُعتد بما يروونه ويقولونه.

كما أن (يوسابيوس القيصري) قد طعن في بابياس نفسه حيث قال عن رواياته: (ويُدوِّنُ نفس الكاتب روايات أخرى يقول: إنها وصلته من التقليد غير المكتوب. وأمثالًا وتعاليم غريبة للمخلص وأمورًا خرافية...).

ثم قال عنه وعن آرائه: (وأظن أنه وصل إلى هذه الآراء بسبب إساءة فهمه للكتابات الرسولية، غير مدرك أن أقوالهم كانت مجازية؛ إذ يبدو أنه كان محدود الإدراك جدًّا كما يتبين من أبحاثه، وإليه يرجع السبب في أن كثيرين من آباء الكنيسة من بعده اعتنقوا نفس الآراء مستندين في ذلك على أقدمية الزمن الذي عاش فيه).

فهذه طريقة (بابياس) في النقل حيث ينقل عن كل من اتبع المشايخ بدون تَحَرٍّ لمقدرة التلميذ على الحفظ والضبط للروايات والعدالة وما إلى ذلك من شروط صحة الخبر، كما أن (بابياس) نفسه ضعيف التمييز بين الأقوال محدود الإدراك جدًّا.

فكيف تعتبر أقوال مَن هذه حاله في أخطر قضية، وهي الشهادة لكتاب بأنه كلام رب العالمين؟

كما أن في المقابل هناك عدة أدلة تدل على عدم صحة نسبة الإنجيل إلى (متى) الذي يزعمون أنه حواري وهي:

١ - أن النصارى لم ينقلوا الإنجيل بالسند، وقول (بابياس) السابق لم

يعين فيه من هو (متى)، هل هو الحواري أم رجل آخر؟ كما أنه لم يعين الكتاب بل قال: (الأقوال).

وأيضًا: فقد ذكر أمرًا آخر يختلف تمامًا عما عليه إنجيل متى الموجود، وهو أنه قال: إنه كتبه باللغة العبرانية. مع أن النصارى يُجمعون على أن الكتاب لم يعرفوه إلا باللغة اليونانية، ولا يعرفون للكتاب نسخة عبرانية، بل الكثير منهم يرى أن الكتاب يظهر من لغته أنه أول ما كُتب إنما كُتب باللغة اليونانية، وليس العبرانية.

فهذا يدل على أن قول (بابياس) لا ينطبق على إنجيل متى الموجود بين يدي النصارى.

كما أن هناك استفسارًا آخر في حالة أن يكون الإنجيل مترجمًا من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية، وهو: مَن هو مترجمه؟ وهذا أمر مهم؛ لأنه ما لم يُعلم دين المترجم، وصدقه، وضبطه، وقوة معرفته باللغتين - لا يمكن أن يُعتمد على ترجمته.

٢ - إن الدارسين لهذا الكتاب والباحثين من النصارى وغيرهم يرون أن كاتب هذا الإنجيل اعتمد كثيرًا على إنجيل مرقص، ومرقص في كلام النصارى تلميذ بطرس، فهل من المعقول أن يعتمد أحد كبار الحواريين في زعمهم على تلميذ من تلاميذهم في الأمور التي هم شاهَدوها وعاينوها وعايشوا أحداثها؟!

هذا يدل على أن كاتبه غير (متى) الذي يزعمون أنه حواري، وأن دعوى النصارى أن كاتب الإنجيل هو متى الحواري دعوى عارية عن الدليل، وهي من باب الظن والتخمين الذي لا يغني من الحق شيئًا.

ثانيًا: إنجيل مرقص:

هذا الإنجيل الثاني في ترتيب الأناجيل لدى النصارى، وهو أقصرها؛ إذ إنه يحوي ستة عشر إصحاحًا فقط.

أما كاتب الإنجيل فهو في زعم النصارى رجل من أتباع الحواريين، والمعلومات عنه قليلة جدًّا وغامضة، ولا تتضح شخصيته وضوحًا يُطمئن النفس؛ إذ إن كل ما ورد عنه الإشارة إلى أن اسمه يوحنا، ويلقب مرقص، وأنه صاحَبَ بولس وبرنابا في دعوتهما، ثم افترق عنهما، ثم ذكر بولس في رسائله اسم مرقص ذكرًا مقتضبًا لا يعطي غناء في التعريف به، وورد ذكر اسمه مع بطرس حيث يقول عنه: (تسلم عليكم التي في بابل المختارة معكم ومرقص ابني).

فهذه المعلومات يُفهم منها أن الرجل مجهول؛ إذ إنها لم تُعْطِ تعريفًا بدينه، وعلمه، وأمانته، ونحو ذلك مما يجب توافر معرفته فيمن يكون واسطة لكتاب مقدس.

أما الكتاب وهو الإنجيل: فأقدم المعلومات التي عزته إلى من يسمَّى مرقص ما نقله (يوسابيوس) في تاريخه الكنسي عن بابياس حيث قال:

(ولقد قال الشيخ أيضًا: إن مرقص الذي صار مفسرًا لبطرس قد كتب بكل دقة كل ما تذَكَّره من أقوال وأعمال الرب، ولكن ليس بالترتيب؛ لأنه لم يسمع الرب ولم يتبعه، ولكن كما قلت قبلًا عن بطرس الذي ذكر من تعاليم السيد ما يوافق حاجة السامعين، بدون أن يهدف إلى كتابة كل ما قاله الرب وعمله، وهكذا فصل مرقص أنه لم يعمل خطأً واحدًا في كل ما ذكره وكتبه...).

هذه أقدم شهادة لدى النصارى عن الكتاب والكاتب، فهي شهادة مطعون فيه، لمجهول الحال- وهو مرقص- عن أمر مجمل، حيث ذكر أنه كتب ما تذكر، ولم يفصل في المكتوب ما هو!!

فهل تكفي هذه الشهادة في إثبات صحة الكتاب؟!

لا شك أنها لا تكفي؛ فإن مثل هذه الأدلة والشواهد لو قُدِّمت لدى قاضٍ في قضية لم يقبلها ولم يحكم وَفقها.

ثالثًا: إنجيل لوقا:

هذا الإنجيل الثالث في ترتيب النصارى لكتابهم، ويحوي أربعة وعشرين إصحاحًا.

وكاتب الإنجيل في زعم النصارى هو أحد الوثنيين الذين آمنوا بالمسيح بعد رفعه، وكان رفيقًا لبولس (شاؤول اليهودي) حيث ذكره بولس في ثلاثة مواضع من رسائله، واصفًا إياه بأنه رفيقه.

ولا يوجد لدى النصارى معلومات عنه سوى أنه أممي رافق بولس في بعض تنقلاته، حيث ورد اسمه في تلك الرحلات. فهو بذلك يعتبر شخصية مجهولة وغير معروفة ولا متميزة بعدالة وديانة.

ومع هذا أيضًا لا يوجد لدى النصارى دليل يعتمد عليه في صحة نسبة الكتاب إليه.

ولندرة المعلومات التي توثق نسبة الكتاب إلى لوقا المذكور يستشهد النصارى بكلام مجهول، حيث يقول القس (فهيم عزيز) في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد) في استدلاله على صحة نسبة الكتاب إلى لوقا ما يلي:

(هناك مقدمة كُتبت لإنجيل لوقا فيما بين (١٦٠ - ١٨٠)، اسمها (ضد مارسيون) فيها يقول الكاتب عن لوقا: إنه من أنطاكية في سوريا، مهنته

طبيب، وكان أعزب بدون زوجة، مات وهو في سن (٨٤) في بواتييه ممتلئًا بروح القدس، وقد كتب إنجيله كله في المناطق التي تحيط بأخائيه؛ لكي يفسر للأمم القصة الصحيحة للعهد الجديد الإلهي...) ثم قال صاحب الكتاب معلقًا: (هذه مقتطقات عن هذه الشهادة التي لا يُعرف كاتبها، وقد قَبِلها كثير من العلماء؛ لأنهم لم يجدوا من أتباع مارسيون مَن يكذبها؛ مما يدل على أنها تقليد كنسي قوي).

بمثل هذه الشهادة المجهولة يُثبت النصارى صحة كتابهم إلى ذلك الرجل المجهول لوقا، وهي لا شك شهادة لا قيمة لها ولا تفيد شيئًا، ويدل استدلالهم بها على أنهم لا يملكون أدلة على صحة نسبة الكتاب إلى من يسمونه (لوقا).

وذلك يبين لنا أن النصارى حين زعموا أن إنجيل لوقا كتاب صحيح وصادق، فإن ذلك مجرد دعوى بدون بينة.

رابعًا: إنجيل يوحنا:

هذا الإنجيل الرابع في ترتيب العهد الجديد، وهو إنجيل متميز عن الأناجيل الثلاثة قبله؛ إذ تلك متشابهة إلى حد كبير، أما هذا فإنه يختلف عنها؛ لأنه ركَّز على قضية واحدة، وهي إبراز دعوى ألوهية المسيح وبنوته لله- تعالى الله عن قولهم - بنظرة فلسفية لا تخفى على الناظر في الكتاب؛ لهذا يُعتبر هو الكتاب الوحيد من بين الأناجيل الأربعة الذي صرَّح بهذا الأمر تصريحًا واضحًا.

وإذا بحثنا في صحة نسبة الكتاب إلى يوحنا الذي يزعم النصارى أن الكتاب من تصنيفه، نجده أقل كتبهم نصيبًا من الصحة؛ لعدة أدلة أبرزها منكرو نسبة الكتاب إلى يوحنا الحواري وهي:

١ - أن بوليكاربوس الذي يقال: إنه كان تلميذًا ليوحنا - لم يشر إلى هذا

الإنجيل عن شيخه يوحنا، مما يدل على أنه لا يعرفه، وأن نسبته إلى شيخه غير صحيحة.

٢ - أن الكتاب مملوء بالمصطلحات الفلسفية اليونانية التي تدل على أن لكاتبه إلمامًا بالفلسفة اليونانية.

أما يوحنا فكما يذكر النصارى فقد كان يمتهن الصيد، مما يدل على أنه بعيد عن الفلسفة ومصطلحاتها.

٣ - أن النصارى الأوائل لم ينسبوا هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري المزعوم، وأن (يوسابيوس) الذي كان يسأل (بابياس) عن هذه الأمور يقول: (الواضح أن بابياس يذكر اثنين اسمهما يوحنا: الأول: الرسول وقد مات، والثاني: الشيخ وهو حيٌّ. ويلوح أنه هو الذي كتب الإنجيل). فلهذا يقول القس (فهيم عزيز) بناء على ذلك: (إن الكنيسة كانت بطيئة في قَبولها لهذا الإنجيل).

وبناءً على ذلك فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ظهر الاعتراض على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا بشكل واسع، ووصفته (دائرة المعارف الفرنسية) بأنه إنجيل مزور، وهذه الدائرة اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى، ونص كلامهم:

(أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المُزوِّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصًّا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينًا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين مَن نُسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهودهم

ليربطوا- ولو بأوهى رابطة- ذلك الرجل الفلسفي الذي ألَّف هذا الكتاب في الجيل الثاني - بالحواري يوحنا الصياد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع عليهم سُدى لخبطهم على غير هدى).

نقول مع هذه الاعتراضات، ومع عدم وجود أدلة تثبت صحة نسبته إلى يوحنا الحواري المزعوم، فلا يجوز لعاقل أن يدعي صحة نسبته إلى يوحنا، فضلًا عن أن يزعم أنه كتاب مقدس موحى به من الله، فهذا فيه افتراء عظيم على الله ﷻ، وإضلال لعباد الله بالباطل.

بعد هذا كله يتضح للناظر اللبيب أن النصارى- وكذلك اليهود من قبلهم- لا يملكون مستندًا صحيحًا لكتبهم يُثبت صحة نسبتها إلى من ينسبونها إليه.

وإن من المعلوم أن أي إنسان أراد أن يقاضي إنسانًا آخر لدى محكمة، فلا يمكن أن تنظر المحكمة في دعواه ما لم يقدم من الإثباتات الصحيحة ما يصح اعتباره دليلًا، والنصارى لم يقدِّموا لأنفسهم ولا لأهل ملتهم من المستندات والأدلة شيئًا يُثبتون به صحة كتبهم، بل لا يعرفون طريقًا إلى شيء من المستندات الصحيحة.

يقول الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه العظيم «إظهار الحق»: (ولذلك طلبنا مرارًا من علمائهم الفحول السند المتصل، فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على النصارى إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة).

وفي هذا كفاية ودلالة على أن تلك الكتب التي تسمى الأناجيل كتب لا يملك أصحابها أي مستند يمكن الاعتماد عليه في صحة نسبتها إلى من ينسبونها إليه، فضلًا عن أن يصحَّ نسبتها إلى المسيح عليه السلام أو إلى

الله ﷻ[١].

خامسًا: إنجيل برنابا:

إنجيل برنابا لا يعتبر من الأناجيل القانونية لدى النصارى، ولا يعترفون به.

ولأهمية ما يحتويه من معلومات، ولما بينه وبين الأناجيل الأربعة من تشابه في التعريف بالمسيح عليه السلام ودعوته، نُعرِّف به هنا في نقاط مختصرة.

أ- التعريف بـ(برنابا):

برنابا: اسمه (يوسف) ويلقب ابن الوعظ، وهو لاوي، قبرصي الجنسية، وهو خال (مرقس) صاحب الإنجيل فيما يقال، وكان من دعاة النصرانية الأوائل، ويظهر من إنجيله أن له مكانة لدى المسيح عليه السلام، والنصارى يرون أنه من الدعاة الذين لهم أثر ونشاط ظاهر، وكان من أعماله البارزه أنه باع حقله وأتى بقيمته من النقود ووضعها تحت تصرف الدعاة، وحين ادَّعى بولس (شاؤول اليهودي) الدخول في دين المسيح عليه السلام خاف منه الحواريون لما يعلمون من سابق عداوته، فشفع له برنابا عندهم فقبلوه ضمن جماعتهم، ثم اختلف معه بعد فترة من العمل في الدعوة سويًّا وانفصلا.

ب- التعريف بإنجيله:

أقدم خبر عن إنجيل برنابا كان قريبًا من عام (٤٩٢م)، وذلك حين أصدر البابا (جلاسيوس) الأول أمرًا يُحرم فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمَّى (إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي ﷺ.

---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص: ٢١٧).

ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر أحد الرهبان اللاتينيين وهو (فرامرينو) على رسائل لـ(إريانوس) يندد فيها ببولس، وأسند (إريانوس) تنديده هذا إلى إنجيل برنابا. فحرص هذا الراهب على الاطِّلاع على هذا الإنجيل. واتفق أنه أصبح مقربًا للبابا (سكتس) الخامس، ودخل معه يومًا إلى مكتبته فأخذت البابا غفوة نام فيها، فأخذ (فرامرينو) يطالع في مكتبته رغبة في قطع الوقت، فوقعت يده على هذا الكتاب فوضعه في ثوبه وأخفاه، ثم استأذن بعد أن أفاق البابا، وخرج فطالع الكتاب بشغف شديد، ثم أسلم على أثر ذلك.

بيَّن هذه المعلومات المستشرق سايل في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم.

ثم في أوائل القرن الثامن عشر عام (١٧٠٩م) عثر (كريمر) أحد مستشاري ملك بروسيا على نسخة لإنجيل برنابا باللغة الايطالية، عند أحد وجهاء مدينة أمستردام- حيث كان يقيم وقتئذٍ - وأهداها (كريمر) إلى الأمير (إيوجين سافوي) لولعه بالعلوم والآثار التاريخية، ثم انتقلت تلك النسخة فيما بعد - وذلك عام (١٧٣٨م) - مع جميع مكتبة ذلك الأمير إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا، حيث هي موجودة الآن، ثم ترجمت إلى الإنجليزية، وعنها إلى العربية من قِبل الدكتور خليل سعادة، وهو لبناني نصراني.

وكان يوجد لهذا الكتاب نسخة أخرى بالأسبانية، يُظن أنها منقولة عن الإيطالية، عُثِرَ عليها في أوائل القرن الثامن عشر أيضًا، وكانت عند رجل يدعى الدكتور (هلم) أهداها إلى المستشرق (سايل)، ثم دفعها هذا بدوره إلى الدكتور (منكهوس) الذي ترجمها إلى الإنجليزية، ودفعها مع ترجمتها عام (١٧٨٤م) إلى الدكتور (هويت) أحد مشاهير الأساتذة في إكسفورد

ببريطانيا، وعنده اختفت تلك النسخة مع ترجمتها. وقد أورد الدكتور (هويت) مقتطفات عديدة منها في دروسه، وقد اطَّلع على تلك المقتطفات خليل سعادة، مترجم كتاب إنجيل برنابا إلى العربية.

وحين ظهر هذا الإنجيل أحدث دويًّا في الأوساط النصرانية لما فيه من المعلومات المضادة لعقائدهم، فحاولوا دفعه بوسائل كثيرة، ومما زعموه: أنه تأليفُ عربيٍّ مسلم، أو يهودي أندلسي تنصر ثم أسلم- وهذا في الواقع من التخرصات.

ويدل على بطلان تلك الدعاوى أمور، منها:

١ - لماذا يؤلف رجل أسلم كتابًا للنصارى ويفتري الكذب وهو قد دخل في الإسلام؟

٢ - أن في الكتاب معلومات غير موجودة في كتب اليهود والنصارى الآن.

٣ - أن مترجم الكتاب إلى العربية - وهو خليل سعادة النصراني - قد وصف صاحب الإنجيل بأنه على إلمام واسع جدًّا بالعهد القديم والنصرانية أكثر ممن نذروا أنفسهم للدين النصراني وتفسيره وتعليمه، حتى إنه لينذر أن يكون فيهم من يقرب من إلمام صاحب هذا الإنجيل، فكيف يكون مسلمًا وله هذا الإلمام الواسع؟!

٤ - إن مما يدفع أن يكون صاحبه مسلمًا أن فيه أخطاء لا يمكن أن تقع من المسلم لبداهتها، ومنها قوله: إن السماوات عشرة. وخلطه بين اسم ميخائيل وميكائيل، ويقول: أدريل بدل إسرافيل.

وعلى كل حال فهذا كتاب ظهر في بلاد نصرانية، وبخط ولغة نصرانية، ولم يرد عن أحد المسلمين أنه اطَّلع على الكتاب مع سعة اطلاع علماء المسلمين، وحرصهم على الرد على النصارى، وهو لا شك مما يظهره

الله ﷻ دليلًا للحق ودحرًا للباطل وردًّا له.

ج- أهم مبادئ إنجيل برنابا التي يختلف بها عن الأناجيل الأربعة:

إن الذي جعل النصارى يحملون على هذا الإنجيل حملتهم، ويتنصلون منه - هو مخالفته لأناجيلهم المعتمدة وعقيدتهم في أخطر وأهم نقاطها، وهي:

أولًا: أنه صرح أن المسيح عليه السلام إنسان، وليس إلهًا ولا ابن إله، وبيَّن أن سبب تأليف إنجيله هو رد هذه الفرية التي أطلقها بولس مع غيرها من الافتراءات؛ كترك الختان وإباحة أكل اللحوم النجسة.

وفي هذا يقول في أول إنجيله: أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة، للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائمًا، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضلَّ في عدادهم أيضًا بولس، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أُسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله.

ثانيًا: أنه نقل عن المسيح التصريح بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق كما يزعم اليهود.

وفي هذا يقول: (أجاب يعقوب: يا معلم، قل لنا مَن صنع هذا العهد، فإن اليهود يقولون بإسحاق، والإسماعيليون يقولون بإسماعيل؟ أجاب يسوع: صَدِّقوني؛ لأني أقول لكم الحق، إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق.

حينئذ قال التلاميذ: يا معلم، هكذا كُتب في كتاب موسى أن العهد صنع بإسحاق.

أجاب يسوع متأوهًا: هذا هو المكتوب، ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله.

الحق أقول لكم: إنكم إذا أعملتم النظر في كلام المَلَاك جبريل تعلمون حديث كتبتنا وفقهائنا؛ لأن المَلَاك قال: يا إبراهيم، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله حقًّا، يجب عليك أن تفعل شيئًا لأجل محبة الله. أجاب إبراهيم: ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله. فكلَّم الله حينئذٍ إبراهيم قائلًا: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة.

فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟

فقال حينئذٍ التلاميذ: إن خداع الفقهاء لجلي؛ لذلك قل لنا أنت الحق؛ لأننا نعلم أنك مرسل من الله).

وذكر برنابا أيضًا أن المسيح خاطب رئيس كهنة اليهود قائلًا له: (إن إبراهيم أحب الله حيث إنه لم يكتفِ بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيمًا ولا بهجر أبيه وأمه، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه طاعة لله.

أجاب رئيس الكهنة: إنما أسألك هذا ولا أطلب قتلك، فقل لنا: من كان ابن إبراهيم هذا؟

أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت. الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض.

فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم هذا الفاجر؛ لأنه

إسماعيلي، وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله).

ثالثًا: أنه نقل عن المسيح التصريح بالبشارة بالنبي محمد ﷺ باسمه، وذلك في مواطن عدة من كتابه.

منها: أن اليهود سألوا المسيح عليه السلام عن اسم النبي المنتظر فقال: فقال الكاهن حينئذٍ: ماذا يسمى مسيا، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟

فأجاب يسوع: إن اسمه المبارك (محمد).

حينئذٍ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: يا الله، أرسِلْ لنا رسولك، يا محمد، تَعَالَ سريعًا لخلاص العالم!!

وأورد أيضًا برنابا حوارًا تمَّ بينه وبين المسيح عليه السلام بعد أن رُفع إلى السماء، ثم عاد مرة أخرى ليطمئن أمه وحوارييه بأنه لم يمت، ثم ارتفع مرة أخرى إلى السماء، وهذا نصه:

(فقال حينئذٍ الذي يكتب: يا معلم، إذا كان الله رحيمًا فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتًا، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله؟!

أجاب يسوع: صَدِّقني يا برنابا إن الله يعاقب على كل خطيئة- مهما كانت طفيفة- عقابًا عظيمًا؛ لأن الله يغضب من الخطيئة؛ فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلًا حبًّا عالميًّا، أراد الله البَر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم، فلماذا كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني كنت بريئًا في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب؛ لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة،

وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله).

رابعًا: أن برنابا صَرَّح أن المسيح لم يُصلب، وإنما رُفع إلى السماء، وأن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي، وهو الذي وشى بالمسيح لدى اليهود، حيث أُلْقِي عليه شبه المسيح، فقُبض عليه وصُلب بدلًا عن المسيح عليه السلام.

وهذا نص كلامه: (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جم غفير؛ فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبِّح الله إلى الأبد.

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نيامًا.

فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغيَّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهًا بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم؛ لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيد هو معلمنا أنسِيتَنا الآن؟!

أما هو فقال متبسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الإسخريوطي؟!

وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا؛ لأنه كان شبيهًا بيسوع من كل وجه).

وبعد أن ذكر محاكمة يهوذا وجَلْده من قِبل اليهود والوالي الروماني وهم يظنون أنه يسوع، قال: (وأُسْلِمَ يهوذا للكتبة والفريسيين كأنه مجرم يستحق

الموت، وحكموا عليه بالصلب وعلى لصين معه.

فقادوه إلى جبل الجمجمة حيث اعتادوا شنق المجرمين، وهناك صلبوه عريانًا مبالغة في تحقيره).

هذه أهم مبادئ هذا الكتاب الذي أحدث بمبادئه وقت ظهوره دويًّا لدى النصارى.

أما نحن المسلمين فلا يقدم عندنا هذا الكتاب ولا يؤخر، فنحن مطمئنون لكتاب ربنا الذي بين أيدينا، نعرف به الحق، وعلى ضوئه نقيس الحق.

وهذا كتاب لا سند له ولا تاريخ، ثم هو من تأليف رجل ليس بمعصوم فقد يخطئ، ويضل، وينسى، وهذه لا تجعل لكتابه قيمة دينية عقائدية، وإنما تجعل له قيمة تاريخية وأدبية، والله أعلم[1].



---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص: ٢٤١). وانظر «الموسوعة العقدية» (٣/ ٤٣٤).

تحريف الإنجيل

إن الكتب المقدسة كتب معصومة عن الخطأ، محفوظة من الخلل والزلل؛ لأن المفترض فيها أن تكون من قِبل رب العالمين الذي يعلم السرَّ وأخفى، وهو الحق لا يصدر منه إلا الحق جلَّ وعلا.

والنصارى يُسندون كتبهم إلى الله ﷻ عن طريق الإلهام إلى كتابها.

والدارس لهذه الكتب يستطيع أن يتبين صدق هذه الدعوى من كذبها؛ إذ إن الحقَّ لا خفاء فيه. وقد سبق ذكر نبذة عن هذه الكتب من ناحية السند، حيث تبين أن النصارى لا يوجد عندهم دليل يُثبت صحة نسبة كتبهم إلى أولئك الناس الذين نُسبت إليهم، فعليه لا يمكن اعتبارها كتبًا صحيحة، ولا يجوز لعاقل أن ينسبها إلى أولئك الرجال، فضلًا عن أن ينسبها إلى الله ﷻ.

ومما يؤكد عدم صحتها الاختلافات الكثيرة بينها، وكذلك الأغلاط العديدة فيها، وسنضرب لذلك أمثلة:

أولا: الاختلافات:

إذا قارنا بين الأناجيل الأربعة نجد بينها اختلافات جوهرية تدل على خطأ كُتَّابها، وأنهم غير معصومين ولا ملهمين، وأن الله ﷻ بريء منها، ورسوله عيسى عليه السلام. **ومن الأمثلة على ذلك:**

١ - نسب المسيح عليه السلام، إن مما يدهش له الإنسان أشدَّ الدهش أن النصارى لم يستطيعوا أن يضبطوا نسب المسيح عليه السلام، ولم يتفقوا عليه، فأعطاه كلٌّ من صاحب إنجيل متى وصاحب إنجيل لوقا نسبًا مختلفًا عن الآخر!!

وإليك جدولاً بذلك يوضح الفرق بينهما:

إنجيل متى	إنجيل متى	إنجيل لوقا	إنجيل لوقا	إنجيل لوقا	إنجيل لوقا
المسيح ابن	١٤- يوشيا	المسيح ابن	١٤ متاليا	٢٨-يوسي	٤٢-داود
١-يوسف	١٥-آمون	١- يوسف	١٥-شمعي	٣٩-اليعازر	
٢- يعقوب	١٦- منسي	٢-هالي	١٦-يوسف	٣٠-يوريم	
٣-متان	١٧-حزقيا	٣- متاثيا	١٧-يهوذا	٣١-متثات	
٤-اليغارز	١٨- أحاز	٤-لاوى	١٨-يوحنا	٣٢-لاوي	
٥-أليود	١٩- يوثام	٥- ملكى	١٩-ريسا	٣٣-شمعون	
٦-أخيم	٢٠- عزيا	٦-ينا	٢٠- زربايل	٣٤-يهوذا	
٧-صادوق	٢١- يورام	٧- يوسف	٢١-شألتئيل	٣٥-يوسف	
٨-عازور	٢٢- يهوشافاط	٨- متاثيا	٢٢-نيري	٣٦-يونان	
٩-الياقيم	٢٣- أسا	٩- عاموص	٢٣-ملكي	٣٧-الياقيم	
١٠-ابيهود	٢٤- أبيا	١٠- ناحوم	٢٤-أدي	٣٨-مليا	
١١- زربايل	٢٥- رحبعام	١١- حسلى	٢٥-قصم	٣٩-مينان	
١٢-شألتئيل	٢٦-سليمان	١٢-نجاي	٢٦-الموادم	٤٠- متاثا	
١٣-يكنيا	٢٧-داود	١٣-مآث	٢٧-عير	٤١-ناثان	

ففي هذا النسب فوارق وأغلاط عدة هي:

١ - أن متى نسب المسيح إلى يوسف بن يعقوب، وجعله في النهاية من نسل سليمان بن داود عليه السلام.

أما لوقا فنسبه إلى يوسف بن هالي، وجعله في النهاية من نسل ناثان بن

داود عليه السلام.

٢ - أن متى جعل آباء المسيح إلى داود عليه السلام سبعة وعشرين أبًا.

أما لوقا فجعلهم اثنين وأربعين أبًا.

وهذا فرق كبير بينهما يدل على خطئهما أو خطأ أحدهما قطعًا.

والنصارى يدَّعون أن أحد الإنجيلين كُتب فيه نسب مريم، والآخر كُتب فيه نسب يوسف.

وهذا كلام باطل؛ إذ إن صاحب إنجيل متى (١/ ١٦) يقول: (يعقوب ولد يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يدعى المسيح). أما إنجيل لوقا (٣/ ٢٣) فيقول: (ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي). فكلاهما صرح بنسب يوسف.

أما الأغلاط في هذا النسب فعديدة، منها:

١ - أن نسبة المسيح عليه السلام إلى يوسف خطيب مريم في زعمهم - خطأ فاحش، وفيه تصديق لطعن اليهود في مريم أم المسيح عليه السلام.

وكان الواجب على النصارى أن ينسبوه إلى أمه مريم لا إلى رجل أجنبي عنه، خاصة وأن ولادته منها كانت معجزة عظيمة وآية باهرة، فنسبته إليها فيه إظهار لهذه المعجزة، وتأكيد لها وإعلان، أما نسبته إلى رجل وليس هو أبوه ففيه إخفاء لهذه المعجزة واستحياء.

والله ﷻ في القرآن الكريم صرَّح في مواطن عدة بنسبته إلى مريم ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢، ٧٥]. ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، [النساء: ١٥٧، ١٧١].

٢ - أن صاحب إنجيل متَّى أسقط أربعة آباء من سلسلة النسب: ثلاثة منهم على التوالي بين (عزيا ويورام).

حيث النسب كما هو في أخبار الأيام الأول (٣/ ١١ - ١٣) (عزريا بن أمصيا بن يواش بن أخزيا بن يورام)، كما أسقط واحدًا بين (يكنيا ويوشيا) وهو (يهوياقيم).

وسبب إسقاط اسم يهوياقيم بين يوشيا ويكنيا هو أن (يهوياقيم) هذا مَلَكَ دولة يهوذا بعد أبيه، إلا أنه كان عابدًا للأوثان، فكتب له (إرميا) يحذره من قبيح صنعه، ويبين له مغبة أفعاله، فأحرق (يهوياقيم) الكتاب ولم يرجع عن غيه، فقال عنه إرميا حسب كلامهم: (لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم مَلِكِ يهوذا: لا يكون له جالس على كرسي داود، وتكون جثته مطروحة للحر نهارًا وللبرد ليلًا) سفر إرميا (٣٦/ ٣٠).

ومعنى هذا الكلام أنه لا يكون من نسله ملك، فأسقطه (متى) لهذا السبب.

وعلل صاحب تفسير العهد الجديد ذلك التصرف بأن (متى) أراد أن يجعل كل مجموعة من النسب تحوي أربعة عشر اسمًا.

ونقول: إذا كانت هذه العلة التي لا معنى لها من أجلها حذف أربعة آباء من نسب المسيح، فذلك يعني أن الكاتب قد كتبه لخدمة أهداف في نفسه، وأنه لا يكتب ما علم وسمع مجردًا من الهوى والآراء الخاصة.

ومن هنا يمكن أن ندرك كيفية تعامل النصارى الأوائل مع المعلومات الواردة إليهم، وأنهم يصوغونها وَفق ما يرون ويعتقدون، لا وَفق الحق مجردًا عن الهوى والآراء الخاصة.

ولنا أن نبحث هنا عن السبب في هذا الخطأ الفاحش والاختلاف في نسب المسيح عليه السلام، **فنقول:** إن سبب خطأ النصارى في نسب المسيح عليه السلام أنهم نسبوه إلى رجل مغمور غير مشهور هو «يوسف النجار» خطيب مريم في

زعمهم؛ فلهذا أخطؤوا في نسبه، فأعطاه (متَّى) نسبًا ملوكيًّا، وأعطاه (لوقا) نسبًا آخر غير معروف ولا معلوم.

ولكن لماذا أعرض كُتَّاب النصارى عن مريم، ولم يعطوه نسبها، فيجعلونه كما هو الحق عيسى بن مريم بنت عمران؟!

السبب في هذا ظاهر، وهو: أن مريم بنت عمران امرأة عابدة مشهورة، تربَّت في بيت النبي زكريَّا عليه السلام، الذي كان من نسل هارون عليه السلام حيث كان كاهن بيت المقدس والمسؤول عن البخور عندهم هو زوج «أليصابات» خالة مريم، وهي من نسل هارون عليه السلام أيضًا، فتكون مريم من السبط نفسه، وهو سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، وذلك أن تشريع اليهود يأمرهم أن تتزوج المرأة من سبطها، ولا تتزوج من سبط آخر حتى تستمر الأموال في نفس السبط، ولا تنتقل إلى أسباط أخرى بواسطة الميراث؛ فلهذا تكون مريم من سبط زكريا عليه السلام وزوجته، وكذلك خطيبها المزعوم إن صحَّ كلامهم في ذلك يكون من السبط نفسه، وهو سبط لاوي الذي منه هارون عليه السلام.

ومما يدل على أن مريم من سبط هارون قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨].

قال السدي: قيل لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي: أخي موسى؛ لأنها من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم. وللمُضَري: يا أخا مضر.

وهذا الأمر فيما يبدو علمه كُتَّاب الأناجيل فأزعجهم إزعاجًا شديدًا؛ لأنهم يظنون أن المسيح لابد أن يكون من نسل داود عليه السلام فأعطوه ذلك النسب المخترع إلى داود عليه السلام، وذلك حتى ينطبق عليه ما يزعمه اليهود، وهو أن المسيح لابد أن يكون من نسل داود عليه السلام حتى يكون مسيحًا. والله أعلم.

٣ - ذَكَر إنجيل متَّى (١١/ ١٣) من كلام المسيح عن يوحنا المعمدان

(يحيى عليه السلام) قوله: (لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا إيليا المزمع أن يأتي من له أذنان للسمع فليسمع).

وورد في إنجيل متَّى أيضًا (١٧/ ١) أنهم سألوا المسيح عليه السلام فقال: (وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة: إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا؟

فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولًا ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم: إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضًا سوف يتألم منهم، حينئذٍ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان). فالمسيح هنا يبين أن يحيى عليه السلام هو إيليا.

ويخالف هذا قول يوحنا في إنجيله (١/ ١٩) حين جاء اليهود يسألون يحيى عن نفسه حيث قال: (أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت، فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح، فسألوه من أنت، إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب لا. فقالوا له: من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية قَوِّمُوا طريق الرب كما قال إشعيا النبي). فهنا أنكر يحيى عليه السلام أن يكون هو إيليا، وهذا تناقض واضح.

٤ - أن متى ذكر في إنجيله (٢٠/ ٢٩ - ٣٤) أن عيسى عليه السلام لما خرج من أريحا قابله أعميان فطلبا منه أن يشفيهما من العمى فلمس عيونهما فشفيا.

وقد ذكر هذه القصة مرقص في (١٠/ ٤٦ - ٥٢) وبَيَّن أن بارينماوس الأعمى ابن نيماوس هو الذي طلب ذلك فقط.

٥ - أن مرقص ذكر في (٦/ ٨) أن عيسى عليه السلام أوصى حوارييه حين أرسلهم للدعوة في القرى بأن لا يحملوا شيئًا للطريق غير عصا فقط لا مزودًا، ولا خبزًا، ولا نُحاسًا.

وذكر ذلك لوقا في (٩/ ٣) إلا أنه قال: إن عيسى ﷺ أوصاهم وقال لهم: (لا تحملوا شيئًا للطريق لا عصا ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضة).

ففي الأول أجاز لهم حمل العصا، وفي الثاني نهاهم عن حمل العصا أيضًا.

٦ - أن إنجيل متى ذكر فيه في (١٥/ ٢١) أن المرأة التي طلبت من المسيح شفاء ابنتها كانت كنعانية.

وذكر القصة مرقص في إنجيله (٧/ ٢٤) ونص عبارته عن جنس المرأة: (وكانت المرأة أممية وفي جنسها فينيقية سورية).

٧ - أن إنجيل متى ذكر أسماء تلاميذ عيسى الاثني عشر فقال (١٠/ ٢): (وأما أسماء الاثني عشر رسولًا فهي هذه: الأول سمعان الذي يقال له: بطرس، وإندراوس أخوه، يعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه، فيلبس، وبرثولماوس، توما، ومتى العشار، يعقوب بن حلفى، ولباوس الملقب تداوس، سمعان القانوني، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه).

وذكر مرقص في (٣/ ١٦) الأسماء فوافق فيها متى.

وخالفهما لوقا حيث حذف من قائمة متى (لباوس الملقب تداوس) ووضع بدلًا عنه (يهوذا أخا يعقوب).

٨ - اختلافهم في الذين حضروا لمشاهدة قبر المسيح بعد دفنه المزعوم ووقت ذلك:

حيث يقول متى (٢٨/ ١): (وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم أخرى لتنظرا القبر).

وفي إنجيل مرقص (١٦/ ١) يقول: (وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه، وباكرًا جدًّا في

أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس).

وفي إنجيل لوقا (٢٤/ ١) يقول: (ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهن أناس).

وفي إنجيل يوحنا (٢٠/ ١) يقول: (وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظلام باقٍ، فنظرت الحجر مرفوعًا عن القبر).

فهذه الاختلافات وغيرها كثير - ذكرها علماء الإسلام وغيرهم - تدل دلالة واضحة على أن في الكتاب صنعة بشرية، وتحريفًا وتبديلًا.

ثانيًا: الأغلاط في الأناجيل:

كما بين الأناجيل اختلافات يوجد بها أغلاط وأخطاء كثيرة أيضًا، نذكر منها:

١ - قال متَّى في إنجيله (١/ ٣) مستدلًّا للمسيح وولادته من مريم بنبوءة سابقة جاءت على لسان إشعيا: (وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعون اسمه (عمانوئيل) الذي تفسيره: الله معنا).

وهذا غلط؛ لأن هذا اللفظ الذي ورد على لسان إشعياء لا ينطبق على المسيح، فإن له قصة تدل على المراد به، وهي: أن (رصين) ملك أرام، (وفقح بن رمليا) ملك إسرائيل - اتفقا على محاربة (آحاز بن يوثان) ملك يهوذا، فخاف منهما (آحاز) خوفًا شديدًا، فأوحى الله إلى النبي إشعياء أن يقول لآحاز بأن لا يخاف؛ لأنهما لا يستطيعان أن يفعلا به ما أرادا وأن مُلكهما سيزول أيضًا، وبَيَّن له إشعياء آية لخراب ملكهما وزواله، أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنًا يسمى (عما نوئيل)، فتصبح أرض هذين الملكين خرابًا قبل أن يميز ذلك الابن بين الخير والشر، ونص كلامه: (ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه (عمانوئيل) زبدًا وعسلًا يأكل، متى عرف أن يرفض

الشر ويختار الخير؛ لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير تخلى الأرض التي أنت خاشٍ من ملكيها) سفر إشعياء (٧/ ١٤).

وقد وقع ذلك فقد استولى (تغلث فلاسر) الثاني ملك آشور على بلاد سوريا، وقتل (رصين) ملكها، أما (فقح) فقتله في نفس السنة أحد أقربائه وتولَّى المُلك مكانه، كل ذلك حدث بعد هذه المقولة بما يقارب إحدى وعشرين سنة، أي: قبل ميلاد المسيح بما يقارب سبعة قرون.

٢ - قال متى في إنجيله (٢٧/ ٥١) بعد الصلب المزعوم للمسيح وإسلامه الروح: (وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تفتقت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين).

فهذه الحكاية التي ذكرها متَّى لم يذكرها غيره من كتَّاب الأناجيل، مما يدل على أن كلامه لا حقيقة له؛ لأنها آية عظيمة تتوافر الهمم على نقلها.

٣ - أنه ورد في إنجيل متَّى (١٢/ ٤٠) وكذلك في (١٦/ ٤) أن المسيح قال: إنه لن يعطي لليهود آية إلا آية يونان (يونس عليه السلام).

ونصه: (لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ).

وهذا غلط؛ لأن المسيح عليه السلام في زعمهم صُلِب ضحى يوم الجمعة، ومات بعد ست ساعات، أي: وقت العصر، ودُفن قبيل غروب الشمس، وبقى في قبره تلك الليلة، ونهار السبت من الغد، وليلة الأحد، وفي صباح الأحد جاؤوا ولم يجدوه في قبره؛ مما يدل على أنه مكث في زعمهم ليلتين ويومًا واحدًا فقط، فيكون كلام متَّى السابق غلطًا واضحًا.

٤ - أن متَّى ذكر في مواضع من كتابه أن القيامة ستقوم على ذلك الجيل، ومن ذلك قوله في (١٦/ ٢٧) على لسان المسيح: (فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذٍ يجازي كل واحد حسب عمله، الحق أقول لكم: إن من القيام هاهنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته).

كما ورد في الإنجيل نفسه (٣/ ٢٣) قولهم على لسان المسيح: (فإن الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان).

فهذه النصوص تؤكد القيامة قبل موت الكثيرين من ذلك الجيل، وقبل أن يكمل الحواريون الدعوة في جميع مدن بني إسرائيل، وهذا أمر لم يتحقق، وله الآن ألفا سنة إلا قليلًا، مما يدل على أنه غلط فاحش.

٥ - جاء في إنجيل لوقا (١/ ٣٠) في البشارة بالمسيح قوله: (ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية).

وهذا خطأ بيِّن؛ لأن المسيح عليه السلام لم يكن ملكًا لليهود، ولا ملكًا على آل يعقوب، بل كان أكثرهم معادين له إلى أن رُفع إلى السماء بسبب محاولتهم قتله.

٦ - ورد في إنجيل مرقس (١١/ ٢٣): (فأجاب يسوع وقال لهم: ليكن لكم إيمان بالله؛ لأن الحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل: انتقل وانطرح في البحر. ولا يشك في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له؛ لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم).

وورد أيضًا في إنجيل مرقس (١٦/ ١٧): (وهذه الآيات تتبع المؤمنين،

يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون).

وفي إنجيل يوحنا (١٤/ ١٢): (الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها؛ لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله).

فهذه النصوص الثلاثة لا شك في أنها خطأ، فلا يستطيع النصارى أن يَدَّعوا ذلك لأنفسهم.

كما أن عبارة إنجيل يوحنا فيها مغالاة شديدة، حيث زعم أن من آمن بالمسيح يعمل أعظم من أعمال المسيح نفسه، وهذا من الترهات الفارغة.

وبمجموع ما ذُكر عن الأناجيل من ناحية تاريخها ومتنها، يتبين لنا أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون هي الكتاب الذي أنزل الله ﷻ على عبده ورسوله المسيح عليه السلام، وأحسن أحوالها أن تكون متضمنة لبعض ما أنزل الله ﷻ على عيسى عليه السلام[1].



---

(١) «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية» لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص: ٢٢٧). وانظر «الموسوعة العقدية» (٣/ ٤٤٢).



القرآن

المقدمة.

الفصل الأول: تعريف القرآن الكريم، وفضله، وأسماؤه، وصفاته، وعظمته.

الفصل الثاني: مقاصد القرآن الكريم.

الفصل الثالث: خصائص القرآن الكريم.

الفصل الرابع: منزلة القرآن الكريم من الكتب المتقدمة.

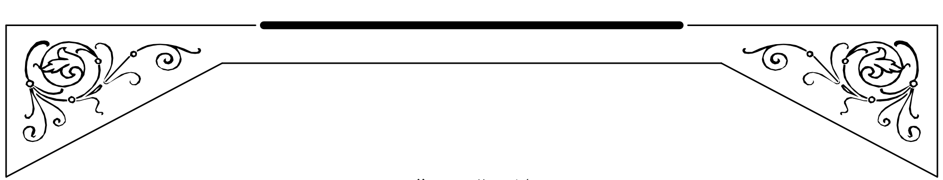
الفصل الخامس: حفظ القرآن الكريم وسلامته من التحريف.

الفصل السادس: عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

الفصل السابع: المخالفون في القرآن الكريم.







المقدمة

أَحَقُّ مَا أَسْتَفْتِحُ بِهِ الْكَلامَ الْحَمْدُ لِمَوْلانَا الْكَرِيمِ، وَأَفْضَلُ الْحَمْدِ مَا حَمِدَ بِهِ الْكَرِيمُ نَفْسَهُ، فَنَحْنُ نَحْمَدُهُ بِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١- ٣]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ١، ٢].

أَحْمَدُهُ عَلَى قَدِيمِ إِحْسَانِهِ، وَتَوَاتُرِ نِعَمِهِ، حَمْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَوْلاهُ الْكَرِيمَ عَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُهُ عَلَيْهِ عَظِيمًا. وَأَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ، وَالشُّكْرَ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، إِنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، وَنَبِيِّهِ، وَأَمِينِهِ عَلَى وَحْيِهِ وَعِبَادِهِ، صَلاةً تَكُونُ لَهُ رِضًا، وَلَنَا بِهَا مَغْفِرَةً، وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّم كَثِيرًا طَيِّبًا.

أَمَّا بَعْدُ... فَإِنِّي قَائِلٌ، وَبِاللهِ أَثِقُ لِلتَّوْفِيقِ وَالصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ:

أَنْزَلَ اللهُ ﷻ الْقُرْآنَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، وَأَعْلَمَهُ فَضْلَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمَ خَلْقَهُ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - أَنَّ الْقُرْآنَ عِصْمَةٌ لِمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ، وَحِرْزٌ مِنَ النَّارِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وَنُورٌ لِمَنِ اسْتَنَارَ بِهِ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدىً وَرَحمَةٌ لِلمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ خَلْقَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ: فَيُحِلُّوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَيُؤْمِنُوا بِمُتَشَابَهِهِ، وَيَعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَيَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٣].

ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَالدُّخُولَ إِلَى الْجَنَّةِ.

ثُمَّ نَدَبَ خَلْقَهُ ﷻ إِذَا هُمْ تَلَوْا كِتَابَهُ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ، وَيَتَفَكَّرُوا فِيهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَإِذَا سَمِعُوهُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحْسَنُوا اسْتِمَاعَهُ.

ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَلَهُ الْحَمْدُ.

ثُمَّ أَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنْ مَنْ تَلَا الْقُرْآنَ، وَأَرَادَ بِهِ مُتَاجَرَةَ مَوْلَاهُ الْكَرِيمَ، فَإِنَّهُ يُرْبِحُهُ الرِّبْحَ الَّذِي لا بَعْدَهُ رِبْحٌ، وَيُعَرِّفُهُ بَرَكَةَ الْمُتَاجَرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ...

وقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فَاطِر: ٢٩، ٣٠].

وقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسْرَاء: ٩، ١٠].

وقَالَ ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسْرَاء: ٨٢].

وقَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يُونُس: ٥٧].

وَقَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ

صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ [النِّساءُ: ١٧٤، ١٧٥].

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣] وَحَبْلُ اللهِ هُوَ الْقُرْآنُ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وقَالَ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طَهْ: ١١٣].

ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ وَعَدَ لِمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى كَلامِهِ، فَأَحْسَنَ الأَدَبَ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِ بِالاعْتِبَارِ الْجَمِيلِ، وَلُزُومِ الْوَاجِبِ لاتِّبَاعِهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، يُبَشِّرُهُ مِنْهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَوَعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ أَفْضَلَ الثَّوابِ، فقال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَرُ: ١٧، ١٨]. وقَالَ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزُّمَرُ: ٥٤، ٥٥]...

فَكُلُّ كَلام رَبِّنَا حَسَنٌ لِمَنْ تَلاهُ، وَلِمَنِ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ صِفَةُ قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَتَبَّعُوا مِنَ الْقُرْآنِ أَحْسَنَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مِمَّا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ مَوْلاهُمُ الْكَرِيمُ، يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ رِضَاهُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، سَمِعُوا اللهَ قَالَ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فَكَانَ حُسْنُ اسْتِمَاعِهِمْ يَبْعَثُهُمْ عَلَى التَّذَكُّرِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ، وَسَمِعُوا اللهَ ﷻ قَالَ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ عَنِ الْجِنِّ، وَحُسْنِ اسْتِمَاعِهِمْ لِلْقُرْآنِ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ فِيمَا يَجْذِبَهُمْ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَوَعَظُوهُمْ بِمَا سَمِعُوا مِنَ الْقُرْآنِ بِأَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمَوْعِظَةِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١]، وقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ فِي سُورَةِ «ق» مَا دَلَّنَا عَلَى عَظِيمِ مَا خَلَقَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ عَجَائِبِ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَوْتَ وَعَظِيمَ شَأْنِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ وَعَظِيمَ شَأْنِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ الجَنَّةَ وما أَعَدَّ فِيهَا لأَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: ٣٥] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فَأَخْبَرَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ بِأُذُنَيْهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا بِقَلْبِهِ مَا يَتْلُو وَمَا يَسْمَعُ؛ لِيَنْتَفِعَ بِتِلاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، بِالاسْتِمَاعِ مِمَّنْ يَتْلُوهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ حَثَّ خَلْقَهُ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]. وقَالَ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

... أَلا تَرَوْنَ رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَوْلاكُمُ الْكَرِيمِ؛ كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلامَهُ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ ﷻ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ، فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلاهُ الْكَرِيمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ.

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ، كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَى بِلا مَالٍ، وَعَزَّ بِلا عَشِيرَةٍ، وأَنِسَ بِمَا يَسْتَوحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ تِلَاوَةِ السُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا: مَتَّى أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُوهُ؟ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ مَتَّى أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَّى أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟ مَتَّى أَزْدَجِرُ؟ مَتَّى أَعْتَبِرُ؟ لأَنَّ تِلَاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ[١].



(١) مقدمة الآجري في «أخلاق حَمَلة القرآن» (ص: ٢).



الفصل الأول
تعريف القرآن الكريم، وفضله، وأسماؤه، وصفاته، وعظمته

أولًا: تعريف القرآن لغة واصطلاحًا

القرآن لغة: اتفق أهل العلم رحمهم الله على أن لفظ «قرآن» اسم وليس بفعل ولا حرف، لكنهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزًا أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدرًا أو وصفًا، على أقوال عدة تُجمل فيما يأتي:

القول الأول: إنه (اسمُ عَلَم غير منقول) وُضع من أوّل الأمر عَلَمًا على الكلام المنزَّل على محمد ﷺ، وهو اسم جامد غير مهموز، مثل التوراة والإنجيل.

وهذا القول مروي عن جماعة من العلماء، منهم: الشافعي وابن كثير وغيرهما، رحمهم الله جميعًا.

وقد نقل ابن منظور أن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من (قرأتُ) ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

القولان الثاني والثالث: أن لفظ القرآن «مهموز».

فقد اختلف القائلون بذلك على رأيين:

- أن القرآن مصدر (قرأ) بمعنى: (تلا) كالرُّجْحان والغُفْران، ثم نُقل من المصدر وجُعل اسمًا للكلام المنزَّل على نبينا محمد ﷺ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به   يُقطّعُ الليل تسبيحًا وقرآنا

أي: قراءة.

- أن القرآن وَصْف على وزن فُعْلان مشتق من (القُرْء) بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض؛ إذا جمعه، (وقرأت الشيء قرآنًا): جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

وسُمي القرآن قرآنًا لأنه جَمَع القصَصَ، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران.

القولان الرابع والخامس: أن لفظ القرآن «غير مهموز» لكن القائلين بذلك اختلفوا في أصل اشتقاقه على قولين:

- أنه مشتق من (قرنت الشيء بالشيء) إذا ضممت أحدهما إلى الآخر.

قالوا: فسُمِّي القرآن به: لِقِران السور والآيات والحروف فيه، ومنه سُمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

- أنه مشتق من (القرائن) جمع قرينة؛ لأن آياته يُصدّق بعضها بعضًا ويُشبه بعضها بعضًا.

ورجح الشيخ الصلابي القول الثاني، فقال: لِقُرب اشتقاقه من كلمة القرآن لفظًا ومعنى.

وأصبح لفظ القرآن - بعد ذلك - عَلَمًا على الكتاب المنزل[١].

---

(١) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ٥)، و«عظمة القرآن الكريم» لمحمود الدوسري (ص٤٧)، و«منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة» لعثمان علي حسن (١/ ٥٣).

معنى القرآن في الاصطلاح:

القرآن الكريم هو اسم لكلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو اسم لكتاب الله خاصة ولا يسمى به شيء غيره من سائر الكتب. وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله.

وعَرَّفه السيوطي رَحِمَهُ اللهُ **بقوله:** (وأما في العرف فهو الكلام المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه.

فخرج بالمنزل على محمد ﷺ: التوراة والإنجيل، وسائر الكتب.

وبالإعجاز: الأحاديث الربانية القدسية كحديث الصحيحين: «**أنا عند ظن عبدي بي...**» إلى آخره[1] وغيره... وقولنا: بسورة منه: هو بيان لأقل ما وقع به الإعجاز، وهو قدر أقل سورة، كالكوثر، أو ثلاث آيات من غيرها، بخلاف من دونها...).

ثم قال: (وزاد بعض المتأخرين في الحد: المتعبد بتلاوته. ليخرج المنسوخ التلاوة).

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى وفي كلام الله خاصة من قِبل الزنادقة وفِرق المبتدعة، احتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفًا يُظهرون فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة وفي صفة الكلام خاصة ومنه القرآن، مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

فقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى: (وإن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصَدَّقه المؤمنون على ذلك

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حقًّا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمَن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)[١].

ثانيًا: فضل القرآن الكريم

ما تقولون في فضل كتاب أنقذ الله به أمة من جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، دأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأوثان والحجارة، وديدنهم توارث العداوات والأحقاد، لا تعرف من الحق رسمًا. نِحْلتها ما وجدت عليه آباءها وما استحسنته أسلافها؛ من آراء منحرفة، ونِحَل مخترعة، وملل مبتدعة، فأنزل الله عليهم هذا الكتاب فأنقذهم منها به، وانتشلهم به من أوحالها؟

ما تقولون في فضل كتاب ختم الله به الكتب، وأنزل على نبي ختم به الأنبياء، وبدين خُتمت به الأديان؟

ما تقولون في فضل كتاب فُتحت به أمصار، وجَثَت عنده الرُّكَب، ونهل من منهله العلماء، وشرب من مشربه الأدباء، وخشعت لهيمنته الأبصار، وذلت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون، والراكعون، والساجدون؟

ذلكم القرآن الكريم: (كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة،

---

(١) «منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة» لعثمان علي حسن (١/ ٥٤) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢/ ٢٩٨)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١)، و«إعجاز القرآن» للباقلاني (ص: ٢٥٤ - ٢٥٨)، و«التحبير في علم التفسير» لجلال الدين السيوطي (ص:٣٩، ٤٠). و«شرح الطحاوية» (ص: ١٢١، ١٢٢)، و«عظمة القرآن وتعظيمه وأثره في النفوس» لسعيد القحطاني (ص: ٦)، و«عظمة القرآن الكريم» لمحمود الدوسري (ص: ٤٧).

وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه).

ذلكم القرآن الكريم: كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كل سعادة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

ذلكم القرآن الكريم: حجة الرسول الدامغة، وآيته الكبرى شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

ذلكم القرآن الكريم: كتاب الإسلام في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه وأخباره، وهدايته ودلالته.

ذلكم القرآن الكريم: أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك...

وفضل القرآن ومكانته لا يدانيه فضل، ولا تسمو إليه مكانة.

وفضائل القرآن منه فضائل عامة، ومنه فضائل خاصة لبعض سوره وآياته، نذكر بعضها:

أولًا: فضائل القرآن الكريم العامة:

أما فضائله فقد وردت في آيات عديدة وأحاديث كثيرة الإشارةُ إلى ذلك:

فمن القرآن ننهل أصدق الأوصاف لفضله، وأوفاها لحقه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وهي أول جملة بعد الفاتحة يقرأها المسلم في القرآن.

ومن فضل القرآن في القرآن: أن عُدَّ إنزاله في شهر مزية كبرى لهذا الشهر، فما ظنكم بالمُنَزَّل نفسه؟ قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وعلق الرحمة عند تلاوة القرآن بالاستماع إليه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وأقسم الله به: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١- ٣]، وأمر بتلاوته: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢]. وبتدبره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وذم الذين لا يسجدون عند تلاوته: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢١].

وشهد له بالسلامة من العوج: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمر: ٢٨]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: ١].

وشهد لمن تمسك بالقرآن واتبعه بأن أجره لا يضيع، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ [الأعراف: ١٧٠]. وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

والقرآن يهدي لأمثل الطرق وأفضلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]. وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦][1].

---

(١) «الموسوعة العقدية» (٣/ ٣٤٢).

ما جاء في السنة:

أ- قراءة القرآن:

عن أَبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمِعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ فإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»(١).

وعَن النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بالْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الذينَ كَانُوا يعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُهُ سُورَةُ البقَرَةِ وَآلِ عِمرَانَ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**»(٢).

وعن عثمانَ بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهُو ماهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(٤).

وعن أَبي موسى الأشْعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٤) رواه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٥) رواه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧)

- وعن عمرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(١).

وعنِ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فهُو يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»(٢).

ب- الأمر بتعهده والتحذير من تعريضه للنسيان:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَعاهَدُوا هَذَا الْقُرآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيدِهِ لَهُو أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»(٣).

وعنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(٤).

ج- طلب استحباب تحسين الصوت عند قراءته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**»(٥).

قال النووي: مَعْنَى (أَذِنَ اللهُ): أي اسْتَمَعَ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إلى الرِّضَا وَالقَبُولِ.

---

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

(٣) رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

(٤) رواه البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩).

(٥) رواه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢).

ثانيًا: فضائل خاصة لبعض السور والآيات

١- فضل سورة الفاتحة:

- هي أعظم سورة في القرآن، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «**أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ:** ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ثُمَّ قَالَ لِي: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ**». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ**»؟ **قَالَ:** «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(١).

- وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ**»(٢).

٢- فضل سورة البقرة، وآلِ عِمْرَانَ:

- تحاجان عن أصحابهما، فعن أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ(٣).

- وفيها أعظم آية في القرآن، فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٢، ٨٠٤).

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»(١).

- وفي آخرها آيتان كان فيها رفع الحرج عن أمة النبي محمد ﷺ.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا!!

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**».

قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

[البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ»(١).

٣- فَضْلِ سُورَةِ الكَهْفِ:

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ**»(٢).

٤- فَضْلِ سُورَةِ الفَتْحِ:

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لاَ يُجِيبُكَ!! قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي حَتَّى كُنْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي. قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ. قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١](٣).

٥- فضل المعوذتين:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ**

(١) رواه مسلم (١٩٩/ ١٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥).

(٣) رواه البخاري (٥٠١٢).

اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُن قَطُّ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]»(١).

٦- سورة الإخلاص:

عن أَبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: «**والَّذِي نَفْسي بِيدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**».

وفي روايةٍ: أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ لأَصْحَابِهِ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُم أَنْ يقْرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ في لَيْلَةٍ؟!**» فَشَقَّ ذلكَ علَيْهِمْ، وقالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذلكَ يَا رسولَ اللَّه؟ فَقَالَ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»(٢).

بل إنه لكثرة فضائل القرآن تعددت أسماؤه وصفاته، وورد في القرآن كثير من ذلك.

ثالثًا: أسماء القرآن الكريم

وردت للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة في كثير من الآيات، وفي بعض من الأحاديث النبوية.

ولكثرة هذه الأسماء والصفات، فقد أفردها بعض العلماء بمؤلفات مستقلة، فضلًا عن إيرادها أو إيراد جملة منها في بطون مؤلفاتهم.

وممن ألف فيه علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرالي، المتوفى سنة (٦٤٧)، وابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١)، ألف كتاب (شرح أسماء الكتاب العزيز)، ومن المعاصرين، ألف الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي،

(١) رواه مسلم (٨١٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٣).

كتابًا عنوانه: (الهدى والبيان في أسماء القرآن).

وقد وقع الاختلاف بين العلماء في عدد أسماء القرآن الكريم: فهذا الزركشي يذكر أن (الحرالي) أنهى أساميه إلى نيف وتسعين، لكن الزركشي نفسه لا يورد إلا خمسة وخمسين اسمًا نقلها عن أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيدل، وقد أوردها أيضًا السيوطي.

أما الفيروز آبادي فقد قال: (ذكر الله تعالى للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد)، لكنه لم يذكر إلا تسعة وثمانين اسمًا وزادها أربعة أسماء. فتكون جملة الأسماء التي أوردها الفيروز آبادي ثلاثة وتسعين اسمًا من القرآن للقرآن.

أما الشيخ صالح البليهي فلم يذكر إلا ستة وأربعين اسمًا من أسماء القرآن الكريم؛ لاعتقاده أن بعض هذا العدد - إن لم يكن أكثره - أوصاف للقرآن وليست بأسماء، ومع هذا فإنه لا يستبعد أن يكون بعض ما ذكره هو من أوصاف القرآن وليست من أسمائه.

ومن أسمائه التي استمدها العلماء من القرآن نفسه: التنزيل، الآيات، الكتاب، القرآن، الحق، التذكرة، الهدى، الوحي، الصراط المستقيم، التبيان، الصدق، المفصل، الحديث، الرحمة، النور، النذير، كلام الله، القول الثقيل، القول الفصل، العربي، الحكيم، الحكمة البالغة، العلم، القصص، البشير، الموعظة، المبارك، البصائر، الشفاء، النبأ العظيم، الفرقان، المجيد، الروح، البلاغ، حبل الله، البرهان، أحسن الحديث المثاني، السراج، المبين... وغير ذلك من الأسماء والصفات.

وقد بَيَّنَ العلماء حكمة تعدد الأسماء فقال الفيروز آبادي: (اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن

كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته).

وبين أسماء القرآن الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلًا بالهدى يدل على أن الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى... وهكذا كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى عن لفظ السيف والصارم والمهند... فإنها تشترك في دلالتها على الذات فهي من هذا الوجه كالمتواطئة، ويمتاز كل منها بدلالته على معنى خاص، فتشبه المتباينة، وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب.

وهناك إشارة دقيقة استمدها بعض العلماء من تسميته بالقرآن، والكتاب، فقال: روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

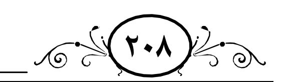
وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجتمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وُضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحافظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز.

... وأسماء القرآن وصفاته توقيفية، لا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

فإن قلت: أرأيت تسميته بالمصحف، هل وردت في الكتاب أو السنة؟

قلت: إن المصحف ليس اسمًا للقرآن ذاته، وإنما اسم للصحف التي كُتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في صحف ضُم بعضها إلى بعض فسميت مصحفًا[(١)].



وللقرآن الكريم أسماء عظيمة، من أهمها[(٢)]:

١- الفرقان:

سمّى الله تعالى القرآن فرقانًا في أربع آيات في كتابه المبارك وهي:

- قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤].
- وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ

(١) «خصائص القرآن الكريم» لفهد بن عبد الرحمن الرومي (ص: ١٢١).
وانظر: «الدرر السنية» (٣/ ٣٥٧)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٢/ ٤٤٩)، و«البرهان» للزركشي (١/ ٢٧٣)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٠/ ٤٩٤)، و«الإتقان» للسيوطي (١/ ٥٠، ٥١)، و«بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (١/ ٨٨)، و«الهدى والبيان في أسماء القرآن» لصالح البليهي (ص: ٤٤)، و«النبأ العظيم» د. محمد عبد الله دراز (ص: ١٢ - ١٣).

(٢) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» للصَّلاَّبي.

وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

– وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وذكر المفسرون في سبب تسمية القرآن بالفرقان أقوالًا، منها:

– سُمي بذلك لأن نزوله كان متفرقًا أنزله تعالى في نيف وعشرين سنة، في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة.

– سُمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والخير والشر، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والسعادة والشقاوة، والمؤمنين والكافرين، والصادقين والكاذبين، والعادلين والظالمين.

وقد بين ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ **سبب تسمية القرآن بالفرقان بقوله:** ووجه تسميته الفرقان أنه امتاز عن بقية الكتب السماوية بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإن القرآن يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبُك ما اشتمل عليه من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجد مثله في التوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقيل: الفرقان هو النجاة، سُمي بذلك؛ لأن الخلق في ظلمات الضلالات، وبالقرآن وجدوا النجاة. وعليه حمل المفسرون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣].

وسواء كانت تسمية القرآن العظيم بالفرقان لأن نزوله كان متفرقًا في نيف وعشرين سنة بينما سائر كتب الله تعالى نزلت جملة واحدة، أو سُمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، أو لأن فيه نجاة من ظلمات الضلالات؛ فهذا الاختلاف في التنوع يدل دلالة صريحة على عظمة القرآن، ورفعة منزلته عند

الله تعالى، وعلو شأنه.

٢- البرهان:

سَمَّى الله القرآن برهانًا في آية واحدة في كتابه العزيز، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٤].

فهذا خطاب لكل أصحاب الملل، اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم، أن الله تعالى أقام بهذا القرآن الحجة عليهم تُبرهن لهم بطلان ما هم عليه من الدين المنسوخ، وهذه الحجة تشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الآفاقية، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

بل كفى بالقرآن العظيم - وحده - برهانًا على صدق الرسول ﷺ في دعوى الرسالة.

فالقرآن برهان من الله لعباده، أقام به الحجة عليهم وأظهر من خلاله أوضح الدلالات وأقواها على موضوعاته ومعانيه وحقائقه في العقيدة والحياة، وكلُّ من تعامل مع أدلة القرآن في يُسرها ووضوحها وتأثر قلبه وعقله بها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يُدرك طرفًا من البرهان القرآني ويسره ووضوحه.

وتتجلى عظمة القرآن الكريم ومنزلته العالية من خلال تسميته بالبرهان ذلك لأن الله تعالى أقام به الحُجة على عباده، تُبرهن لهم بطلان ما هم فيه من الدين المنسوخ، وهي حُجة متنوعة في الاستدلال لتستوعبها عقول البشر على اختلاف فهومهم وثقافاتهم، وهذا من رحمة الله تعالى وحكمته.

٣- الحق:

سمّى الله تعالى القرآن حقًّا في مواضع عِدّة من كتابه، نأخذ منها ما له صلة بموضوعنا وهي:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة: ٥١].

أي: وإن القرآن لكونه من عند الله حق فلا ريب فيه ولا يتطرق إليه شك.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والقذف: الرّمي، أي نرمي بالحق على الباطل «فيدمغه» أي: يقهره ويهلكه. وأصل الدمغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدّامغة. والحق هنا القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].

والضمير في قوله: (به) عائد على القرآن الذي فيه تصريف الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزَّل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله.

والمعنى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي: بالقرآن الذي جئتم به، والهدى والبيان، ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني قريشًا، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي ليس وراءه حق، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ولم يُصدق بتلك الشواهد الحقة.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله ﷻ. وفيه تعريض بغيره ﷺ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن حق من الله تعالى لا مرية ولا شك فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إما جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا. وإلا فمَن كان قصده حسنًا، وفهمه مستقيمًا، فلابد أن يؤمن به؛ لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨، ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وهو الإسلام والقرآن، فهذا القرآن العظيم الذي جاء به النبي ﷺ هو الحق: الحق القوي الذي يقذف به الله تعالى، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟ وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد في طريق، يقذف بها الله تعالى علّام الغيوب، فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية.

ومن خلال تسمية القرآن الكريم باسم الحق تبرز عظمته ومنزلته العالية، فلابد أن يؤمن الناس لهذا الحق الأوحد ويستجيبوا له؛ لأن مصدره هو الإله الأوحد جلّ جلاله.

٤- النبأ العظيم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: غافلون. في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يعني: القرآن.

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

ولاشك أن القرآن نبأ عظيم، فمنذ إيجاد البشرية وتكوينها، ما رأت ولا سمعت بمثل هذا القرآن العظيم!! فهو عظيم في أسلوبه، وعظيم في روعته، وعظيم في معناه، وعظيم في جمال تركيبه، وعظيم في وعده ووعيده وعظيم في أحكامه، وعظيم في أمره ونهيه، وعظيم في أخباره وقصصه وأمثاله.

٥- البلاغ:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فلما بَيَّن البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات، وأفضل الكرامات؛ لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي يحتاجها العباد ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب.

٦- الروح:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

والمعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وهو هذا القرآن العظيم، سمّاه روحًا لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية بل كنت أميًّا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الروح الذي

﴿جَعَلْنَهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

٧- الموعظة:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].

يعني: القرآن يتعظ به من قرأه وعرف معناه، يا أيها الناس قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح.

قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ أو الوصايا الحسنة التي تُصلح الأخلاق والأعمال وتزجر عن الفواحش، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فكفى بالقرآن واعظًا، وكفى بالقرآن زاجرًا، وكفى بالقرآن هاديًا ومُذَكِّرًا.

٨- الشفاء:

سمّى الله ﷻ القرآن العظيم شفاءً في ثلاثة مواضع من كتابه، وهي:

- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان؛ كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك.

- وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فالقرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين...

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

فالقرآن الكريم شفاء من أمراض القلوب والنفوس والجوارح وأمراض السياسة والاقتصاد والحياة والحضارة وغيرها من أمراض العصر.

فمن عظمة القرآن الكريم وعلو شأنه وعظمة تأثيره - أن فيه الشفاء الكامل لأمراض الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، والأمراض الجسدية، وشفاؤه يمتد كذلك إلى الأمراض المعاصرة المزمنة لو أخذ الناس بتعاليمه وأدويته النافعة فعملوا بها.

٩- أحسن الحديث:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

يعني أحكم الحديث، وهو القرآن.

وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن عُلم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجلُّ المعاني؛ لأنه أحسنُ الحديث في لفظه ومعناه متشابه في الحُسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنه كلما تدبره المتدبر وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه حتى في معانيه الغامضة ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم.

وقد سُمّي القرآن حديثًا في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النجم: ٥٩].

- وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

وكون القرآن العظيم أحسن الحديث على الإطلاق، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى، من حيث فصاحة ألفاظه ووضوحها، وجلالة معانيه وكثرتها ونفعها، دلّ ذلك على عظمته وعلو شأنه ورفعته.

خامسًا: أوصاف القرآن الكريم(١)

ذكر المولى ﷻ أوصافًا عديدة للقرآن الكريم، منها:

١- الحكيم:

وَصَف الله تبارك وتعالى كتابه بأنه حكيم في عدة آيات، منها:

- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

- وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١، ٢].

فهذا قَسَم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، وقد وصفه بالحكمة وهي وضع كل شيء في موضعه اللائق به، والقرآن الحكيم يخاطب كل أحد بما يناسبه ويؤثر فيه كائنًا من كان، وهذا من مقتضيات أن يكون حكيمًا، والقرآن الحكيم يُربي أيضًا بحكمة، وَفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، منهج يوجه طاقات البشر إلى الوجه الصالح القويم ويقرر للحياة كذلك نظامًا يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم.

ومن إحكام آيات القرآن الحكيم:

- أنها جاءت بأَجَلّ الألفاظ وأوضحها، وأبينها، الدالة على أجلّ المعاني وأحسنها.

---

(١) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ٢٥).

- أنها محفوظة من التّغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

- أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية - كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأتِ ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

- أنها ما أمرت بشيء إلا هو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا هو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يُجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

- أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيّرة وتحتكم، فتعمل بالجزم.

- أنك تجد آياتها المتكررة، كالقصص والأحكام ونحوها - قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف.

وأنّى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب الحكيم، وهو تنزيل من حكيم حميد، والحكمة ظاهرة في بنائه، وتوجيهه، وطريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق؟!

٢- العزيز:

قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] أي: يصعب مناله ووجود مثله. والعزيز: النفيس، وأصله من العزّة وهي المنعة؛ لأن الشيء النفيس يُدافع عنه ويُحمى عن النبذ، ومثل ذلك يكون عزيزًا. والعزيز أيضًا: الذي يَغلب ولا يُغلب، وكذلك حجج القرآن.

ووصف تعالى الكتاب بالعزة لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه وهو محفوظ من الله تعالى.

وجماع أقوال المفسرين في وصف القرآن بأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ ما يلي:

- منيع من الشيطان لا يجد إليه سبيلًا، ولا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه.

- كريم على الله، وعزيز على الله، وعزيز من عند الله.

- عديم النظير منيع من الباطل ومن كل من أراده بتحريف أو سوء.

- يمتنع على الناس أن يقولوا مثله فهو غالب وقاهر.

والمتأمل في هذه الأقوال يجدها جميعًا تنطبق على «العزيز» وصفًا للقرآن، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، تدل على عظمة القرآن وعزته وعلو شأنه ورفعته.

فنحمد الله العزيز الذي أنزل كتابًا عزيزًا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] **على نبي عزيز** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] **لأمة عزيزة** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٣- الكريم:

قال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٧].

والكريم: اسم جامع لما يُحمد، وذلك أن فيه البيان والهدى والحكمة وهو مُعظّم عند الله ﷻ.

٤- المجيد:

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

قال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: ١].

والمعنى: إن هذا القرآن الذي كذّبوا به شريف الرّتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما

يقولون: إنه شِعر وكهانة وسحر، وإنما هو كلام الله المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ.

٥- العظيم:

لقد نوّه الله تبارك وتعالى بعظمة القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها، استغنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم، عمّا فيه من المتاع والزهرة الفانية.

فالقرآن هو النعمة العُظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة، فعليك أن تستغني به.

٦- البشير والنذير:

قال الله تعالى في وصف القرآن العظيم: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٣، ٤].

فهذا وصف للقرآن العظيم أنه: يبشر مَن آمن بالجنة، وينذر من كفر بالنار.

٧- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

فالله ﷻ لم يجعل للباطل مدخلًا على هذا الكتاب العزيز، وأنّى له أن يدخل عليه وهو صادر من الله الحق العظيم؟! قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

فهل رأيتم فضلًا أكبر من هذا، ومنزلة أعظم من هذه المنزلة، يتبوأ عليها القرآن مستحقًّا.

خامسًا: عظمة القرآن الكريم(١)

تحدث المولى ﷻ في كتابه عن عظمة القرآن الكريم، ومن خلال آياته الحكيمة نبين هذه العظمة، وإليك التفصيل:

١- ثناء الله على كتابه:

أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة مما يدل على عظمته كما وصفه بـ﴿ٱلْعَظِيمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

ووصفه بالإحكام في قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصد الكتب المنزلة قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، يُقِرُّ الصحيح فيها ويُصحّح الخطأ.

---

(١) «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ١٥)، وانظر «عظمة القرآن الكريم» (ص٧٦) و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢١، ٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٣، ٣٤٤)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٤٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٤)، و«أضواء البيان» (٨/ ٧٦).

ووصفه في أم الكتاب بأنه «علي حكيم» في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤].

فهذه شهادة من الله تعالى بعلو شأن القرآن وحكمته.

ولا ريب أن من عظمة القرآن أنه عَلِيٌّ في محله، وشرفه، وقدره، فهو عالٍ على جميع كتب الله تعالى، بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر.

ومعنى الحكيم: المنظوم نظمًا متقنًا لا يعتريه أي خلل في أي وجه من الوجوه، فهو حكيم في ذاته حاكم على غيره.

والقرآن حكيم كذلك فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، وليس فيه حُكْم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ومن ثناء الله تعالى على القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه كتاب مبارك:

- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

- وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

- وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وبركة هذا الكتاب تمتد إلى يوم القيامة وعطاؤه نامٍ لا ينفد... يواكب الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعًا لأصحابه.

٢ - عظمة مُنَزِّلِه ﷻ:

العظيم: ذو العظمة والجلال في مُلكه وسلطانه ﷻ، والعظمة صفة من صفات الله، لا يقوم لها خلق، والله تعالى خَلَق بين الخلق عظمة يُعظِّم بها بعضهم بعضًا، فمن الناس مَن يُعظَّم لمال، ومنهم مَن يُعظَّم لفضل، ومنهم مَن يُعظَّم لعلم، ومنهم مَن يُعظَّم لسلطان، ومنهم مَن يُعظَّم لجاه، وكل

واحد من الخلق إنما يُعظَّم بمعنى دون معنى، والله ﷻ يُعظَّم في الأحوال كلها.

فينبغي لمن عرف حق عظمة الله ألا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله، إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت.

فالله تعالى هو العظيم المطلق؛ لأنه عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته كلها، فلا يجوز قصر عظمته في شيء دون شيء منها؛ لأن ذلك تحكم لم يأذن به الله.

فمن عظمته تعالى: أنه لا يَشُقُّ عليه أن يحفظ السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيها وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وتتجلى عظمة القرآن العظيم في عظمة مُنزِّله جل جلاله، ويتضح ذلك جليًا في عدة آيات، منها:

- قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ١ - ٣].

- وقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الجاثية، الأحقاف: ١، ٢].

٣ - فضل مَن نَزَل بالقرآن:

نوه الله تعالى بشأن مَن نزل بالقرآن على رسولنا محمد ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أمين الوحي الالهي، وذكر فضله في عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ

لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمس صفات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وهذه الصفات الخمس تتضمن تزكية سند القرآن العظيم وأنه سماع نبينا محمد ﷺ من جبريل عليه السلام، وسماع جبريل الأمين من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوًّا وجلالة.

٤- القرآن تنزيل رب العالمين:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١].

وفيه ضمير العظمة، وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

فمن عظمة القرآن أنه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره؛ لنفع الناس وهدايتهم، فاجتمعت في القرآن العظيم فضائل، منها:

- أنه أفضل الكتب السماوية.
- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، الأمين على وحي الله تعالى.
- نزل على أفضل الخلق محمد ﷺ.
- نزل لأفضل أمة أُخرجت للناس.
- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

٥ - القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

ونَفْي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها:

الأول: نفي التناقض عن آياته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

الثاني: أن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف هو حق وصدق ولا خلل في شيء منه البتة.

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنه ليس فيه تضاد، ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨]، أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته.

فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأوصاف عظيمة تدل على أنه كامل من جميع الوجوه، وعظيم بكل ما تعبر عنه الكلمات، منها:

- **نفيُ العوج عنه:** وهذا يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

- **إثبات أنه مستقيم مقيم:** فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادّة الصواب.

واثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلًا، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميّها وتكمّلها لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

فحقيق بكتاب موصوف بما ذُكر - أن يَحمد الله تعالى نفسه على إنزاله، وبنفي العوج عن القرآن الكريم وإثبات استقامته تتجلى عظمته وعلّو شأنه، ومنزلته عند الله.

٦ - خشوع الجبال وتصدُّعها:

قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ

ﱡﭐﭑﱠ [الحشر: ٢١] أي: لاتّعظ الجبل وتصدّع صخره من شدّة تأثره من خشية الله.

ففي هذا بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات ولو كانت جبلًا أشم وحجرًا أصم، وضُرب التصدّع مثلًا لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصُّلبة أن تنشق وتتصدّع ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوع: هو التّطأطؤ والرّكوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدع: التشقق، أي لتزلزل وتشقق من خوف الله تعالى.

ولا شك أن هذا تعظيم لشأن القرآن، وتمثيل لعلوّ قدره وشدّة تأثيره في النفوس؛ لما فيه من بالغ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحق والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن - كما فهمتموه - لخشع وتصدّع من خوف الله تعالى، فكيف يليق بكم أيها البشر ألّا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدّع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبّرتم كتابه؟!

والمقصود من إيراد الآية: إبراز عظمة القرآن الكريم، والحث على تأمل مواعظة الجليلة، إذ لا عذر لأحد في ذلك، وأداء حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخ من لا يحترم هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل وتخييل لعلوِّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ.

٧ - انقياد الجمادات لعظمة القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

فهذا شرط جوابه محذوف، والمراد منه: تعظيم شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أن قرآنًا سُيرت به الجبال عن مقارّها وزُعزعت عن مضاجعها، أو قُطعّت به الأرض حتى تتصدّع وتتزايل قِطعًا، أو كُلم به

الموتى فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في التخويف.

والمقصود: بيان عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأي الكفرة، حيث لم يقدّروا قدره العلي، ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أُوتي موسى وعيسى عليهما السلام...

فالمعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: بإنزاله أو بتلاوته عليها، وزُعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: شققت وجُعلت أنهارًا وعيونًا، كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعلت قطعًا متصدّعة أو ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بعد ما أحييت بقراءته عليها، كما أُحيت لعيسى عليه السلام، لكان هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته.

٨ - تحدي الإنس والجن بالقرآن:

من مظاهر عظمة القرآن وعلو شأنه أن الله تعالى تحدّى الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة مثله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

ومع ذلك كله ما ثابوا إلى رشدهم، وما وجدوا ما يتكلمون به، فعادوا لما نهوا عنه وقالوا: (اختلقه محمد عمدًا)، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون ووصل بهم إلى غاية التبكيت والخِذلان وتحدّاهم أن يأتوا بسورة

مثل القرآن فعجزوا.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

ولما بهت الذين كفروا ولم يستسلموا، صاروا كالذي يتخبطه الشيطان من المس، مرة يقولون استهزاء: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. وأخرى يقولون عابثين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]. وصار أمرهم على ما يقول الله العظيم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩].

فهذا القرآن العظيم ليس ألفاظًا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربي، إنه كلام الله تعالى الذي تحدى به الخلق كلهم، فقال عز وجل من قائل حكيم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهذا تنويه بشرف القرآن وعظمته.

وهذه الآية ونحوها تُسمَّى آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم أو سورة منه.

وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام ربّ العالمين؟! أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟! هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء - ظهر له الفرق العظيم.

فعظمة القرآن وعلو شأنه لا تجعل للخَلْق من إنس وجِنّ مطمعًا في الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.



الفصل الثاني: مقاصد القرآن الكريم[1]

دعا القرآن الكريم إلى الكثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها، والتي من أهمها:

أولًا: تصحيح العقائد والتصورات

١- القرآن العظيم من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد وإنكار للشرك وبيان لسوء عاقبة المشركين في الدّارين.

وقد اعتبر القرآن الشرك أعظم جريمة يقترفها مخلوق.

---

(١) نقل من كتاب «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ٤٩)، وانظر «كيف نتعامل مع القرآن العظيم» (ص ٦٦)، و«العبادة في الإسلام» للقرضاوي (ص٥٣)، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٥٠)، و«فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم» (ص١٨٥)، و«محاسن التأويل» للقاسمي (٥/ ٤٧)، و«ظلال القرآن» (٢/ ٤١٤)، و«الوسطية في القرآن الكريم» للصّلّابي (ص ٩٤)، و«الشورى في معركة البناء» (ص ٢١) لأحمد الريسوني، و«الشورى مراجعات في الفقه والسياسة» د. أحمد الإمام (ص ١٥). و«الشورى فريضة إسلامية» للصّلّابي (ص٢٤)، و«مقاصد الشريعة الإسلامية» للشيخ محمد الطاهر (ص٣٩٢) «والمحلي» نقلًا عن «الحريات» للعنوشي (١/ ١٠٨)، و«الحريات في الدولة الإسلامية» (١/ ١٠٩). «وميثاق الإسرة في الإسلام»، و«اللجنة العالمية للمرأة والطفل» (ص١٣٢)، و«أسباب هلاك الأمم السالفة» لسعيد محمد بابا (ص ٤٥٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وإن حقيقة الشرك انحطاط بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون - كما أراد الله له - إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جمادًا أو نباتًا، أو حيوانًا، أو إنسانًا... إلى غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

والدعوة إلى التوحيد هي المبدأ الأوّل المشترك بين رسالات النبيين جميعًا، فكل نبي نادى قومه أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فلا مكان للوسطاء بين الله ﷻ وبين خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرفة من عقيدة التوحيد، حتى اليهود جعلت الرب أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم ويخاف، ويصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعد منه بمباركة نسله، فأطلق سراحه. والنصرانية، تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنية حتى امتلأت الكنائس بالصور والتماثيل،

وأخذت عقيدة التثليث والفداء من عقيدة الهنود في «كرشنة» كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة ووضعوا اسم «يسوع».

٢ - تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

أ- بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة:

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

ب- بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار:

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

فليس الرسل آلهة ولا أبناء آلهة، إنما هم بشر يوحى إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هداية القلوب ولا السيطرة عليها ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

ج- تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل، كقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فقد رد عليهم القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]. ومثل قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

د- بيان عاقبة الذين صَدَّقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين، وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم تنتهي دائمًا بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

٣ - تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة:

ومما عُني به القرآن وكرره في سوره المكية والمدنية: الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار.

وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى، فمنها:

أ- إقامة الأدلة على إمكان البعث ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأهم أول مرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ب- التنبيه على خلق الأجرام العظيمة التي يُعتبر خلق الإنسان بجوارها شيئًا هينًا.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ج- بيان حكمة الله تعالى في الجزاء حتى لا يستوي المحسن والمسيء،

والبر والفاجر، وفي النهاية تكون الحياة عبثًا وباطلًا يتنزه الله تعالى عنه.

قال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [القيامة: ٣٦].

د- إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن آلهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهل الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم.

وهذا ما كَذَّبه القرآن وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحد، ولا ينفع الإنسانَ إلا سعيه، ولا يحمل وزر غيره ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴿٣٨﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].

قال تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف: ٤٩].

و- بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان، وما أُعد للكفرة الفجرة من العقاب والخسران.

ولهذا كثر حديث القرآن عن القيامة وأهوالها، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حتى لا يضيع على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفسًا شيئًا ولا يحمّل وازرة وزر أخرى، وعن الجنة وما

فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم الحسي والمعنوي، ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتداد لإنسان الدنيا روح وجسم، فلابد أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما.

ثانيًا: تزكية النفس البشرية

ومن مقاصد القرآن: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاح في الأولى والآخرة لها إلا بالتزكية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسيها، استعدادها للتقوى التي تطهرها وتزكيها.

وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أي الطريقين: طريق التزكية أو طريق التدسية، ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤]. وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

ورسالات الأنبياء جميعًا كانت - من مقاصدها - الدعوة إلى التزكية، ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أُرسل إليه من ربه: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

وكان من الشُّعب الأساسية لرسالة محمد ﷺ: التزكية، كما جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله:

منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

ومنها قوله ﷻ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

كما لا بد من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقد بَيَّن القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

كما بين أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه التزكية المنشودة للأنفس، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

وقال في أدب الاستئذان: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

إن الذي لا ريب فيه: أن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة

أخرى بتزكية هذه الأنفس حتى تنتقل من (النفس الأمارة بالسوء) إلى (النفس اللوامة)، ثم إلى (النفس المطمئنة)، وهذا يحتاج إلى جهاد لكنه جهاد غير ضائع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثالثًا: عبادة الله وتقواه

١ - لقد بَيَّن القرآن أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ومن هذه النعم: نعمة الإيجاد، ونعمة الرزق، ونعمة العقل، ونعمة الإرادة، ونعمة القدرة، ونعمة البيان (النطقي) و(الخطي) ونعمة تسخير الكون للإنسان، وعَدَّد القرآن جملًا من هذه النعم الوفيرة السابغة في عدد من سور القرآن، أظهرها في سورة النحل التي تسمى (سورة النعم).

ومن حق الخالق الرازق المنعم أن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يطاع فلا يُعصى، ولا يتأتى ذلك إلا بالعبادة الخالصة له، فالعبادة من حقه وحده جل وعلا؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وعند تأمل آيات القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار

وأوامر ونواهٍ ووعد ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله ﷻ وعبودية الإنسان له، فإذا كان خَلْق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري - جل وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله حكيمًا عليمًا، خلق كل شيء وقَدَّره تقديرًا، ولم يخلق شيئًا عبثًا، ولم يوجِد شيئًا لغير حكمة، وإذا كان القرآن المجيد وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه، لذلك جعل الله دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض - دائرة رحبة واسعة: أن تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله.

فالعبادة في مفهوم الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد ضد الكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر على حكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة.

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله سواء كان ذلك في العبادة المحضة أو في المعاملات المشروعة، أو

في العادات التي طُبع الإنسان على فعلها.

ولذلك يحرص المسلم أن تكون حياته كلها عبادة من لحظة التكليف إلى الموت، امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهذه العبادات كلها تعد المسلم لتقوى الله، كما جاء في الآية التي ذكرناها: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

٢ - تقوى الله: وهي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقاية من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وأساس تقوى الله خشية الله وذلك من عمل القلب؛ ولذا أضافها القرآن إليه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

والله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه لتكون حافزًا له على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ويذكر الله في القرآن التقوى أحيانًا قبل النواهي؛ لتكون دافعًا للانتهاء

عنها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

بل يقص علينا القرآن أن الرسل جميعًا دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء نوحًا، وهودًا، وصالحًا ولوطًا، وشعيبًا، يقول كل منهم لقومه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

ولم يكتفِ القرآن من المؤمنين بمجرد التقوى، بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ومعناه: بَذْل الجهد واستفراغ الوُسْع في تقواه ﷻ، في حدود الطاقة والاستطاعة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وليست هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، بل مبينة لها: أن تقوى الله حق تقواه إنما تُطلب في إطار المقدور للمكلف، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والتقوى لا تعني العصمة من الذنوب، والمتقون ليسوا ملائكة أطهارًا، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي رهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإذا زلت قدم أحدهم إلى المعصية فسرعان ما يثوب إلى رشده ويتوب إلى ربه ويقرع بابه مستغفرًا، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومَن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى العاجلة والآجلة:

أ- المَخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ب- السهولة واليسر في كل أمر.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ج- تيسير العلم النافع.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

د- إطلاق نور البصيرة.

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

هـ- محبة الله ومحبة ملائكته والقَبول في الأرض.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببتُ فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل** عليه السلام**، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبول في الأرض**» مسلم (٢٦٣٧).

و- نصرة الله ﷻ وتأييده وتسديده.

وهي المعية المقصودة بقول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ز- البركات من السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ح- البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

والبشرى في الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان في كتابه، وعن النبي ﷺ: «**الرؤيا الصالحة من الله**» البخاري (٦٩٨٦).

وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل لله ويحبه الناس، فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» مسلم (٢٦٤٢).

ط- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ى- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعاف، إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى يحفظ أبناءهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته.

والآية تُشعر بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله.

وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع وأن الرجال الصالحين يُحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢]. فإن الغلامين

حُفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما.

ك- سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ل- سبب النجاة من عذاب الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧، ١٨].

م- تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

س- هم الورثة لجنة الله.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

ع- يسيرون إلى الجنة ركبانًا.

مع أن الله ﷻ يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعًا لمشقتهم.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥].

ف- تجمع بين المتاحبين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومن بركة التقوى أن الله ﷻ ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل، فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

دعوة القرآن إلى التقوى تتخذ أساليب شتى من الأمر بها، وبيان آثارها والثناء على أهلها والترغيب في محاسنهم وتجلية فضائلهم، والترهيب من تركها والإعراض عنها والانصاف بأضدادها، حتى يظهر الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى وأهل الإثم والعدوان.

رابعًا: إقامة العدل بين الناس

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه وأرسل به رسله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]: أي: بالعدل.

فما من كتاب أُنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل وأوجبه عليها، والأمم بين طائع آخذ منه بنصيب وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسل ما تزال تجدد ما نسيته الأجيال، وتُذكر الناس بما نسوا إلى أن خُتمت الرسالات بخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبي ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم.

ولم يكتفِ الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خُلقًا من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تُصبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكون قائمة بالعدل بل قَوَّامة به بين الناس، لله ﷻ، لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريبًا لقرابته ولا تضار عدوًّا لعداوته.

قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل الذي أمر به الله ﷻ في القرآن الكريم حق لكل الناس جميع الناس، لا عدل بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدل مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه (إنسانًا) فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة التي يلتقي عليها البشر جميعًا مؤمنين وكفارًا، أصدقاءَ وأعداءً، سودًا وبيضًا، عربًا وعجمًا، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت أمرهم.

فالعدل من مقاصد القرآن الكريم - وأوجبه الله على المؤمنين به ولو كان مراغمة لعواطف البغض والعداوة، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ وهو كذلك واجب ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله ﷻ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء بدون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء

والشنآن والعداوة؛ لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله.

والعدل بهذه الصورة الشاملة لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة.

خامسًا: الشورى

من مقاصد القرآن الكريم تحقيق ممارسة الشورى بين الناس:

١- قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٨].

وهناك دلالات لطيفة لقيمة الشورى في الإسلام، في ضوء تفسير هذه الآية، منها ما يلي:

فالآية وردت في سورة تحمل اسم الشورى وهي سورة الشورى، وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بأهميتها ومنزلتها.

وجاءت الشورى في هذه الآية وصفًا تقريريًّا، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين، فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الآثام والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأَمْرهم شورى بينهم، ويزكون أموالهم وينفقون منها في سبيل الله.

وهي آية مكية مما يدل على أن الشورى في الإسلام ممارسة اجتماعية

قبل أن تكون من الأحكام السلطانية، وهي تصف حال المسلمين في كل زمان ومكان، فهي ليست طارئة ولا مرحلية، ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم.

وهي تجعل جميع المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي شورى بينهم، فهي حق لهم جميعًا، إلا ما كان من شأن أهل العلم والتخصص، فإن المؤمنين يحملهم إيمانهم أن يردوا ما أشكل عليهم إلى من يعلم كيف يستنبط الأحكام من النصوص.

وقد انتبه عدد من العلماء إلى وقوع هذه الآية الكريمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، كصفة من ضمن صفات تعد من المقومات والأركان الاساسية في الدين، وهو ما يعني أنها واحدة من تلك الفرائض والأركان. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يدل على جلالة موقع المشورة لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أنهم مأمورون بها.

٢- وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذه الآية جاءت خطابًا لرسول الله ﷺ بصفته داعيًا وهاديًا ومرشدًا ومربيًا وأميرًا وقائدًا، وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقًا بالناس متلطفًا معهم رحيمًا لهم عفوًّا عنهم، متسامحًا معهم، بل مستغفرًا لهم في أخطائهم وذنوبهم ومستشيرًا لهم مراعيًا لآرائهم.

وهذا الأمر لرسول الله ﷺ من الله بمشاورة أصحابه هو أمر لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء، بل إن العلماء والمفسرين يعتبرون

أن هؤلاء مأمورون من باب أَوْلى وأحرى، فهم الأحوج إلى هذا الأمر وبفارق كبير جدًّا عن رسول الله، ومن هنا عُدت هذه الآية قاعدة كبرى في الحكم والإمارة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين - وأهل التخصص في فنون العلوم - فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه، إن الشورى مقصد من المقاصد الإسلامية، وجزء من الشريعة الإسلامية.

سادسًا: الحرية

من مقاصد القرآن الكريم إبطال عبودية البشر للبشر وتعميم الحرية لكل الناس، ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: «الشارع متشوف للحرية» فذلك استقراؤه من تصرفات الشريعة التي دلت على أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأب الشريعة في رعي المصالح المشتركة وحفظ النظام العام وقف بها عن إبطال العبودية بوجه عام وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربقة العبودية، وإبطال أسباب تجدد العبودية، مع أن ذلك يخدم مقصدها.

كان ذلك التوقف من أجل أن نظام المجتمعات في كل قطر قائم على نظام الرق، فكان العبيد عمالًا في الحقول، وخدمة في المنازل والغروس، ورعاة في الأنعام، وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، ودايات لأبنائهم.

فكان الرقيق (لذلك) من أكبر الجماعات التي أقيم عليها النظام العائلي والاقتصادي (والاجتماعي) لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأسًا على عقب لانفرط عِقدُ نظام المدينة انفراطًا

تعسر معه عودة انتظامه.

فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق مَن وقع في أسرها وخضع إلى قوتها.

وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم وبانتشار أتباعه في الأقطار.

فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبل أمنت عواقب الحروب الإسلامية - وأخطر تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبيُ - لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة الإسلامية اتكالًا على الكثرة والقوة، وأمنًا من وصمة الأسر والاستعباد، كما قال صفوان بن أمية في مثله: لأن تربني قريش خير من أن تربني هوازن. وكما قال النابغة:

حذارًا على أن لا تنال مقادتي ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

فنظر الإسلام إلى طريق بين مقصدين - نشر الحرية وحفظ نظام العالم - بأن سلَّط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها لتقليلها وعلاجًا للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق وقصره على سبب الأسر خاصة:

فأبطل الاسترقاق الاختياري وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعض أبنائها، وقد كان ذلك شائعًا في الشرائع.

وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية بأن يُحكم على الجاني ببقائه عبدًا

للمجني عليه، وقد حكى القرآن عن حالة مصر: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ [يوسف: ٧٥]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

وأبطل الاسترقاق في الدين الذي كان شرعًا للرومان، وكان أيضًا من شريعة سولون في اليونان من قبل.

وأبطل الاسترقاق في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين.

وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارة يوسف إذ وجدوه.

ثم إن الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود والذي يوجد بروافع ترفع ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف آثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكه معنتًا.

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحها الإسلام:

١- جعل الإسلام تحرير الأرقاء إلى الله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢].

٢ - كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين... أو تحرير رقبة.

٣ - كفارة الظهار لمن أراد أن يراجع زوجته بدايته تحرير رقبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾ [المجادلة: ٣].

٤ - مَن أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة منها تحرير رقبة.

٥ - مَلك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمى (أم ولد) إذا مات سيدها قبلها صارت حرة.

٦ - المكاتبة: أن يتفق العبد مع سيده على مبلغ من المال يدفعه أو يقوم بعمل يصير بعده حرًّا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣].

٧ - العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرر واحد منهم نصيبه امتنع أن يباع العبد.

٨ - تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

لقد انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات كما رأينا.

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية، بأن تَرَفَّع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنما بأسلوب أرقى وهو كلمة غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، قال ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأَمَتي، وليقل: فتاي وفتاتي. ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل سيدي**»[1].

وقد نهى النبي ﷺ عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: «**لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم**».

فمن استقراء هذه التصرفات ونحوها حصل لنا بأن الشريعة قاصدة بث الحرية والقضاء على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده ترك الخيار لكافة الناس في اختيار المعتقد بعد تبين الرشد من الغي، وتترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير، وإليك الشرح:

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٥٢)، ومسلم رقم (٢٢٤٩).

١- حرية الاعتقادات: أسسها الإسلام بإبطال المعتقدات الضالة التي أكره دعاة الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها بدون فهم ولا هدى ولا كتاب منير، وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردهم إلى الحق بالكلمة والموعظة وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولو أراد الخالق جلت قدرته هداية الناس لدخل جميع من على الأرض من الناس دين الإسلام، ولكن له حكمة في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩].

ولا شك أن الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادر على التمييز بين الحق والباطل حتى يستطيع اختيار الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

وتتكرر الآيات القرآنية في أكثر من سورة حول حرية الاعتقاد وعدم إجبار من لم يقتنع بالإسلام على اعتناقه:

فيخاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام قائلًا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾ [الأنعام: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

والدين الإسلامي الحنيف ليس دين قمع وإكراه، بل دين يسر، يقوم على مبدأ وسائل الإقناع والتزام جادة العقل من خلال منهج الحوار البَنَّاء والتعبير الحر والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن.

والشريعة الإسلامية تشدد وتؤكد على قدسية هذا المنهج؛ لذا نجد أن الخالق يأمر رسوله محمدًا ﷺ بأن يدعو الناس إلى دين الإسلام بالحكمة ويخاطبه قائلًا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي مجادلة أهل الكتاب يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٢- حرية التعبير: (الأقوال): وهي التصريح بالرأي والاعتقاد في منطقة الإذن الشرعي.

وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه مما لا فائدة منه، أو مما فيه مضرة في الدين أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام، وآدابه تحديدًا دقيقًا، وواضحًا نُجمل شيئًا منه فيما يلي:

١ - الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

٢ - الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

٣ - الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠].

٤ - الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

والآية الأخيرة إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها أساس من الصحة، وقد قال رسول الله

ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع**»[١].

وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال[٢] وهو الذي يُكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين.

٥ - كما حرم الله ورسوله الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٣- حرية الفكر: لم يترك القرآن الكريم أسلوبًا نفسيًّا أو واقعيًّا إلا واتبعه من أجل حث الإنسان على التفكير واستعمال عقله بصورة واضحة جلية.

وإليك أخي القارئ الكريم البيان:

أ - طلب القرآن الكريم من الناس أن يستعملوا عقولهم ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي إشعار الإنسان بأن هذا الكون كله خُلق لارتفاقه ويُسِّر بَرُّه وبحره وعلوه وسفله له، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ

---

(١) مسلم (١/ ٣١).

(٢) مسلم (٤٤٥٨).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

ب - طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أن هنالك سببًا، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون الذي ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات وما حوته، وفي الأرض وما عليها.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ [الروم: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وفي النظر في أصل نشأة الإنسان وخلقه قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ - ٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٧٧].

ج - وحتى يحفز القرآن الكريم العقل الإنساني للتفكر هاجم الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلهم كالدواب، ذلك أن العقل الإنساني وملكة التفكير هي التي تميز الإنسان من الحيوان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

س - نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقف بوجه العقل الإنساني والتفكير الصحيح، فرفض التبعية

الفكرية والإيحاء الفكري المتوارث عائليًّا واجتماعيًّا، فأكد بذلك شخصية كل فرد واستقلاليته الفكرية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

فالمترفون عادة لا يريدون التفكير في الأسس الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية لأنهم طبقة مستفيدة من الوضع القائم، فهي لا تريد حتى التفكير في وضع جديد.

كما نبه القرآن الكريم إلى عائق آخر ذي تأثير عملي، وهو الطاعة العمياء بلا فكر لأصحاب الجاه والسلطان، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: ٦٧].

٢ - واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشط العملية الفكرية، وليخلق ملكة المقارنة، ويطور المقدرة على التفكير بشكل صحيح.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

وأفرد القرآن الكريم مكانة خاصة للذين يفكرون ويتعمقون في التفكير ويصبح تفكيرهم علمًا نافعًا للإنسان في هذه الحياة، وميزهم عن غيرهم.

وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدمة من كيفية طلب التفكير وضرورته واحترام العقل الإنساني ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وبهذا يكون المنهج القرآني وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات، وليس فيها جمود ولا تقليد، وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني وتحريره من ربقة البلادة والخمول وتنبيهه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير.

ولقد ظهرت حرية العلم والتعليم والتأليف والتفكير في أجمل مظهر في القرون الثلاث الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماء فتاواهم ومذاهبهم وعلمهم واحتج كل فريق لرأيه، ولم يكن ذلك موجبًا للمناوأة ولا لحزازات، وقد قال رسول الله ﷺ: «**نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرُب حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى مَن ليس بفقيه**».

وهذا هو المقام الذي تحقق فيه مالك بن أنس حين قال له أبو جعفر الخليفة: إني عزمت أن أكتب كتابك «يعني الموطأ» نسخًا ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها. فقال الإمام: لا تفعل يا أمير؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث، وأَخَذ كل قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله وغيرهم، وأن ردهم عن ذلك شديد، فدع الناس وما هم عليه.

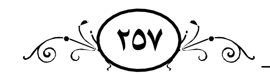
٤ - حرية التنقل: كفل الإسلام حرية التنقل لكل فرد حسبما يريد، سواء

كان ذلك داخل حدود الدولة الإسلامية أم سفرًا إلى خارجها.

ويمكن إجمال صور التنقل فيما يلي:

أ - التنقل لتحقيق نفع ديني ودنيوي:

وذلك مثل التنقل طلبًا للرزق بالطرق المشروعة، من تجارة وغيرها، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].



ومثل التنقل طلبًا للعلم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومثل السفر بقصد زيارة الأرحام والإخوان في الله، وبقصد زيارة البقاع الشريفة كمكة والمدينة.

ومثل السفر بقصد الترويح عن النفس وعلى الوجه المشروع، فالسياحة مباحة لأنها تفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين، ولا يملها القلب، بل قد تكون السياحة مندوبًا إليها إذا كانت على سبيل التدبر والاعتبار ومعرفة سنن الله تعالى في الأمم السالفة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

ب - التنقل لأداء واجب ديني:

كالسفر لأداء فريضة الحج أو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

وهذا خطاب للمؤمنين، وعقب ذلك أنزل الله تعالى في شأن المنافقين قوله: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: لو كان ما دعوتهم إليه من الخروج في سبيل الله سفرًا وسطًا ومتاعًا من الدنيا سهل المأخذ، لاتبعوك وخرجوا معك طلبًا للغنيمة.

ج- الهجرة حفاظًا على سلامة العقيدة:

أوجب الإسلام الهجرة على كل مسلم تعرض للذل أو المهانة أو خاف أن يُفتن في دينه، ووصف الذين يتقاعسون عن الهجرة مع استطاعتهم لها بأنهم من الظالمين لأنفسهم، ولم يستثنِ من ذلك إلا الفئة العاجزة فعلًا عن الهجرة؛ من كبار السن والنساء والولدان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

إن الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدَّرها حق قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو حرية التعبير، أو حرية الفكر، أو حرية التنقل، وجعل الحرية مقصدًا من مقاصده.

سابعًا: رَفْع الحرج

إن من مقاصد القرآن الكريم رفع الحرج عن المكلفين، ووردت آيات كثيرة جدًّا تبين أن هذا الدين دين يسر، وأن الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلفها إلا وسعها.

وسأبين أدلة التيسير، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلة عدم التكليف بغير الوسع والطاقة.

١- أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

وقال ﷻ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [لطلاق: ٧].

هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة.

وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم في هذه الآيات أن الله أراد لهذه الأمة اليسر ولم يرد لها العسر.

٢- أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا.

وقوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وفي سورة التوبة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجًا، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجد التعليل عامًّا، فكأن التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه رجوعًا إلى الأصل والقاعدة

٣- أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: «**قد فعلتُ**»[1].

وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والوسع: ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه،

(١) مسلم (١٢٦).

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ أي: لا يُحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه أو يحرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات وصيام أكثر من شهر، ولكن الله جلت قدرته ووسعت رحمته أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر.

ومن الأدلة على أن التكليف بحدود الوسع والطاقة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢].

وقوله سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلا وسعها، وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وكذلك في سورة الطلاق: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧].

وكذلك أيضًا في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

هذه هي الآيات التي وردت مبينة أن التكليف بحسَب الوسع والطاقة، وتبين أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم.

ثامنًا: تقرير كرامة الإنسان

▣ **يظهر التكريم الإلهي للإنسان في عدة أمور، منها:**

١- الإنسان خليفة في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريمًا للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

٢- الإنسان محور الرسالات السماوية:

إن الإنسان هو المقصود غاية وهدفًا من ابتعاث الرسل واختيار الأنبياء وإنزال الكتب والصُّحف، وإن الله ﷻ الذي جعل آدم خليفة في الأرض اقتضت حكمته، ومشيئته ورحمته بالإنسان ألا يخلقه عبثًا، وألا يتركه سُدى، وإنما تكفل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم والمنهج الأمثل وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعامًا سائغًا لوساوس الشيطان ولن يتركه نهبًا للوهم والخبط والضلال والشهوات، ولن يُسْلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

وهكذا توالت الرسل وتتابع الأنبياء وأُنزلت الكتب، وكلها تدور على محور واحد، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمين مصالح الناس بجلب النفع لهم ودفع المضار عنهم، فترشدهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشف لهم طريق الخير، وتحذرهم من الغواية والشر، وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها، إن الأحكام الشرعية، إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد

٣- تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي على اختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملأ الأعلى بإرادته عن خلق آدم، واتخاذه خليفة وسجل ذلك في اللوح المحفوظ وأنزله وحيًا يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تعظيمًا واحترامًا له؛ لأن الإرادة الإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣١].

وكرر القرآن الكريم هذا الأمر وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير

الإنسان بفضل الله تعالى أولًا، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانيًا، وليحذره من غواية إبليس ثالثًا.

٤- تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات:

صرّح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥- تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وصرّح القرآن الكريم بأن الله تعالى خلق الأنعام ومَلَّكها للإنسان، ثم ذلّلها له للركوب والأكل والمنافع والمشارب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

ووَجَّه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خوّاصه وأسراره، والانتفاع به في الحياة:

فقال تعالى عن الثروة المائية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]. وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٥ - ٨].



وقال تعالى عن الثروة الصناعية: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

٦ - تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرع عنه التفكير والإرادة والاختيار وكسب العلوم؛ لذلك كان الإنسان مسؤولًا عما يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعدّ القرآن الكريم الإنساني الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان؛ لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطلها عما خُلقت له.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢].

وقد تعددت الآيات القرآنية صراحة وإشارة في مخاطبة العقل ودعوته للتفكير، والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

وآيات كثيرة تثير العقل، وتحثه، وتؤدى بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنه الخالق المدبر.

وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنهم لا يعقلون وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات الكون التي تنطق بوجود الله تعالى.

وتوجب طاعته، وعندئذٍ ينسلخ الكافر من إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جنسكم ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: تأنسوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضامن والتعاون ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

أي: توادًّا وتراحمًا بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحِكم البالغة.

ب- حقوق الأولاد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

أَمَر الله ﷻ في هذه الآية بأن يقي المؤمنون أنفسهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد.

وهذا يتطلب الالتزام التام بأحكام الشرع أمرًا ونهيًا، وتَرْك المعاصي، وفِعْل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك.

ج- احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

ومن ذلك إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبيّن الحكمة والغاية من ذلك:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ثم بَيَّن تعالى الحكمة والغاية، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

كما أن الله حرّم الغش والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب

حقوقهم؛ لأن ذلك يخل بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساسًا في التعاقد والتعامل، حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات، وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، قال رسول الله ﷺ: «**رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان والإكراه لأن الإرادة مفقودة حقيقة في هذه الحالات، كما حرّم الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه.

د- العقوبات:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

لقد حرص المشرّعُ الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصد حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعى الكرامة الإنسانية، فنصّ على الاشياء الممنوعة والمحرمة، وحَذَّر منها ورَهَّب من ارتكابها، فإن حصل الخلل ووقع الخطأ أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسب للجريمة بما لا يمس كرامة الإنسان، فشرع القصاص ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديبًا وإصلاحًا وزجرًا وردعًا.

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلة كثيرة في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته والتحقيق معه، أم في

محاكمته وتأمين حقوقه الإنسانية ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه، أم في معاقبته وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره.

وبعد:

فإن جميع الأحكام الشرعية مُراعى فيها الناحية الإنسانية؛ لأنها ما شُرعت أصلًا إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغراء راعت إنسانية الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طَوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسل، والتكفين، والصلاة عليه، ومواراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت أو إيذائه بكلمة، أو غِيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من معنى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام.

كما يتجلى لنا التكريم الإلهي للإنسان في كل صغيرة وكبيرة وفي جميع شئون الحياة وأطوار الإنسان؛ ليكون المكرَّم، والمفضَّل، والمقدَّم عند الله، والخليفة في الأرض.

تاسعًا: تقرير حقوق الإنسان

من مقاصد القرآن الكريم تقرير حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم أو قرارًا صادرًا عن سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل ولا يُسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها.

ومن هذه الحقوق:

١- حق الحياة:

حياة الإنسان مقدسة لا يجوز لأحد أن يعتدي عليها، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ولا تُسلب هذه القدسية إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها، وكِيان الإنسان المادي والمعنوي حمى، تحميه الشريعة في حياته وبعد مماته، ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه.

٢- حق الحرية:

حرية الإنسان مقدسة - كحياته سواء - وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان، وقد بينا أن من مقاصد الشريعة الحرية وتحدثنا عن أنواعها؛ كحرية المعتقدات، وحرية التعبير، وحرية الفكر، وحرية التنقل.

ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها.

ولا يجوز لشعب أن يعتدي على حرية شعب آخر، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان ويسترد حريته بكل السبل الممكنة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١].

وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته، ويتحمل المسلمون في هذا واجبًا ولا ترخص فيه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

٣- حق المساواة:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الناس جميعًا سواسية أمام الشريعة، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله ﷺ: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[١].

الناس كلهم في القيمة الإنسانية سواء، قال رسول الله ﷺ«**كلكم لآدم وآدم من تراب**» وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وكل فكر وكل تشريع وكل وضع يُسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين - هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام.

لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كمًّا وكيفًا، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٤- حق العدالة:

من حق كل فرد أن يتحاكم إلى الشريعة وأن يتحاكم إليها دون سواها، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومن حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم، قال تعالى: ﴿لَّا

---

(١) مسلم، كتاب الحدود (٣/ ١٣١٥).

يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨].

ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك.

ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتنصفه وتدفع عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

٥ - حق الفرد في محاكمة عادلة:

البراءة هي الأصل، وهو مستصحب ومستمر حتى مع اتهام الشخص، ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية، ولا تجريم إلا بنص، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ولا يُحكم بتجريم شخص ولا يعاقب على جرم إلا بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة، قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ [النجم: ٢٨].

ولا يجوز - بحال - تجاوز العقوبة التي قدرتها الشريعة للجريمة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولا يؤخذ إنسان بجريرة غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

وكل إنسان مستقل بمسئوليته عن أفعاله، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

ولا يجوز بحال أن تمتد المسألة إلى ذويه من أهل وأقارب أو أتباع أو أصدقاء، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

٦ - حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فرد الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه، ولا توجيه اتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾ [الأحزاب: ١٥٨].

٧ - حق الفرد في حماية عِرضه وسمعته:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١].

عِرض الفرد وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها، قال رسول الله ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[١].

ويحرم تتبع عوراته ومحاولة النيل من شخصيته وكِيانه الأدبي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا

(١) صحيح مسلم، رقم (٨٨٩).

يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

٨ - حق اللجوء:

من حق كل مسلم مضطهد أو مظلوم أن يلجأ إلى حيث يأمن، في نطاق دار الإسلام، وهو حق يكفله الإسلام لكل مضطهد، أيًّا كانت جنسيته أو عقيدته أو لونه، ويحمل المسلمين واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦]. وبيت الله الحرام - بمكة المشرفة - هو مثابة وأمن للناس جميعًا لا يُصد عنه مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ٢٥].

٩ - حقوق الأقليات:

الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا، قال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [المائدة: ٤٢]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي - عندهم - لأصل إلهي: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ﴾ [المائدة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧].

١٠ - حق الدعوة والبلاغ:

لكل فرد الحق أن يشارك مع غيره أو منفردًا في حياة المجتمع: دينيًّا

واجتماعيًّا، وثقافيًّا وسياسيًّا... إلخ، وأن ينشئ من المؤسسات، ويصنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

من الحق لكل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسئولية؛ تعاونًا على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح - قرره القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]. وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

كيف لا وقد قَيَّد الله الطاعة للرسول نفسه بالمعروف، فقال في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍۙ﴾ [الممتحنة: ١٢]. وقال على لسان نبي الله صالح: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

بل إن الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات؛ لأن ما كان من الحقوق يمكن لصاحبه أن يتنازل عنه، أما الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازل عنها.

١١ - الحقوق الاقتصادية:

الطبيعة - بثرواتها جميعًا - مِلك لله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣].

وحرم عليهم إفسادها وتدميرها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

ولا يجوز لأحد أن يجرم آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فلكل إنسان الحق في العمل والمشي في مناكب الأرض سعيًا لكسب رزقه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]. حتى في يوم الجمعة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وفي الحج قال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ولكل إنسان الحق في أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك، رجلًا كان أو امرأة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ [النساء: ٣٢].

١٢ - حق حماية الملكية:

لا يجوز انتزاع ملكية نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ومع تعويض عادل لصاحبها، قال رسول الله ﷺ: «**مَن أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرَضين**»[١].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم (٢/ ١١٥).

وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشد؛ لأنه عدوان على المجتمع كله وخيانة للأمة بأسرها.

١٣ - حق العامل:

العمل: شعار رفعه الإسلام لمجتمعه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وإذا كان حق العمل الإتقان فإن حق العامل:

- أن يوفى أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له.
- أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.
- أن يُمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥].
- أن يجد الحماية التي تحول دون غبنه واستغلال ظروفه.

١٤ - حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة؛ من طعام وشراب، وملبس ومسكن... وما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله من علم ومعرفة وثقافة في نطاق ما تسمع به موارد الأمة، ويمتد واجب الأمة ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل هو بتوفيره لنفسه من ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلمه ولا يخذله**»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠).

قال ابن حزم تعليقًا على هذا الحديث: مَن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه، إن الأخوة ليست مجرد عاطفة، ولكنها عقد تكافل وتعاون وتآزر، وهو عقد طرفه الأساسي الأمة ممثلة في مستويات متراتبة تبدأ بالأسرة حيث أوجب على أفرادها التكافل في الإرث والوصية والنفقة، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]. ثم الجيرة: قال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، ثم يأتي أهل الحي ثم المجتمع كله عن طريق الزكاة وهي فريضة ملزمة ثم النفقة التطوعية.

١٦ - تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن الكريم حقوق الإنسان عامة، ولكنه عُني عناية فائقة بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة خيفة أن يجور عليهم الأقوياء، أو يهمل أمرهم الحكام والمسئولون.

نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن الكريم مكية ومدنية، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى: ٩]، وفي سورة المدثر يتحدث عن المجرمين في سقر وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٤]، وهاتان السورتان - الضحى والمدثر - من أوائل ما نزل.

وفي سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ - ٣]. فلم يكتفِ بإيجاب إطعام المسكين بل أوجب الحض على ذلك والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة علل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيم بقوله

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣ - ٣٤]، فقرن الحض على الإيمان أو قرن ترك الحض بالكفر بالله تعالى.

وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

وأَمَر بالمحافظة على مال اليتيم - إن كان له مال - إذ جعل ذلك من وصاياه العشر في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وكرر هذه الوصية في [الإسراء: ٣٤].

وفي سورة النساء وَضَع القواعد للمحافظة على مال اليتيم وحسن استغلاله وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيد شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظًّا في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة لأن الله أمر ولي الأمر بأخذها، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فإذا لم تتولَّ الدولة أخذها، كان على أرباب الأموال أداؤها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقًّا في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك، قال تعالى:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وأهم من ذلك كله: أن القرآن شرع القتال وسل السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حَرَّض أبلغ التحريض على القتال ذودًا عن حرماتهم، ودرءًا للظلم عنهم، قال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٤، ٧٥].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن للإنسان، ولا نقول: أعلنها؛ إذ كان الأمر أكبر من إعلان، إنه بلاغ من رب الناس للناس، أُسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبُني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به حضارة وتاريخ.

عاشرًا: تكوين الأسرة الصالحة

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن الكريم تكوين الاسرة الصالحة، التي هي ركيزة المجتمع الصالح ونواة الأمة الصالحة.

ولا ريب أن أساس تكوين الاسرة هو الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطًا شرعيًّا وثيق العُرى، مكين البيان، مؤسسًا على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج آية من آيات الله، مثل خلق السماوات والأرض وخَلْق الإنسان من تراب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن، وهي السكون، والمودة، والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقًا إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله، فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة، منذ الاسرة البشرية الأولى من آدم وزوجه ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة (١٩٩٤م) ومؤتمر المرأة في بكين أن يفرضاه على العالم!!

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة (الرهبانية) المنافية للفطرة، التي تحرم الزواج، وتنظر إلى

الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة ولو كانت أختًا أو أمًّا؛ لأنها أحبولة الشيطان.

وثانيها: نزعة (الإباحية) التي تطلق العِنان للغريزة بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية وأبوة راعية وبنوة بارّة وأخوة عاطفة، وتتربى في ظلها مشاعر المحبة وعواطف الإيثار والتعاون.

استهدف الشارع عدة مقاصد من تكوين الأسرة، منها:

١- حفظ النسل:

وتحقيقًا لهذا المقصد قصر الإسلام الزواج المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى، وحرّم كل صور اللقاء خارج الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب.

وفي هذا تعمير للأرض وتواصل للأجيال، قال الله جل شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

وكان من دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقال الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٥، ٦] فجاء الجواب الإلهي: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: ٧].

٢- تحقيق السكن والمودة والرحمة:

شرعت أحكام وآداب المعاشرة بالمعروف بين الزوجين حتى لا تنحصر العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

والمعروف هنا ما يقره العرف السليم، واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس لما توحي به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدفء، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ومعنى ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، فلا خصومة ولا تناقض، بل تكامل وتناسق وتعاون.

٣- حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظام التبني وأَمَرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية.

قال الله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤، ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**أيما رجل دعا إلى غير والديه أو تولى غير مواليه الذين أعتقوه، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يُقبل منه صرف ولا عدل**».

ولأجل حفظ النسب حرم الإسلام أيضًا الزنا، وشُرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده، وهي أحكام لها تفصيلها في مظانها من المراجع الفقهية.

٤- الإحصان:

يوفر الزواج الشرعي صون العفاف، ويحقق الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسد ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال.

وقد اختص الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها والارتقاء بها لا كبتها وقمعها، قال الله جل شأنه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهي شهوات مستحبة مستلذة، لكنها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى.

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث وفي غير موضع الأذى وزمانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٥- حفظ التدين في الأسرة:

الأسرة هي محضن الأفراد، ولا برعاية أجسادهم فقط، بل الأهم غرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسئولية الأسرة في هذا المجال

قبل تَكَوُّن الجنين بحسن اختيار كل من الزوجين للآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

وتستمر مسئولية الأسرة بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم واستقلالهم بالمسئولية الدينية عن تصرفاتهم...

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ٣٢].

وقال جل شأنه عن النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

❊ ❊ ❊

الحادي عشر: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومَن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق، فكَرَّم القرآن المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنسانًا وكَرَّمها بوصفها أنثى، وكَرَّمها بوصفها بنتًا، وكَرَّمها بوصفها زوجة، وكَرَّمها أمًّا، وكَرَّمها بوصفها عضوًا في المجتمع.

لقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها ولكنه يعتبرها مخلوقًا خُلق لخدمة الرجل.

فكان من فضل الإسلام أنه كَرَّم المرأة، وأكد إنسانيتها وأهليتها للتكليف والمسئولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنسانًا كريمًا له كل ما للرجل من حقوق إنسانية؛ لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكاليف والمسئولية، متساويان في الجزاء والمصير.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

وإذا كان الناس - كل الناس - رجالًا ونساءً، خلقهم ربهم من نفس واحدة وجعل من هذه النفس زوجًا تكملها وتكتمل بها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: ٢]، وبث في هذه الأسرة الواحدة رجالًا كثيرًا ونساءً، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم

واحدة، فالأخوة تجمعهم؛ ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: ١].

والرجل - بهذا النص - أخو المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**».

١- في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة:

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٢ - في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية:

يسوِّي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة: ٧١].

٣ - وفي قصة آدم توجَّه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجه سواء، قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

والجديد في هذه القصة - كما ذكرها القرآن - أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء - كما فعلت التوراة المحرفة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معًا، كما كان الندم والتوبة منهما جميعًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. كما نسب إليه التوبة وحده أيضًا: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢]، مما يفيد أنه الأصل في المعصية وامرأته تبع له.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

٤- وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء ودخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكرًا أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة وطبيعة واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

٥ - وفي الحقوق المالية للمرأة: أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عربًا وعجمًا - من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملكن واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق التملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة

والإعارة، والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن... وغير ذلك من العقود والأعمال، ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها - بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة.

٦- المرأة باعتبارها أمًّا:

لا يعرف التاريخ دينًا ولا نظامًا كرَّم المرأة باعتبارها أمًّا وأعلى من مكانتها - مثل الإسلام، لقد أكد الوصية بها وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته، وجعل برها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب لما تحملته من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية. وهذا ما يقرره القرآن ويكرره في أكثر من سورة ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ومن توجيهات القرآن الكريم أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهات صالحات، كان لهن أثر ومكان في تاريخ الإيمان.

- فأم موسى تستجيب إلى وحي الله وإلهامه، وتُلقي ولدها وفِلذه كبدها في اليمّ، مطمئنة إلى وعد ربها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

- وأم مريم التي نذرت ما في بطنها محررًا لله، خالصًا من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرها، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]. فلما كان المولود أنثى على غير ما كانت

تتوقع، لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء، قال تعالى:  ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

- ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن آية في الطهر والقنوت لله والتصديق بكلماته: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

٧- المرأة باعتبارها بنتًا:

كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات ويضيقون به، حتى قال أحد الآباء - وقد بشر بأن زوجه ولدت أنثى - : والله ما هي بنعم الولد! نصرها بكاء وبرها سرقة. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يئد ابنته - يدفنها حية - خشية من فقر قد يقع، أو من عار قد تجلبه - حين تكبر على قومها، وفي ذلك يقول القرآن منكرًا عليهم ومقرعًا لهم: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء. وبعضها الآخر - كشريعة حمورابي - تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها.

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن - هبة من الله ونعمة - يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

وبَيَّن القرآن الكريم في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثرًا وأخلد ذكرًا، من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم بنت عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكرًا يخدم الهيكل ويكون من الصالحين، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

٨- المرأة باعتبارها زوجة:

كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبر المرأة رجسًا من عمل الشيطان يجب الفرار منه واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة. وبعضها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرد آلة متاع للرجل، أو طاهٍ لطعامه أو خادم لمنزله.

فجاء الإسلام يعلن بطلان الرهبانية وينهى عن التبتل، ويحث على الزواج ويعتبر الزوجية آية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وقرر الإسلام للزوجة حقوقًا على زوجها، ولم يجعلها مجرد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثر من حافظ ورقيب، من إيمان المسلم وتقواه

أولًا، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانيًا، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثًا.

وأول هذه الحقوق (الصداق): الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعارًا منه برغبته فيها وإرادته لها، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

فأين هذا من المرأة التي نجدها في مدنيات أخرى، فتدفع هي للرجل بعض مالها، مع أن فطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق هو (النفقة): فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بالمعروف، والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٧].

وثالث هذه الحقوق هو (المعاشرة بالمعروف) قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ١٩].

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب نفسها بالممازحة والترفيه عنها.

وفي مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج - في غير معصية طبعًا - والمحافظة على ماله، فلا تنفق منه إلا بإذنه وعلى بيته، فلا تُدخل فيه أحدًا إلا برضاه ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرة ولا ظالمة في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ومن جميل ما يروى أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقف أمام المرآة يُصلح هيئته ويُعدل من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي. ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾. وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم.

ولم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزوجها ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا تُعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة؛ ولهذا عرفنا زوجات الرسول ﷺ بأسمائهن وأنسابهن، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي وكان أبوها يهوديًّا محاربًا للرسول ﷺ.

كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري وتؤجر أملاكها وتستأجر وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم.

وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثًا، وما زالت في بعض البلاد مقيَّدة إلى حدٍّ ما بإرادة الزوج.

٩- المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلام يحافظ على أنوثة المرأة حتى تظل ينبوعًا لعواطف الحنان والرقة والجمال؛ ولهذا أحلّ لها بعض ما حُرِّم على الرجال، بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلي بالذهب ولبس الحرير الخالص، كما أنه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبه بالرجال في الزي والحركة

والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال مثلما لعَن المتشبهين من الرجال بالنساء

والإسلام يحمي هذه الأنوثة ويرعى ضعفها، فيجعلها أبدًا في ظل رجل مكفولة النفقات مكفية الحاجات، فهي في كنف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها، يجب عليهم نفقتها وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها ومزاحمة الرجال بالمناكب.

والإسلام يحافظ على خُلُقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها ويصون عفافها من خواطر السوء وألسنة السوء - فضلًا عن أيدي السوء أن تمتد إليها.

ولهذا يوجب الإسلام عليها:

أ- الغض من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها:

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

ب- الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعنات لها ولا تضييق عليها: قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ج - ألا تبدي زينتها الخفية - كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين - إلا لزوجها ومحارمها الذين يشق عليها أن تستتر منهم استتارها من الأجانب: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ

﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: ٣١].

د – أن تتوقر في مشيتها وكلامها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ [النور، آية: ٣١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فليست ممنوعة من الكلام، وليس صورتها عورة، بل هي مأمورة أن تقول قولًا معروفًا.

هـ – أن تتجنب كل ما يجذب انتباه الرجل إليها ويغريه بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة، فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة.

و – أن تمتنع عن الخلوة بأي رجل ليس زوجها ولا محرْما لها صونًا لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة الزور، قال رسول الله ﷺ: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**»[1].

ز – ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية، ومصلحة معتبرة وبالقدر اللازم، كالصلاة في المسجد وطلب العلم والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تحرم المرأة من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين من ناحية، ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصون عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة.

وهو – مع هذا كله – يحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب،

---

(١) صحيح البخاري (١٠٨٨).

وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات.

وهو أيضًا - بهذا الأحكام والتشريعات - يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق، ويحمي المجتمع كله من عوامل السقوط والانحلال.

الثاني عشر: بناء الأمة الشهيدة على الناس

من أهداف الإسلام الأساسية، تكوين (الأمة) المتميزة، واستطاع النبي ﷺ تحقيق ذلك وَفق رؤية واضحة مبنية على عقيدة راسخة وشريعة حاكمة، وتَخَلَّص العرب من الفُرقة والشتات والعصبيات القبلية والنعرات الجاهلية، وانتقلوا نقلة كبيرة في عالم الفكر وعالم الشعور وعالم الواقع، وأصبحت تلك القبائل أمة واحدة، تعبد إلهًا واحدًا وتخضع لكتاب واحد وتنقاد لزعامة الرسول ﷺ المبين والمعتبر والموضح لهم التعاليم الإلهية، وأصبحت هذه الأمة لا تقوم على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية، بل هي أمة عقيد ورسالة قبل كل شيء هي أمة الإسلام أو أمة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فقد أخرج الله الأمة المسلمة - التي قادها النبي ﷺ - لتؤدي دورًا كونيًّا كبيرًا، ولتحمل منهجًا إلهيًّا عظيمًا، ولتنشئ في الأرض واقعًا فريدًا ونظامًا جديدًا، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والعطاء والتميز والتماسك، وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الحياة وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة.

ولم تنل هذه الأمة هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفة ولا جزافًا ولا محاباة، فالله ﷻ منزه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار.

وهو سبحانه عندما أخبر أن هذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس، بَيَّن وجه ذلك وعِلته في نفس الآية، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس، على أن هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة؛ إذ هناك أمور وخلال كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكن هذه الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمر هذه الخيرية ولا تُحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فُقدت هذه الأمور في جيل من أجيال هذه الأمة لم يكن حريًّا بهذه الخيرية التي حظيت بها.

الأوصاف الأساسية لهذه الأمة

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة:

١- الربانية:

الوصف الأول: الربانية، ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، هي من اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة؛ ولهذا نجد القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذا التعبير ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يفيد أن

الله هو جاعل هذه الأمة ومستخدمها وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فتعبير ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل على أن هناك مُخْرِجًا أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطًا، ولم تكن نباتًا بريًّا ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نبات مقصود متعهَّد بالعناية والرعاية.



والذي أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمة مصدرها رباني، ووجهتها ربانية كذلك؛ لأنها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله، فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٢- الوسطية:

والثاني: الوسطية التي تؤهل هذه الأمة للشهادة على الناس وثبوتها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكلمة «وسطية» شاملة جامعة، وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر، ووسطية بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين العقلانية والوجدانية، بين الفردية والجماعية، بين الثبات والتطور.

إنها الأمة التي تمثل (الصراط المستقيم) بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّديقين والشهداء والصالحين، لا صراط

المغضوب عليهم ولا الضالين.

٣- الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة، فهي أمة دعوة ورسالة، وليست أمة منكفئة على نفسها تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله - أساس تفضيلها على كل الأمم.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية رسالة لكل الأجناس، ولكل الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان، آية ١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٤- الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة، فالأمة التي يريدها الإسلام أمة الوحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات فقد صهرها الإسلام جميعًا في بوتقته، وأذاب القوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ولهذا لا يجوز أن تقول في تعبيرنا: «الأمم الإسلامية»، بل «الأمة الإسلامية» فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أممًا متفرقة كما أراد

الاستعمار، وهي أمة ذات شعوب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا بأس أن نقول: «الشعوب الإسلامية» بدل «الأمم الإسلامية».

ومن المفيد هنا أن ننبّه على قضية ذات شأن وهي: أن الإيمان بـ«الأمة» المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان، والتي تضم جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا - لا ينفي أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفرِّطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة في ظل القيادة الإسلامية العامة؛ ليكون ذلك مصدرًا إضافيًّا لحماسهم وإقدامهم حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إن حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته في جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم - نزعة فطرية لا غبار عليها ولا خطر فيها، كما لا خطر في حبه لأسرته واهتمامه بها.

إن الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقفوا موقفًا معاديًا للإسلام وحادّوا الله ورسوله، هنا تحرم الموادة والموالاة ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وبناته وبنيه وزوجه وأخيه.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ

إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

لا بأس أن يحب الرجل أسرته ويحب قومه وعشيرته وشعبه، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شيء! هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

الثالث عشر: السماحة

السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها، والسماحة سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى، يقال: سمح فلان؛ إذا جاء بمال له، قال المقنع الكندي:

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

فالسماحة أخص من الجود؛ ولهذا قابلها زياد الأعجم بالندى في قوله:

إن السماحة والمروءة والندى قي قُبَّةٍ ضُربت على ابنِ الحَشْرَج

فتدل السماحة على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى**».

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطًا بين طرفي إفراط وتفريط، فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الآية أو هذا الخبر، حتى يقول معترض: إن الأصول القطعية لا تَثبت بالظواهر. لأن أدلة هذا الأصل كثيرة منتشرة، وكثرة الظواهر تفيد القطع ولهذا قال الامام مالك بن أنس في مواضع من «الموطأ»: «ودين الله يسر» وحسبك بهذه الكلمة من ذلك الإمام فإنه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة.

إن السماحة أكمل وصف لاطمئنان النفس وأعون على قَبول الهدى والإرشاد، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة، فهي كائنة في النفوس سهل عليها قَبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

وقد أراد الله أن تكون الشريعة الإسلامية شريعة عامة دائمة، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلًا، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، بسماحتها أشدَّ ملاءمة للنفوس؛ لأن فيها إراحة النفوس في حاليْ خُوَيصتها ومجتمعها.

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، إذ أرانا التاريخ أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامهم على اتباعها - كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغ بعض الأديان من الشدة حدًّا متجاوزًا لأصل السماحة لحق أتباعه العنت ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه أو يفرِّطوا في

معظمه.

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقَدَّر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يُصيرها مشتملة على شدة انفتاح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وبقوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] ومن قواعد الفقه المشهورة: المشقة تجلب التيسير.

١ - **ومن سماحة القرآن الكريم** إنكاره على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وُجد في بعض الأديان أو عند بعض المتنطعين.

٢ - **ومن سماحة الإسلام أيضًا:** ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله ﷻ، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومَن يتأمل الآية الكريمة يجد أنها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادل بالتي هي أحسن جذبًا للقلوب النافرة وتقريبًا للأنفس المتباعدة.

٣ – من سماحة النبي ﷺ: جاء فتى من قريش إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا، فثار الصحابة وهموا به لجرأته على النبي ﷺ، ولكن النبي ﷺ وقف موقفًا آخر فقال: «**ادنه**» فدنا فقال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: أتحبه لكذا؟ فيقول: لا، جعلني الله فداك. فيقول ﷺ: «**ولا الناس يحبونه...**» فوضع ﷺ يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطَهِّر قلبه، وحَصِّن فرجه**» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

وإنما عامله النبي ﷺ بهذا الرفق تحسينًا للظن به، وأن الخير كامن فيه والشر طارئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله واطمأن قلبه إلى خبث الزنا وفحشه، وكَسَب مع ذلك دعاء النبي ﷺ.

الرابع عشر: الرحمة

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم، من حيث ذكرها والتنويه بشأنها لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدنيوية.

١– الرحمة صفة من صفات الله تعالى:

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه كثيرًا في القرآن العظيم في نحو مائتي آية، فضلًا عن تصدر كل سورة بصفتي

الرحمن الرحيم، وذلك البسملة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براءة. وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال تعالى على لسان ملائكته الكرام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقال تعالى تعليمًا للنبي ﷺ أن يقول للمشركين إن هم كَذَّبوه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبدًا، قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا، فبها يتعايشون ويؤاخون ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لا حظ للكافرين فيها.

٢- من مظاهر رحمته بخلقه:

وقد كانت أَجَلّ مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه وسيد رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلمه عليه الذي امتن به على الأمة وكشف به الظلمة وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد حَدَّث النبي ﷺ عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، فقال: «**إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».

ومن حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُدِم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تَحَلَّبَ ثديُها، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٢).

٣- حض المؤمنين على التحلي بها:

ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثهم علبها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن لينالوا أجرها وعظيم ثوابها.

وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذين عَظَّم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره، وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمة عند الكِبَر محتَّمة حيث قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) مسلم رقم (٢٧٥١).

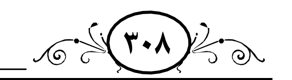
(٢) مسلم رقم (٢٧٥٤).

كما أثبتها بلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم بسبب التراحم بينهم.

وهذا دليل على أن الرحمة من أَجَلّ صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرِض الامتنان والثناء والمدح البليغ، مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى.

وقد دلَّ على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١٧، ١٨] أي: أصحاب اليمين الذين يُعطَوْن كتبهم بأيمانهم والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٤].

وقد كان رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في تحقيق هذا المقصد وهو الرحمة بالعالمين، فكانت رحمته بالمؤمنين وبالأهل والعيال وبالضعفاء والكافرين والحيوان، وكتب السيرة مليئة بالمواقف والأحاديث الدالة على ذلك.



الخامس عشر: الوفاء

والوفاء من الأخلاق الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس وصفاء الفِطر وسلامة الإيمان.

١- الترغيب في الوفاء:

رَغَّب الله تعالى في الوفاء بالعهود بما أعد الله لهم من الثواب وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقد فَصَّل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٤].

فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم، وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهلوه؟ لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الثناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله، إلا أن يكون ممن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار.

٢- الأوامر القرآنية بالوفاء في الكيل والوزن:

الوفاء في الكيل والوزن هو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قِوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه لأنه مبني على المشاحة والمقاصة.

فالوفاء فيه يُصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم؛ ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وتحدث القرآن الكريم عن شعيب عليه السلام مع قومه، فقد كان قومه بحكم موقع بلادهم الجغرافي يتحكمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق، فكانوا يفرضون على الناس ما شاءوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعيًا إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاة لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات حتى صارت أمرًا متعارفًا عليه عندهم.

فلما بعث الله شعيبًا عليه السلام استهل دعوته بمحاربة ما كانوا عليه من عبادة الاصنام والأوثان، ثم ثنى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها نقص الميزان والمكيال.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

ولهذه الآية نظائر في سورة هود، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٣، ٨٤].

وفي سورة الشعراء: ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١].

ونجد تركيز شعيب عليه السلام على معالجة هذا الانحراف المتأصل في قومه بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

وقد كان لقوم شعيب عليه السلام معاملات أخرى جائزة غير نقص المكيال والميزان، وذلك أمر متوقع ممن يمارس هذا العمل، ونجد شعيبًا عليه السلام يذكر هذه المعاملات في جملة من الأمور التي نهاهم عنها، وهي:

أ- بخس الناس أشياءهم: وذلك في قوله تعالى عنه عليه السلام: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والبخس في الأصل هو النقص، ومن أحسن ما قيل في حدِّه قول ابن العربي رحمه الله: البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه.

فالبخس على هذا أعم من نقص الميزان والمكيال، فإنه يكون في المكيل والموزون وغيرهما كالمعدودات والمقدرات، فيعم كل تصرف يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا تنقضي.

ب- الفساد في الأرض: وقد ورد في قوله تعالى عنه عليه السلام: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

والفساد في الأرض أعمّ من كل ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادة غير الله، ونقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم... وغير ذلك.

ج – قطع الطريق: قال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

في هذه الآية نهيٌ عما كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته، فيصدونه ويقولون: إنه كذاب. وهذا من الأوجه التي حُملت عليه هذه الجملة، وذُكر فيها وجهان آخران، أولهما: قطع الطريق وسلب أموال الناس. وثانيهما: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس. وجوّز الشوكاني رحمه الله حمل الحملة على هذه الأوجه كلها.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه فإنه لم يَلْقَ منهم غير العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم وتأصلها فيهم، وفي آخر الأمر ردوا عليه ردًّا قبيحًا، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضربًا من الهذيان سببه ما يدوم عليه من الصلاة، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]، فقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون به ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وسائر معاملاتهم الظالمة.

فاستهزءوا بشعيب عليه السلام وأنكروا عليه تدخله في تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون فيها كيف شاءوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عين ما يردده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا العصر، بل وفي كل عصر، يتعاطون أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الغش والخداع والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة، فإذا نُهوا عن ذلك تعللوا واحتجوا بما يسمونه بحرية الاقتصاد، واستنكروا أن يتدخل الدين في هذه الأمور.

والأجدر بهؤلاء - لا سيما المنتسبين منهم إلى الإسلام - أن يعتبروا بما حلّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك بسبب معاملاتهم الظالمة وإصرارهم عليها، أفيأمن أحدهم أن يأخذه الله بعاجل العذاب، ويجعله عبرة لأهل زمانه ولمن بعده، كما جعل قومَ شعيب عليه السلام عبرة لأهل زمانهم ولمن بعدهم والعاقل من اتعظ بغيره، لا من وُعظ به غيره، فقد كان قوم شعيب عليه السلام أهل شرك وكفر، وتطفيف للمكاييل والموازين، ولم يُجْدِ معهم دعوة شعيب عليه السلام إياهم إلى التوحيد وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عنادًا وإصرارًا، فأصابتهم الظلة وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام.

٣- الأمر بالوفاء بالعقود:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعتي، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها. وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقودًا لأنه ربطها بعباده كما يُربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق، فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجًا لهم على الوفاء بالعقود؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به.

٤- الأمر بالوفاء بالنذر:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

والنذور: جمع نذر، وهو التزام قربة لم تتعين في الشرع، ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه.

وهو ما شملته آية المائدة السابقة؛ لأنه عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى، فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب في الدنيا، إذ لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان.

ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفًا حيث قال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠].

فإذا كان النذر يعلمه الله تعالى فإن رهن المجازاة به أداء أو تفريطًا، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يَفِ به، أما أذا وفّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخُلق العظيم في كتابه الكريم.

٥- تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠].

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب العقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهدًا

ولا ميثاقًا.

ومن ذلك قوله سبحانه في سياق تَعداد صفات أهل البر من عباده: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فوصف الله تعالى أصحاب هذه الأخلاق ومنها خلق الوفاء بأنهم أهل صدق وأهل تقوى، وذلك لأنهم صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين.

فتأمل مبلغ هذا الثناء من المَلِك الجليل المتضمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة، تجد التعبير قاصرًا عن إدراك كنهه؛ لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصفين بهذه الصفات، إذ هو بحَسَب مقام المُثني والمثيب، جعلنا الله ممن نال حظا من ثنائه وجزائه الكريم، فإن جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى.

ولا غرو أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنهم قد تحلوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه وهو أصدق القائلين بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: ١١١].

كما أنه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة السلام.

فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في الوفاء، إذ وفَّى وفاء لم يُعرف عن أحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه، فلذة كبده بيده، فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتلّه للجبين ليحقق أمر الله، فلما علم الله صدقه ووفاءه فداه بذبح عظيم وناداه معبرًا عن رضاه عنه وعن وفائه بقوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ

صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

كما ابتلاه الله أيضًا بكلمات من التكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] وفّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية.

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خُلق الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقى حتفه حينما ألقوه في غيابة الجُبّ، ناهيك عما أورثوه أباهم نبي الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوانه بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض، قال تعالى عنه عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوان والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق الكريم اللائق من نبي كريم، ولا ريب فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

٦- ما أعده الله لأهل الوفاء من الأجر والجزاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٥ - ٧].

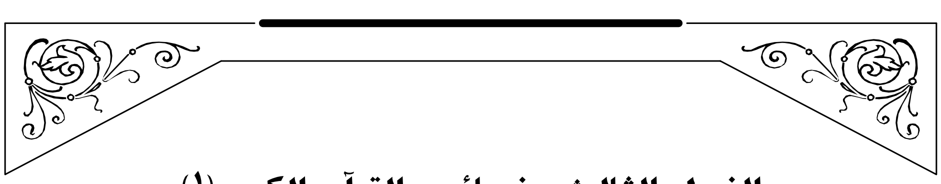
فسماهم الله تعالى أبرارًا، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ

في التوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه الله على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأَوْلى، وذلك يدل على قوة الإيمان، إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند الله تعالى إنما يكون بحسَب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه.

فهذه من أهم مقاصد القرآن الكريم، وقد تناولنا بعضها، كتصحيح المتعقد، وتقوى الله وعبادته وتزكية النفس، والحرية، والشورى، وكرامة الإنسان، وتحرير المرأة من ظلم الجاهلية، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة، والرحمة، والوفاء.





الفصل الثالث: خصائص القرآن الكريم(١)

خصائص القرآن الكريم كثيرة، منها:

أولًا: كتاب إلهي

أُولى خصائص القرآن أنه كتاب الله تعالى، الذي يتضمن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ، فهو إلهي المصدر: (١٠٠%) لفظًا ومعنى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد ﷺ عن طريق الوحي الجلي، وهو نزول (الرسول الملكي) جبريل عليه السلام على (الرسول البشري) محمد، وليس عن طرق الوحي الأخرى من الإلهام أو النفث في الرُّوع، ومن الرؤيا الصادقة أو غيرها.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سبحانه يخاطب رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزله منجمًا وَفقًا للحوادث ليكون أرسخ

---

(١) نقلًا من «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية» (ص: ٢٥) بترقيم الشاملة آليًا.

في مواجهة المحن والشدائد التي تنزل به وبأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

وحكمة أخرى، وهي أن يقرأه الرسول الكريم على المؤمنين به على مهل، وحيث يستوعبونه حفظًا وفهمًا وعملًا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولكن القرآن عند الله تعالى كتاب معلوم أوله وآخره، مسجل في أُم الكتاب أو اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون، كما صرح بذلك القرآن نفسه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وأي قارئ للقرآن - له عقل وحس - يستيقن أنه ليس كلام بشر، وأنه متميز عن كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي يتمثل في الحديث النبوي وإن كان في ذروة البلاغة البشرية، وإن وجود آية قرآنية ضمن حديث نبوي يجعل لها نورًا خاصًّا يحس به من يقرأها أو يسمعها، ويشعر أنها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها.

ومن روائع ما قال الإمام ابن القيم عن (الخطاب القرآني) قوله في كتابه (التبيان في أقسام القرآن): تأمل في خطاب القرآن تجد مَلِكًا له المُلْك كله، وله الحمد كله، أَزِمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومواردها إليه، مستويًا على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس

عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، يعطي ويمنع، يثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور نازلة من عنده، دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ويُمَجِّد نفسه ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يُذَكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويُذَكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصَوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه لصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب على شُبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويُصَدق الصادق، ويُكَذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافه وحسنها ونعيمها ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها.

ويُذَكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويُذَكرهم غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه.

ثانيًا: كتاب محفوظ

ومن خصائص القرآن: أنه كتاب محفوظ، تولى الله تعالى حفظه بنفسه، ولم يكل حفظه إلى أحد كما فعل مع الكتب المقدسة الأخرى.

وقد نوه الله سبحانه بعظمة القرآن بذكر حفظه قبل نزوله في آيات، منها:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

وأما حفظ الله تعالى للقرآن أثناء نزوله فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وأما حفظ الله تعالى للقرآن بعد نزوله فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

والصيغة تدل على التأكيد من عدة أوجه يعرفها دارسو العربية، منها: اسمية الجملة وتأكيدها بـ(إنَّ) ودخول اللام المؤكِّدة على الخبر (لحافظون).

ولحفظ الله إياه فقد بقي كما هو: طودًا أشمّ، عزيزًا لا يُقتحم حِماه، وكل محاولة لتغيير حرف منه مقضي عليها بالفشل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقد هيأ الله تبارك وتعالى للقرآن العظيم ظروفًا تختلف عن الكتب السابقة فحفظه دونها، ومن ذلك:

١- هيّأ أمة قوية في ذاكرتها وحافظتها، ذلك أن العرب الأوائل في

جاهليتهم كانوا متمكنين من ذلك حيث يروون ألوفًا من أبيات الشعر بغير تدوين، إنما يعتمدون في ذلك على الحفظ.

٢- هيّأ للقرآن العظيم سهولة الحفظ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

٣- هيّأ له أمة مستقرة ممكنة في الحفظ والفهم والأمانة، فكان الحفاظ يحفظونه على يدي رسول الله ﷺ حتى يُتقِنُوا الحفظ، ثم يُدوّنونه بعد ذلك، ويقف عليهم بنفسه في مراجعة ذلك.

٤- هيّأ له مراجعة النبي ﷺ له في الملأ الأعلى، حيث كان يحفظ ما يوحي إليه ثم يُراجعه على جبريل عليه السلام مرة كل سنة، وفي السنة الأخيرة من حياته المباركة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله ﷺ مرتين.

٥- بعد الفراغ من تدوينه لم يَعُد هناك مجال لعبث عابث، وظل الحفاظ المتقنون يراجعون كل نسخة تُكتب من المصحف مراجعة فاحصة.

ولمّا أصبح للمصحف مطابع خاصة، كُونت لجان متخصصة ومتأهلة من كبار حُفاظ العالم الإسلامي تُراجع وتُدقق كل حرف منه قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل تحقّق للقرآن العظيم ذلك الحفظ الذي قدّره الله له منذ الأزل وهو اللوح المحفوظ، وأنجز وعده الصادق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى.

❊ ❊ ❊

ثالثًا: معجز

ومن خصائص القرآن: الإعجاز، فهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ التي لم يتحدَّ العرب بغيرها، برغم ما ظهر على يديه من معجزات لا تحصى.

١- تعريف المعجزة: المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يُظهره الله على يد رسله.

٢- شروط المعجزة: ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلمس شروطها:

أ - أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعدم إغراق الماء لموسى عليه السلام وقومه وعدم سيلانه عليهم، ومثل القرآن الكريم.

ب - أن يكون الخارق من صنع الله وإنجازه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

ج - سلامتها من المعارضة.

د - أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها.

هـ - التحدي بها.

و - أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله ﷻ.

ز - تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة.

وقد توافرت هذه الشروط في إعجاز القرآن.

٣- القرآن هو المعجزة العظمى:

لما زعم المشركون أن محمدًا ﷺ هو الذي أَلَّف القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٥].

ثم تحداهم بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

ثم تحداهم بسورة واحدة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى أيضًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

فعَجَز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

إن معجزات الأنبياء تتماثل من حيث إنها حسية ومخصوصة بزمنها، أو

(١) رواه الشيخان «اللؤلؤ والمرجان» (ص ٩٣).

بمن حضرها، أو منقرضة بانقراض من شاهدها.

أما معجزة نبينا محمد ﷺ فهي القرآن الكريم، الذي لم يُعْطَ أحد مثله، وهو أفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة والحجة واستمرار تحديه في أسلوبه وبلاغته ومعانيه وأخباره، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتناء معارضيه بمعارضته فلم يقدروا ولن يقدروا، فعم نفعه مَن حضر ومَن غاب، ومَن وُجد ومَن سيوجد إلى آخر الدهر؛ ولذلك فإن محمدًا ﷺ أكثر الأنبياء اتباعًا.

هذا شرح للحديث على وجه الاجمال، وأما أسباب اختصاص نبينا محمد ﷺ على سائر الانبياء بهذه المعجزة الظاهرة، فقد بَيَّنها محمود الألوسي فقال: لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته:

- أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر من ناس دهره، فلما بُعث نبينا محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه، بما عجز عنه الفصحاء وأذعن له البلغاء وتبلد فيه الشعراء ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاته وإن اختلفت متشاكلة المعاني مختلفة العلل.

- أن المعجزة في كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم... والعرب أصح الناس أفهامًا وأحدّهم أذهانًا، فخُصّوا من معجزات القرآن بما تجول فيه أفهامهم وتصل إليه أذهانهم.

وهذه المعجزة جمعت بين الدليل لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة وبين المدلول بما فيه من بيان الإيمان وأدلته وبيان الأحكام الشرعية والقصص والأمثال والوعد والوعيد وغير ذلك من علومه التي لا تنحصر، ثم جُعل مع حفظه وتلاوته من أفضل الاعمال التي يُتقرب بها إلى الله

تعالى... ولهذا توفرت الدواعي على حفظه على مر الدهور والأعصار، ففي كل قرن ترى من حفظته ما يفوت العد والإحصاء ويستنفد نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة.

وفي قوله ﷺ: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا**» آية من آيات نبوته، كما قال النووي: فإنه أخبر عليه السلام بهذا في زمن قلة من المسلمين ثم مَنّ الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم حتى انتهى الأمر واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة، ولله الحمد على هذه النعمة وسائر نعمه التي لا تحصى.

- **توضيح هذا الإعجاز:**
- **بيان حال محمد** ﷺ:

إن وضعه ﷺ من الناحية العلمية معروف عند المشركين فهو:

- بشر مثلهم، وليس من جنس آخر.
- أمي، لا يقرأ ولا يكتب.
- تجاوز الأربعين ولم يكن معروفًا قبل ذلك بالخطابة ولا بالشعر ولا بالرياسة في مجال الكلام، بل كان يعمل بمجال بعيد عن الكلمة وهو التجارة، ولم يُحفظ عنه قبل البعثة أثر يدل على إنشائه لقصيدة أو حتى خطبة نثرية.
- أنه ﷺ أتى بكتاب نسبه إلى الله، أجمع العرب على فصاحته وبلاغته وحسن نظمه واشتماله على علوم شتى وآداب تترى.
- وقوع التحدي بهذا الكتاب.
- أن هذا التحدي قائم في وجه كل معارض للرسول.
- التحدي بأن يأتوا بسورة من مثله.

- وللمعارض أن يستعين بمن شاء من أعوان وشهداء، سواء كانوا من الجن أو من الإنس أو من الجن والإنس مجتمعين معًا.

- وجود دواعي التحدي:

- العرب أهل لغة وفصاحة وبلاغة وبيان.

- أن معارضي الرسول أهل عداوة عظيمة له وهم حريصون أشد الحرص على إبطال دعوته بأي وسيلة ومن أي طريق.

- **نتيجة التحدي صدق نبوة محمد ﷺ لأنهم:** عجزوا غاية العجز عن الإتيان بسورة من مثله، ولو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن لفعلوا، ولكنهم لم يقدروا، إذ كلام الفقير الناقص الجاهل لا يكون أبدًا مثل كلام الذي له الكمال المطلق، والغنى المطلق، والقدرة المطلقة، والعلم المطلق؛ فكما أن الله ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فبالضرورة ليس لكلامه مثيل ولا شبيه، ولا يشتبه كلامه بكلام المخلوقين إلا على من اختل عقله وغاب فؤاده، وهذا برهان ساطع ودليل قاطع على صحة ما جاء به ﷺ.

ويبقى على من عجز عن هذا التحدي قراران لا مفر من اتخاذ أحدهما:

- إما أن يؤمن بأن محمدًا ﷺ رسول من الله، وأن القرآن حقًّا كلام الله وهذا هو مقتضى العقل وسبيل الفطرة السليمة وطريق الناجين في الدنيا والآخرة.

- وإما أن يعاند وهو يعلم من نفسه أن القرآن حق. وهذا سبيل الجاحدين ومقتضى الجهل والعناد وأصحاب النفوس المريضة والقلوب السقيمة، وطريق الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقد كان هذا التحدي سببًا في إسلام الكثيرين؛ لأن القرآن بهذه الاستثارة للعقول والألباب والقلوب يدعو للتفكر في القرآن بشكل أكبر، ويجعل

الإنسان الشاك يتدبر أكثر وأكثر حتى يصل إلى النهاية المحمودة إذا كان ممن يبحث عن الحق متجردًا من الهوى.

٤- وجوه إعجاز القرآن:

قد كتب العلماء البلغاء قديمًا وحديثًا حول (إعجاز القرآن) ووجوه هذا الإعجاز، وأُلِّفت في ذلك كتب شتى: فمنهم من عُني بإخباره بالغيوب.

ومنهم من عُني بالنظم والعبارة والأسلوب أو ما يسمى بـ(الإعجاز البياني) وقد كتب فيه القدماء مثل الباقلاني والرماني والخطابي والجرجاني والرازي وغيرهم، وكتب فيه المحدثون، مثل: مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن» ومثله «مشاهد القيامة في القرآن» وطبقه في تفسيره «في ظلال القرآن» وكتاب الدكتور بدوي طبانة «بلاغة القرآن» والدكتور محمد عبد الله دراز «النبأ العظيم».

ومنهم من عُني بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي الذي جاء به القرآن، كما فعل الشيخ رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» حيث جدد التحدي بالقرآن، وبيّن المقاصد التي جاء القرآن ليحققها في الحياة، وأنه يستحيل أن يأتي بها رجل أمي في أمة أمية، وقد فاقت كل ما جاء به الفلاسفة والمصلحون، ومثل ذلك: المقالات التي كتبها العلامة محمد أبو زهرة في مجلة (المسلمون) الشهرية المصرية، تحت عنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من الله).

وفي عصرنا ظهر نوع جديد أطلق عليه (الإعجاز العلمي) ويُقصد به: ما تضمنه القرآن من إشارات ودلالات على (حقائق علمية) كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، وتعتبر سابقة لعصرها ولا يُتصور أن تصدر من رسول أمي في بيئة أمية، وفي عالم لا يعرف عن هذه الحقائق شيئًا. واشتهر

في هذا الميدان كل من الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور زغلول راغب محمد النجار.

وقد لخص الدكتور زغلول النجار جوانب الإعجاز القرآني فقال: وتتعدد جوانب الإعجاز القرآني، بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء مثله بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله ومن هذه الجوانب:

- الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي.
- الإعجاز العقدي (الاعتقادي).
- الإعجاز التشريعي.
- الإعجاز التاريخي.
- الإعجاز التربوي.
- الإعجاز النفسي.
- الإعجاز الاقتصادي.
- الإعجاز الإداري.
- الإعجاز التنبؤي.
- الإعجاز العلمي.
- إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في أسلوبه، أو مضمونه أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك.

❊ ❊ ❊

رابعًا: كتاب مبين وميسر

ومن خصائص القرآن: أنه كتاب مبين وميسر الفهم والذكر، ومع السمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم، فإنه سلسل كالماء العذب الزلال، ميسر لكل من يريد أن يعقل ويذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

لقد نوه الله تعالى بشأن القرآن العظيم وأخبر أنه يسّره وسهله ليتذكر الخلق ما يحتاجونه من التذكير، مما هو هدى لهم وإرشاد لمصالحهم الشرعية.

وسبب تيسيره: أنه نزل بأفصح اللغات وأبينها، وجاء على لسان أفضل الرسل ﷺ.

ومعنى تيسيره: يرجع إلى تيسير ما يراد منه، وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به بدون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق.

وهذا الكتاب مبين لأن الله أنزله لتُعقل معانيه، وتُفقه أحكامه، وتدرك أسراره وتتدبر آياته، فهو مبين لا غامض ولا مغلق ولا ملغز ولا معقد.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ٣].

وقد وصف الله هذا القرآن بأنه ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي استفاضت في هذا المعنى.

خامسًا: القرآن كتاب هداية للعالمين

ومن خصائص القرآن الكريم أنه كتاب هداية للعالمين أنزله الله ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

١- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢- وقال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

وقد تحقق هذا حينما اهتدى العرب بهداه فخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى قمة الحضارة والمدنية، ومن الذل والتبعية إلى السيادة والعالمية، ثم أوصلوا هدايته إلى العالم من حولهم بأمانة وتضحية وإخلاص، فإذا بالعالم يُكسى بحُلة العزة والرفعة والبهاء والجمال.

وأثبت واقع المسلمين عبر الزمن أنهم أصبحوا بتمسكهم بالقرآن أرقى الامم، وبتخلفهم عنه وأخذهم بما عند الأمم من ضلال - أخس الأمم.

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

يؤكد الله أن هذا القرآن أقوم من أي هداية يراها البشر، ولم يستطع أيُّ باحث موضوعي أن يجد خللًا في تشريع القرآن، أو أن يجد في التشريع الوضعي ما يصل إلى تشريع القرآن فضلًا عن أن يتفوق عليه، وهذا يوجب على العاقل استدامة القرآن وملازمة العمل به.

إن ما في القرآن من هداية وتشريع صالح لكل زمان ومكان، لا تبطل

قيمته، بل لا يصلح إلا هو، مهما اختلفت العصور وتنوعت الحضارات، إنه تسامى على كل قانون عرفته الأمم قديمًا وحديثًا، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدرًا أساسيًّا تقتبس منه القوانين، وإن القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب من تشريع القرآن.

وكيف لا يكون كذلك وهو تشريع رباني شامل لجميع النواحي، وكافل لإحقاق الحق وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم: المالية والاجتماعية والأسرية والدولية، في حين أنه لم يوجد إلى الآن تشريع شامل أو عادل مع ما مرّ على الإنسانية من تجارب وخبرات، حتى إن الله تحدّى العالم أن يأتوا بمثل القرآن، والمثلية تشمل جميع جوانب القرآن سواء الألفاظ والمعاني، وإذا عجزوا عما هو من جنس ما يستطيعونه ويتفوقون فيه وهو نظم القرآن، فهم أشدّ عجزًا عن تشريع القرآن وهدايته؛ لما يحتاجه إلى علم محيط بكل شيء وليس هذا إلا الله ﷻ.

٤- وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

استنكر الله تعالى على من أعرض عن تشريعه ولجأ إلى تشريع الناس، وما هذا إلا لأنه لا تشريع أحسن منه، ولا هداية مثله، فكيف يُترك إلى ما دونه؟!

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾ ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرّ، وعَدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به الضلالات والجهالات بما يضعونها بآرائهم وأهوائهم.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومَن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء.

٥- وقال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

يحثنا الله تعالى في هذه الآية على التمسك بهديه من خلال مدحه دينه بالكمال والتمام، والنفوس تتطلع إلى ما كان كذلك.

هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف... فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

وكمال دينه سبحانه وتمامه بكمال مصدره الأصل وهو القرآن الكريم؛ ولهذا لا يملك من يتلو القرآن ويتدبر معانيه إلا أن يخرّ ساجدًا لعظمة منزله.

قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١].

سادسًا: كتاب الإنسانية كلها

ومن خصائص القرآن الكريم أنه كتاب الإنسانية كلها الذي خاطب الله تعالى به جميع البشر إلى يوم القيامة، فلم يُقيد بزمان، ولا بمكان، ولا جنس ولا طبقة. بل هو موجه إلى الثقلين، خاطبهم جميعًا بما يسعدهم في الدنيا والآخرة؛ من العقائد الصحيحة والعبادات الحكيمة والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة التي تستقيم بها حياتهم.

ولقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة على عالمية القرآن.

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن العظيم:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر: ٤١].

فالقرآن لا يخاطب صنفًا واحدًا من البشر له تجاه عقلي أو نفسي معين، مغفلًا مَن عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة، كلا، إنه يخاطب كل الأصناف ويشبع كل الاتجاهات الإنسانية السوية، في توازن لا يقدر عليه إلا مُنَزِّل القرآن وخالق الإنسان.

١- إن طالب الحقيقة العقلية يجد في القرآن ما يُرضي منطقه ويأخذ بلبه إذا سمعه، يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن يعتمد على البرهان وحده في العقليات.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وعلى المشاهدة والتجربة في الحسيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وعلى الصدق وتوثيق الرواية في النقليات، قال تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

ويكفي أن مشتقات العقل مثل (يعقلون) و(تعقلون) ذُكرت في القرآن ثماني وخمسين مرة، وذُكرت مشتقات الفكر سبع عشرة مرة، وذُكرت كلمة «الألباب» - أي العقول - ست عشرة مرة، وهذا غير الآيات التي اشتملت على كلمات ومشتقات أُخَر؛ مثل: النظر والاعتبار والتدبر والحجة والبرهان والنُّهى والحكمة والعلم ونحو ذلك مما يبحث عنه طلاب الحقائق العقلية فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن.

٢- والباحث عن الحقيقة الروحية يجد في القرآن ما يُرضي ذوقه ويغذي وجدانه ويشبع نهبه وتطلعاته في آفاق الروح، في مثل قصة موسى والعبد الصالح الذي قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

يجد الباحث عن الإيمان في الخطاب القرآني ما ينشئ الإيمان البصير بالله ورسالاته ولقائه وجزائه، ويطارد الجحود والشك والنفاق.

ويقيم الأدلة الناصعة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته وواسع رحمته، وعلى بعثه رسله ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

﴿وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وعلى عدالة الجزاء في الآخرة: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

ويجلي له القرآن مصير المؤمنين نجاة وحياة طيبة في الدنيا، وفلاحًا في الآخرة، ومصير المكذبين شقاءً في الدنيا، وعذابًا في العقبى.

الإيمان في القرآن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويسامح ولا يتعصب، فهو يوجب الإيمان بكل كتاب أُنزل، وبكل نبي أُرسل، قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣- والحريص على القيم الأخلاقية يجد في القرآن ضالته وطلبته، وإذا كان موضوع الأخلاق هو الخير فالقرآن قد دل على الخير كما هدى إلى الحق وقد جعل فعل الخير إحدى شعب ثلاثة لمهمة المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ولكنه لم يكتفِ من المسلم بفعل الخير، بل طلب أن يدعو إليه ويدل عليه، قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٤- وعاشق القيم الجمالية يجد في القرآن ما ينمي حاسته الجمالية، ويغذي شعوره الفني، وذلك بما لفت إليه القرآن الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة في السماء ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

وجمال الطبيعة في الأرض ابتداء من جمال النبات، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥]. وقال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠].

وجمال الحيوانات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦].

وجمال الإنسان ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وجمال المخلوقات كلها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ووراء ذلك كله ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال بياني معجز في نظمه ومعناه وفي شكله ومضمونه، وصفه المشركون أنفسهم فقالوا: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه

سابعًا: كتاب الزمن كله

من خصائص القرآن: أنه كتاب الزمن كله، وكتاب الإنسانية كلها وكتاب الدين كله وكتاب الحقيقة كلها.

ومعنى أن القرآن كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال ثم ينتهي أمده، بل القرآن هو الكتاب الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الكتاب الصالح والمصلح لكل زمان ومكان، مهما اختلقت العصور وتنوعت الحضارات، لا تبطل قيمته، بل لا يصلح إلا هو.

إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة، بغَضِّ النظر عن أصلهم، أُنزلت إليهم لتُدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتُطهر نفوسهم، وتهذب أخلاقهم وتوجه مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة.

وقد أكد الله ﷻ أن في القرآن حلولًا لجميع قضايا البشر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

ﭐلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو ليس مجرد كتاب صلوات أو أدعية نبوية، أو غذاء للروح أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنه أيضًا القانون السياسي وكنز العلوم ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل.

ثامنًا: نزوله بأرقى اللغات وأجمعها

لقد اختار الله ﷻ اللغة العربية لتكون لغة آخر كتبه، وهذا الاختيار من الحق ﷻ لهذه اللغة العظيمة إنما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة واتساع وقدرة على الاشتقاق والنحت والتصريف وغنى في المفردات والصيّغ والأوزان.

فكل دارس للغات العالم يوقن بأن اللغة العربية هي أرقى اللغات وأجمعها للمعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة وأحسنها تهذيبًا، وأكثرها إيضاحًا وبيانًا للمطلوب؛ ولذلك أشاد القرآن الكريم بها في عدة آيات، منها:

- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: ٣].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: ٢].

لقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابًا مخاطبًا به كل الأمم في جميع العصور؛ لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية؛ لأسباب يلوح لي منها أن تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرّفًا في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظًا، وجعله جامعًا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في

نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قِوام أساليبه جاريًا على أسلوب الإيجاز؛ فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب.

تاسعًا: تصديق القرآن لكتب الله وهيمنته عليها

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومعنى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: أن القرآن العظيم رقيب على الكتب السابقة؛ لأنه يشهد بصحتها، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويُبيّنُ أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها.

أو على معنى أنه أمين عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صُدّق، وما أخبر بزيفه فهو باطل. أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة. أو على معنى أنه دال على صدقها، أي هو دليل على أنها من عند الله؛ لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا، وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

١- علاقة الهيمنة بالتصديق:

ولا شك أن مفهوم الهيمنة أتمُّ وأشمل من مفهوم التصديق؛ لأن الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها وتقرير أصولها وشرائعها، بل تتعدى ذلك فتُبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن بذلك مهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب، وشاهد بكونها من عند الله، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق، ولكنه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف وتسرّب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمفهومها إذن أتمّ وأشمل من مفهوم التصديق.

٢- مظاهر هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كتب الله المنزلة قبله - فوق ما تقدم من تصديقه لها - مظاهر متعددة، من أهمها ما يلي:

أ - إخباره بتحريف الكتب السابقة وتبديلها:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

ب - بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق:

ففي جانب العقائد على سبيل المثال نفى القرآن العظيم ما صرّحت به الأناجيل المحرفة من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وحَكَم على النصارى بالكفر لقولهم بالتثليث وألوهية المسيح، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣].

أما التوراة المحرّفة فإنها تَنسب إلى الله تعالى كثيرًا من النقائص والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها.

فلقد أخبر القرآن العظيم أن اليهود نسبوا إلى الله ﷻ الولد، كما وصفه اليهود للنبي ﷺ بالفقر والبخل وغل اليد.

فبين القرآن الكريم كذبهم وزورهم وبهتانهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

ج - بَيَّن القرآن كثيرًا من المسائل التي أخفوها:

فمن ذلك: أن الدارس لأسفار العهد القديم يرى أنها قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه - وإذا كانت اليهودية في أصلها تقرر البعث، والنشور، والحساب، والجنة والنار، كما يُنبئ بذلك القرآن - ذلك يدل على أن اليوم الآخر وما فيه وما يتصل به من المسائل التي أخفاها أهل

الكتاب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥].






الفصل الرابع

منزلة القرآن الكريم من الكتب المتقدمة(١)

القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: مهيمنًا وشاهدًا على ما قبله من الكتب، ومصدقًا لها؛ يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل، وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

---

(١) نقل من «الموسوعة العقدية» (٣/ ٣٤٩)، و«المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع» لمجموعة مؤلفين (ص: ٧٤٨) و«رسائل في العقيدة» لمحمد إبراهيم الحمد - بتصرف - (ص: ٢٩٣).

فالقرآن هو رسالة الله لجميع الخلق، وقد تكفل سبحانه بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

ولا يقبل الله من أحد دينًا إلا ما جاء في هذا القرآن العظيم.

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ أي مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب، فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا لو كان من عند الله لم يخالفه.

القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب

أصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب؛ يقال - إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده -: قد هيمن فلان عليه.

وتقول: هيمن فلان على فلان، إذا صار قريبًا عليه؛ فهو مهيمن...

ويسمى الحاكم على الناس والقائم بأمورهم: المهيمن.

ولفظ مهيمن كان أصله (مؤيمن) بالهمزة، ثم قلبت الهمزة هاء لقرب مخرجها، كما تقلب في أرقت الماء؛ فيقال: هرقت الماء. ويقال: ماء مهراق، والأصل: ماء مراق.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون أن القرآن الكريم هو المهيمن على كل الكتب قبله؛ بمعنى: أنه أمين عليها، حافظ لها، وشاهد على أنها حق من عند الله تعالى، يُصَدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما فيها من التحريف

والتبديل، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، فصارت له الهيمنة عليها من كل وجه.

نص الإجماع الذي حكاه شيخ الإسلام: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (السلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب).

فهو الأمين والشاهد على ما بين يديه من الكتب، وهو أيضًا الحاكم على كل كتاب قبله بإجماع المسلمين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (... إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لمسلم أن يحكم بين أحد إلا بما أنزل الله في القرآن، وإذا تحاكم اليهود والنصارى إلى المسلمين لم يجز لهم أن يحكموا بينهم إلا بما أنزل الله في القرآن).

وقد بَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ **السبب في احتلال القرآن هذه المنزلة العالية، والمرتبة الرفيعة بقوله:** (فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بيانًا وتفصيلًا، وبَيَّن الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل كلهم، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبَيَّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبَيَّن ما حُرِّف منها وبُدِّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبَيَّن أيضًا ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة: فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حُرِّف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات، حاكم في الأمريات).

ذِكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: تواترت

النصوص عن سلف هذه الأمة وخلفها على أن القرآن الكريم هو المؤتمن والشاهد والحاكم على ما بين يديه من الكتب.

فقد روى الطبري رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال: (المهيمن: الأمين، القرآن أمين على كل كتاب قبله).

ورُوي عنه أيضًا أنه قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب).

وقال قتادة رحمه الله: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: (أمينًا وشاهدًا على الكتب التي خلت قبله).

وعن سعيد بن جبير رحمه الله أنه قال: (القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب).

وروى الطبري عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: (مصدقًا عليه، كل شيء أنزله الله من توراة أو إنجيل أو زبور فالقرآن مصدق على ذلك، وكل شيء ذكر الله في القرآن فهو مصدق عليها وعلى ما حدث عنها أنه حق).

وجميع هذه الأقوال كما قال ابن كثير رحمه الله: (كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله).

وإنما احتل القرآن الكريم هذه المنزلة لكونه يستحيل أن يتطرق إليه التبديل والتحريف، ولا يمكن نسخه بعد وفاة النبي ﷺ، وقد ختم الله به الكتب.

قال الفخر الرازي رحمه الله: (إنما كان القرآن مهيمنًا على الكتب لأنه الكتاب

الذي لا يصير منسوخًا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

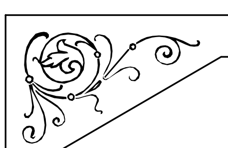
وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق وصِدق باقية أبدًا).

مستند الإجماع في المسألة: لقد نص المولى جل جلاله في كتابه العزيز على أن هذا القرآن هو الأمين على ما سبقه من الكتب، وهو الشاهد والحاكم عليها، فقال تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا، وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]).

فهو محفوظ بحفظ الله عَزَّ وَجَلَّ **إلى قيام الساعة، شاهد على هذه الكتب، مبين ما حُرِّف منها، وحاكم بما أقره الله وأمر به من أحكامها، وناسخ ما نسخه الله منها، وهو أمين عليها في ذلك كله.**

❊ ❊ ❊



الفصل الخامس
حفظ القرآن الكريم وسلامته من التحريف

المبحث الأول: حفظ القرآن في عهد النبوة[1]

أنزل الله تعالى كتابه ليكون الكتاب المهيمن، والرسالة الخاتمة، والشرعة الباقية، مما يتطلب رعايته عن عبث العابثين؛ وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

وقد اتفق له ذلك منذ اللحظة الأولى لنزوله، وحتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وللحفظ في عهد النبوة وجوه عدة، منها:

١- الطريقة التي كان ينزل بها الوحي:

وهي أنه كان ينزل على هيئة تكون أدعى إلى حفظه وضبطه: فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو**

(١) «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٣٤٥، بترقيم الشاملة آليًا)، و«منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة» لعثمان بن علي بن حسن (١/ ٦٣).

أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»[١].

٢ - مدارسة الملك النبي ﷺ القرآن:

وكان ذلك في رمضان من كل عام: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[٢].

وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه...)[٣].

٣ - كتابة الوحي ومقابلته:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه الوحي أَخْذَتْه برحاء شديدة، وعرق عرقًا شديدًا... فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة، فأكتب وهو يملي عليَّ... فإذا فرغت، قال: «اقرأ» فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أَخْرُج به إلى الناس»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) رواه البخاري (٤٩٩٨).

(٤) **حسن لغيره:** رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٨٨٩).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٧): رُوي بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

وقال السيوطي في «تدريب الراوي» (٢/ ٢٤): رجاله موثقون.

قلتُ: وأصله في البخاري (٢٨٣٢).

٤ - قصر الكتابة على القرآن:

وذلك في بادئ الأمر؛ لئلا يختلط القرآن بغيره؛ لحديث: «**لا تكتبوا عني، ومَن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحَدِّثوا عني ولا حرج...**»[١] ثم كان الإذن بالكتابة بعد أن زال سبب المنع.

٥ - الحض على تعلم القرآن وتعليمه:

فقد كان النبي ﷺ يحث أصحابه على تعلم القرآن وتعليمه، وحفظه وتحفيظه، وكان يقدم أكثرهم أخذًا للقرآن في إمامة الصلوات وقيادة السرايا، أخرج البخاري في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعَلَّمه**»[٢].

٦ - قوة الحافظة عند العرب:

فالعرب كانوا أهل حافظة لا تكاد تخطئ، وذاكرة لا يكاد يعزب عنها شيء، وخاصة أن القرآن جاء في براعة من الأسلوب ورفعة من البيان، ما يجعله أحرى لحفظه والاهتمام به، حتى كثر آخذوه صدرًا وسطرًا.

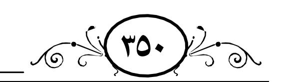
قال الباقلاني رحمه الله: (... وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعَلَمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم).

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٤).

(٢) البخاري (٥٠٢٧).



المبحث الثاني
حفظ القرآن في عهد الصحابة رضوان الله عليهم

أما حفظ القرآن في عهد الصحابة، فقد تجلى ذلك عبر حادثتين عظيمتين:

الأولى منهما: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك لما كثر القتل في حفظة كتاب الله تعالى، فخشي الصحابة ذهاب القرآن بذهاب حفظته؛ فأجمعوا أمرهم على جمعه في مكان واحد، وهو ما يسمى بالجمع الأول.

أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أرسل إليَّ أبو بكر الصديق، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك؛ وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به في جمع القرآن! قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فتتبعتُ القرآن، أجمعه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال، حتى

وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة.

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[١].

أما الحادثة الثانية: ففي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك لما ظهر النزاع بين بعض المسلمين بسبب الاختلاف في الأحرف التي يُقرأ بها القرآن، فأجمع الصحابة ومن معهم من المسلمين على جمع القرآن في مصحف واحد، وأحرقوا ما دونه من المصاحف؛ توحيدًا لقراءتهم، وجمعًا لكلمتهم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: «إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القرآن، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى!

فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك.

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا.

---

(١) البخاري (٤٦٧٩).

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[(١)].

وهكذا حُفظ كتاب الله تعالى على يد الشيخين الجليلين أبي بكر وعثمان، وهو مما يُعد في مناقبهما.

المبحث الثالث: سلامة القرآن من التحريف

إن القرآن الكريم، وهو ما بين الدفتين مما في أيدي الناس اليوم - هو الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، وهو على ما كان عليه؛ لا زيادة فيه ولا نقصا، وقد ورد إلينا متواترًا، بنقل الكافة - التي لا تقع تحت حصر ولا عد - عن مثلها حفظًا وكتابة، ولم يختلف في عصر من العصور عما في غيره، بل هو كتاب واحد، بلفظ واحد، يجتمع أهل الأرض جميعًا على قراءته دون اختلاف بينهم: لا في سورة، أو آية، أو كلمة، أو حركة.

وقد ضمن الله تعالى لكتابه السلامة من التحريف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وهذا يقتضي حفظ عينه وهيئته التي نزل عليها.

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيرها:** (لا أحد يبدل شيئًا منها بما هو أصدق وأعدل. أو: لا أحد يقدر أن يحرفها شائعًا ذائعًا كما فعل بالتوراة...

(١) رواه البخاري (٤٩٨٧).

فيكون ضمانًا لها من الله ﷻ بالحفظ).

ومن وسائل هذا الحفظ: النقل المتواتر، نقل الكافة المتكاثرة عن مثلها إلى غيرها، حفظًا وكتابة، جيلًا بعد جيل.

قال الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ: (... ثم تناقله خلف عن سلف، هم مثلهم في كثرتهم، وتوافُر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا على ما وصفنا من حاله).

لكن الرافضة الشيعة، أثاروا بعض الشبهات حول تواتر القرآن وسلامته من التحريف، أذكر أشدها، مع الجواب عن كل شبهة:

الشبهة الأولى: زعموا أن التواتر لم يتوافر للقرآن في عهد النبي ﷺ، بدليل حديث قتادة عند البخاري، قال: «سألت أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[1] وفي رواية عن أنس قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة»[2] وذكر ثلاثة من المتقدمين، وأبدل أُبي بن كعب بأبي الدرداء.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أن هذه الأحاديث ليس فيها ما هو مرفوع للنبي ﷺ، وقد وقع في تعيين الصحابة وتعدادهم اضطراب، حتى إن بعضهم أوصلهم إلى ستة، فيصير العدد لا مفهوم له.

الثاني: أن يكون المراد بالأحاديث أنه لم يَجمع القرآن من في رسول الله إلا هؤلاء الأربعة، أو أنه لم يجمعه على جميع الوجوه والأحرف التي نزل بها إلا أولئك، أو أنه لم يَجمع ما نسخ منه وأزيل رسمه بعد تلاوته مع ما

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٠)، ومسلم (٢٤٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٤).

ثبت رسمه وبقي فرض حفظه وتلاوته - إلا تلك الجماعة.

الثالث: الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ كانوا أكثر من ذلك بكثير، ويدل عليه حديث بئر معونة، حيث قُتل سبعون من القراء،[١] وقُتل مثلهم في صدر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك في موقعة اليمامة[٢].

الرابع: دواعي الحفظ لدى الصحابة وتمام الاستعداد عندهم - يحيل القول بقلة الحفظة منهم.

الشبهة الثانية: زعم الرافضة أن بعض القرآن لم يتفق له التواتر، ومثلوا لذلك بقول زيد بن ثابت: «حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]»[٣].

وبقوله - أيضًا -: «فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها، فالتمسناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فألحقناها في سورتها في المصحف»[٤].

والجواب عن هذه الشبهة يكون في مقامين:

المقام الأول: الجواب عما ادعوه في آية براءة، **وهو من وجوه:**

الأول: أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يعرف هذه الآية قبل هذه الحادثة، بدليل رواية أخرى يقول فيها: «فقدت آية كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها:

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٤)، ومسلم (٦٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٩٨٦).

(٤) رواه البخاري (٤٠٤٩).

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت؛ فأثبتناها في سورتها».

الثاني: قد شهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأُبي بن كعب أنهم سمعوها من رسول الله ﷺ.

قال الخطابي: (فقد اجتمع في هذه الآية: زيد، وأبو خزيمة، وعمر).

الثالث: أما قول زيد في رواية البخاري: «لم أجدها مع أحد غيره» فقد قال الحافظ ابن حجر: (أي: مكتوبة، كما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذٍ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي ﷺ، وإنما كان زيد يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة...).

المقام الثاني: الجواب عما ادعوه في آية الأحزاب، **وهو من وجوه:**

الأول: هذه الآية شهد بسماعها من الرسول ﷺ خزيمة الأنصاري، وشهادته تعدل شهادة رجلين بنص حديث رسول الله ﷺ[١].

الثاني: قول زيد: «فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ» يدل على معرفته إياها وأنه سمعها، وإنما كان يطلب التثبت.

الثالث: هذه الحادثة وقعت في عهد عثمان رضي الله عنه أثناء نسخ المصحف، ولا يُتصور أن تكون هذه الآية مفقودة من عهد نزول القرآن، مرورًا بالجمع الأول في عهد أبي بكر، ولا تُعرف إلا في عهد عثمان رضي الله عنه، مع حفظ الله تعالى لكتابه ودينه.

الشبهة الثالثة: زعم الرافضة أن القرآن تعرض لتحريف شديد من قِبل الصحابة أثناء عملية الجمع، وأن عثمان رضي الله عنه قد أسقط منه خمسمائة حرف،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨٤).

حتى قام أحد مشاهير الشيعة، وهو الحاج ميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي بتأليف كتاب في ذلك، سماه: «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة ومجتهديهم في مختلف العصور، بأن القرآن الكريم قد زِيد فيه ونقص منه.

وذكر هاشم البحراني - وهو أحد علماء الشيعة - في كتابه «البرهان» نصوصًا كثيرة يستدل بها على أن القرآن لم يجمعه إلا الأئمة، أي أئمة الشيعة الاثنا عشر، وقد روى أحاديث في تحريف القرآن، منها: «لو قرئ القرآن كما أنزل لألفيتنا فيه مُسمَّين» ومنها: «لولا أن زيد في كتاب الله ونقص منه ما خفي حقنا على ذي الحجى».

والجواب عن هذه الشبهة، من وجوه:

الأول: أن هذا الزعم مخالف لإجماع الصحابة والمسلمين في كل عصر، والعادة تمنع تواطؤ هذه الجموع المتكاثرة على الكذب والافتراء.

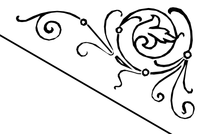
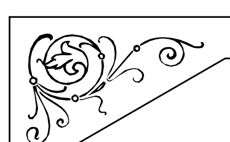
الثاني: أن علي بن أبي طالب داخل في هذا الإجماع، ولو قُدِّر أنه سكت عن إظهار الحق تقية، فلا يجوز له ذلك بعد أن أفضت إليه الخلافة وصار الأمر بيده.

الثالث: هذا الزعم مخالف لحفظ الله تعالى للقرآن: نصًّا وعقلًا وحسًّا:

أما النص فقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وأما العقل فإن الله تعالى قَدَّر أن تكون رسالة محمد ﷺ هي الخاتمة، فمُحال أن تتعرض للتحريف والتبديل؛ لأنه خلاف الحكمة والتقدير.

أما الحس فهو يشهد بأن الذي في أيدي عامة المسلمين اليوم هو القرآن الكريم، فكيف يكون القرآن الحق عند قلة من الناس، والمحرف عند الأكثرية منهم؟! وهو مع ذلك الكتابُ المهيمن والناسخ لجميع الشرائع المتقدمة.

الفصل السادس
عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم

المبحث الأول: القرآن الكريم كلام الله تعالى(١)

القرآن الكريم كلام الله تعالى... وأن إضافته إليه إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله، فالله تعالى تكلم به، وهو الذي أنزله على رسوله ليكون للعالمين نذيرا.

وهذه الحقيقة قد صرح بها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

وصرح بها صاحب الرسالة، ومبلغ القرآن الكريم محمد ﷺ في مثل قوله: «**ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا، أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٢).

---

(١) نقل من «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٣٧٢، بترقيم الشاملة آليًّا) وانظر «منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة» لعثمان علي حسن - بتصرف- (١/ ٥٦) وانظر: «النبأ العظيم» لدراز، و«الانتصار لنقل القرآن» (ص: ٥٩)، و«دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» للأستاذ موريس بوكاي (ص: ١٥٠)، و«المعجزة الكبرى - القرآن -» لمحمد أبو زهرة (ص: ٣١٠).

(٢) رواه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

وهذا القدر من الأدلة الشرعية كافٍ في حق من آمن بالله تعالى ربًّا، وبمحمد بن عبد الله رسولًا، وبالإسلام دينًا، أن يعرف مصدر القرآن الكريم، وأنه من الله تعالى، إذ الإيمان الصحيح يقتضي أن يُصَدق المؤمن الرسول ﷺ في كل ما يخبر به، وقد أخبر أن هذا الكتاب من عند الله تعالى.

أما غير المؤمن من الناس، ممن يشك في نسبة هذا القرآن إلى الله تعالى وكونه من كلامه، فمثله: إما أن يضيف القرآن إلى النبي ﷺ، أو إلى بشر يُعلّمه القرآن، أو إلى جن يُدرسه إياه.

أما الأول: وهو كون القرآن من عند محمد ﷺ، وذلك لفرط ذكائه، ونفاذ بصيرته، وشفافية روحه، مما يجعله ينشئ بزعمهم مثل هذا الكلام البديع الرصين، فترده أدلة كثيرة، هذا طرف منها:

١ - أن هذا القرآن الذي أعجز البلغاء والفصحاء قد قال صاحبه: إنه ليس من عندي، وإنما هو من عند غيري، فكيف يُنسب له بعد ذلك؟ إذ أي مصلحة تكون لعاقل يرجو لنفسه الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات، لتأييد دعواه؛ ثم تجده بعد ذلك ينسب بضاعته إلى غيره، وينسلخ عنها انسلاخًا، على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها، فيزداد بها رفعة وعظمة شأن.

٢ - أن الرجل مهما بلغ ذكاؤه وصفت سريرته، أنى له أن يأتي بذكر لأحوال الأمم الغابرة، ومسائل العقائد والشرائع، وما في الجنة والنار من النعيم والعذاب، ثم يذكر لنا بعض ما سيقع في قابل الأيام والدهور؟! كل ذلك على نحو من التفصيل والتدقيق، مع تمام السبك وقوة الأسلوب، ومن غير تضاد ولا اختلاف.

يقول الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما تضمنه القرآن من قصص الأولين، وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أكثر ملاقاة الأمم، ودراسة الكتب، مع العلم بأن النبي ﷺ لم يكن يتلو كتابًا، ولا يخالط أهل السير).

٣ - قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فكيف يجرؤ بشر على هذا التحدي العظيم؛ وقد علم ما عليه قومه من البيان والفصاحة؛ بل تحداهم حاضرًا ومستقبلًا! لَعَمْرُ الله، إنها لمخاطرة لا يُقْدِم عليها عاقل يتصور ما يقول، فضلًا عن نبي كريم يرجو لرسالته أن تنتصر ولدعوته أن تنتشر.

٤ - التناسب في جميع ما تضمنه القرآن من الأخبار والعقائد، والأحكام من غير اختلاف ولا تعارض ولا تضاد، الأمر الذي لا يُنتظر من بشر، أن يَسْلم كلامه من الاختلال والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٥ - الاتفاق التام بين إشارات القرآن الكريم إلى بعض العلوم الكونية وبين معطيات العلم الحديث؛ الأمر الذي أثار دهشة كثير من الباحثين الغربيين المعاصرين، حيث تعرض القرآن الكريم لقضايا علمية دقيقة - نحو ما يتعلق بعلم الأجنة - لم تُكتشف وسائل معرفتها إلا بعد عصر نزول القرآن بعدة قرون.

وأما الثاني: وهو أن يكون النبي ﷺ قد تعلم القرآن من غيره، فهذا الغير إما أن يكون إنسيًّا أو جنيًّا، والإنسي إما أن يكون من بني قومه أو من أهل الكتاب:

أما كون النبي ﷺ قد تعلم القرآن عند بعض قومه، فهذا فاسد من وجهين:

١ - أن النبي ﷺ نشأ أميًّا، بين ناس أميين، لا يعرفون غير علم البيان والفصاحة، وما يتصل بهما، وكانوا منعزلين بشركهم عن أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

ففي الآية إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، وليس لهم به دراية.

٢ - لم يَدَّعِ واحد من العرب - مع شدة تكذيبهم - نسبة هذا القرآن إلى نفسه.

ثم إن الله تعالى قد تحدى به بلغاءهم وفصحاءهم على أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يتعرض واحد منهم لذلك، اعترافًا بالحق، وربئا بالنفس عن تعريضها للافتضاح، وهم أهل القدرة في فنون الكلام نظمًا ونثرًا، وترغيبًا وزجرًا.

أما كون المعلم من أهل الكتاب، فهذا يرده ما يلي:

١ - لم يذكر واحد من المصادر التاريخية جلوس النبي ﷺ بين يدي أحبار اليهود أو رهبان النصارى بغية التعلم والمدارسة.

أما مقابلته بحيرا الراهب، فقد كانت قبل النبوة بفترة من الزمن، وكانت وجيزة في وقتها؛ لا يُعقل أن يتلقى فيها كل هذا العلم، ثم إنها كانت بحضور عمه أبي طالب وغيره، ولو وجدوا في تلك المقابلة ما يُبطل دعوى الرسول ﷺ النبوة لأفشوه إلى قريش، بل إن بحيرا لما لاحت له تباشير النبوة، همس بها على أبي طالب، حاثًّا له على المحافظة على ابن أخيه من يهود.

وأما مقابلته ﷺ ورقة بن نوفل – ابن عم زوجه خديجة رضي الله عنها –، وذلك بعد النبوة، فكانت لأجل اطمئنان زوجه عليه، وورقة كان شيخًا كبيرًا قد عمي، ولم يلبث أن تُوفي، وذلك قبل فترة الوحي؛ مما يحيل دعوى تعلم الرسول ﷺ منه شيئًا.

٢ – أن الله تعالى رد على الذين قالوا: «إنما يعلّمه بشر» ذلك حين زعم المشركون في مكة أن النبي ﷺ كان يجلس إلى بعض غلمان النصارى يتعلم منهم، فَرَدَّ الله عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

٣ – أن القرآن الكريم قد شنع بأهل الكتاب ودحض شبهاتهم وأغاليطهم، ثم دعاهم إلى الإيمان بالرسول الكريم والاستجابة للذكر الحكيم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

فكيف يُعقل بعد ذلك أن يكون اليهود والنصارى مصدر القرآن ومنبعه، وهذه حالهم من الإعراض عنه والكفر به، وبمن أُنزل عليه؟!

وأما أن يكون المعلم جنيًّا، فحال النبي ﷺ بين قومه ولبوثه فيهم عمرًا طويلًا، وهو أحسنهم خلقًا، وأعظمهم عقلًا، وأثبتهم نفسًا، وأرسخهم فهما؛ كل ذلك وغيره يحيل أن يكون ﷺ ملاذ الشياطين ومحل وساوسهم،



بل إن الشياطين لأعجز من أن تأتي بهذا الكلام. . .

أما إضافة قريش القرآن إلى السحر والجن، فهذا حينما أعيتهم الحجة وعجزوا عن الإتيان بمثله على سبيل الجزم والإيقان.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن القرآن كلام الله تعالى: - حروفه ومعانيه - منه بدأ وإليه يعود، منزل غير مخلوق، تكلم الله به حقًّا، وأوحاه إلى جبريل، فنزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ. أنزله الحكيم الخبير بلسان عربي مبين، ونُقل إلينا بالتواتر الذي لا يرقى إليه شك ولا ريب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

والقرآن الكريم: مكتوب في اللوح المحفوظ، وتحفظه الصدور، وتتلوه الألسن، ومكتوب في الصحف، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

والقرآن الكريم: المعجزة الكبرى الخالدة لنبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ وهو آخر الكتب السماوية؛ لا يُنسخ ولا يبدل، وقد تكفل الله بحفظه من أي تحريف، أو تبديل، أو زيادة، أو نقص إلى يوم يرفعه الله تعالى، وذلك قبل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وأهل السنة والجماعة: يُكَفِّرون من أنكر حرفًا منه أو زاد أو نقص.

وعلى هذا فنحن نؤمن إيمانًا جازمًا بأن كل آية من آيات القرآن مُنَزلة من عند الله، وقد نُقلت إلينا بطريق التواتر القطعي.

والقرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة على رسول الله ﷺ بل نزل منجمًا،

أي مفرقًا حسب الوقائع، أو جوابًا عن أسئلة، أو حسب مقتضيات الأحوال في ثلاث وعشرين سنة.

والقرآن الكريم يحتوي على (١١٤) سورة: (٨٦) منها نزلت في مكة، و(٢٨) منها نزلت في المدينة. وتسمى السور التي نزلت قبل الهجرة النبوية بالسور المكية، والسور التي نزلت بعد الهجرة بالسور المدنية. وفيه تسع وعشرون سورة افتتحت بالحروف المقطعة.

وقد كُتب القرآن في عهد النبي ﷺ وبمرأى منه؛ حيث كان للوحي كَتَبة من خيرة الصحابة ﷺ يكتبون كل ما نزل من القرآن وبأمر من النبي ﷺ. ثم جُمع في عهد أبي بكر بين دفتي المصحف، وفي عهد عثمان على حرف واحد؛ رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأهل السنة والجماعة: يهتمون بتعليم القرآن وحفظه، وتلاوته، وتفسيره، والعمل به، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. ويتعبدون لله تعالى بقراءته...

وأهل السنة والجماعة: لا يُجوزون تفسير القرآن بالرأي المجرد؛ فإنه من القول على الله ﷻ بغير علم ومن عمل الشيطان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

بل يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم باللغة العربية التي نزل بها القرآن[١].

---

(١) «الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة» عبد الله بن عبد الحميد الأثري (ص١٣٥)، و«الموسوعة العقدية» (٣/ ٣٧٣).

المبحث الثاني: كلام الله في كتابه هو الحروف والمعاني

قال العلامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح قوله من منظومة (سلم الوصول)(١):

وَالْقَوْلُ فِي كِتَابِهِ المُفَصَّلْ ... بِأَنَّهُ كَلامُهُ المُنَزَّلْ

قال: (والقول) الذي نعتقده وندين به (في) شأن (كتابه المفصلْ) بسكون اللام للرَّوِيِّ، وهو القرآن وصفه الله تعالى بذلك فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ٣] وقال الله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤] وغير ذلك من الآيات (بأنه كلامه) حقيقة حروفه ومعانيه ليس كلامه الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف، قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾ [الفتح: ١٥].

فهذه النصوص التي سبقت على أن القرآن كلام الله تكلم به حقيقة، وأنه هو الذي قال تبارك وتعالى: الٓمِ، الٓمِصَ، الٓمِرَ، كٓهيٓعٓصٓ، طَهَ، طَسِ، طَسِمِ، حَمِ، عِسِقَ.

وليس كلام الله المعاني دون الحروف ولا الحروف دون المعاني، بل حروفه ومعانيه عين كلام الله.

---

(١) (٢٥٨/١).

المبحث الثالث: القرآن ليس بمخلوق كما يقوله الزنادقة

القرآن (ليس بمخلوق) كما يقول الزنادقة من الحلولية والاتحادية والجهمية والمعتزلة وغيرهم، تعالى الله عن أن يكون شيء من صفاته مخلوقًا! قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأخبر تعالى أن الخلق غير الأمر وأن القرآن من أمره لا من خلقه وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فـ«كنْ» من كلامه الذي هو صفته ليس بمخلوق والشيء المراد المقول له (كن) مخلوق. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩] فعيسى وآدم مخلوقان بـ(كن) و(كن) قول الله صفة من صفاته وليس الشيء المخلوق هو (كن) ولكنه كان بقول الله له (كن).

وقد انعقد إجماع سلف الأمة الذين قضَوا بالحق وبه كانوا يعدلون - على تكفير من قال بخلق القرآن؛ وذلك لأنه لا يخلو قوله من إحدى ثلاث:

إما أن يقول: إنه (خلقه في ذاته) أو (في غيره) أو (منفصلًا مستقلًّا). وكل الثلاث كفر صريح:

لأنه إن قال: (خلقه في ذاته) فقد جعل ذاته محلًّا للمخلوقات.

وإن قال: (إنه خلقه في غيره) فهو كلام ذلك الغير فيكون القرآن على هذا كلام تالٍ له، وهذا قول الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ

﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٩] الآيات.

وإن قال: (إنه خلقه منفصلًا مستقلًّا) فهذا جحود لوجوده مطلقًا إذ لا يُعقل ولا يُتصور كلام يقوم بدون متكلم، كما لا يُعقل سمع بدون سميع ولا بصر بدون بصير ولا علم بدون عالم ولا إرادة بدون مريد ولا حياة بدون حي... إلى غير ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

فهذه الثلاث لا خروج لزنديق منها ولا جواب له عنها، فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[١].

المبحث الرابع: أصل القول بخلق القرآن

أول ما اشتهر القول بخلق القرآن في آخر عصر التابعين لما ظهر جهم بن صفوان شقيق إبليس لعنهما الله، وكان ملحدًا عنيدًا وزنديقًا مبتغيًا غير سبيل المؤمنين، لا يُثبت أن في السماء ربًّا ولا يصف الله تعالى بشيء مما وصف به نفسه، وينتهي قوله إلى جحود الخالق ﷻ. تَرَكَ الصلاة أربعين يومًا يزعم أنه يرتاد دينًا. ولما ناظره بعض السمنية في معبوده قال قبحه الله: هو هذا الهواء في كل مكان. وافتتح مرة سورة طه فلما أتى على هذه الآية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] قال: لو وجدت السبيل إلى حكها لحككتها.

---

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» لحافظ بن أحمد الحكمي (١/ ٣٢٥)، و«الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٣٧٤).

ثم قرأ حتى أتى على آية أخرى فقال: ما كان أظرف محمدًا حين قالها!! ثم افتتح سورة القصص فلما أتى على ذكر موسى جمع يديه ورجليه ثم رفع المصحف ثم قال: أي شيء هذا؟! ذَكَره ههنا فلم يُتم ذكره، وذَكَره ههنا فلم يُتم ذكره.

وقد روى عنه غير هذا من الكفريات، وهو أذل وأحقر من أن نشتغل بترجمته.

وقد يَسَّر الله تعالى ذبحه على يد سالم بن أحوز بأصبهان، وقيل: بمرو، وهو يومئذٍ نائبها رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيرًا.

وقد تلقى هذا القول عن الجعد بن درهم لكنه لم يشتهر في أيام الجعد كما اشتهر عن الجهم، فإن الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ولم يكن له كثير أتباع غيره.

ثم يَسَّر الله تعالى قتل الجعد على يد خالد بن عبدالله القسري الأمير، قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك لأن خالدًا خطب الناس فقال في خطبته تلك: أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم! إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر.

روى ذلك البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد»[1]. وهو مشهور في كتب التواريخ، وذلك سنة أربع وعشرين ومائة.

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٢٩). وقال الألباني في «مختصر العلو» (ص٧٥): صحيح لغيره.

وقد أخذ الجعد بدعته هذه من بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ وأنزل الله تعالى في ذلك سورة المعوذتين.

ثم تقلد هذا المذهب المخذول عن الجهم بن غياث بن أبي كريمة، المريسي المتكلم، شيخ المعتزلة وأحد مَن أضلَّ المأمونَ وجدد القول بخلق القرآن ويقال: إن أباه كان يهوديًّا صباغًا بالكوفة، ورُوي عنه أقوال شنيعة في الدين من التجهم وغيره، مات سنة ثماني عشرة ومائتين.

ثم تقلد عن بشر ذلك المذهب الملعون قاضي المحنة أحمد بن أبي داود، وأعلن مذهب الجهمية وحَمَل السلطانَ على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن وعلى أن الله لا يُرى في الآخرة، وكان بسببه ما كان على أهل الحديث والسنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك، وقد ابتلاه الله تعالى بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى أهلكه الله تعالى سنة أربعين ومائتين.

ومن أراد الاطلاع على ذلك وتفاصيله فليقرأ كتب التواريخ ير العجب.

المبحث الخامس: ما قاله أئمة السنة في القرآن، وحكمهم على من قال بخلق القرآن

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: من قال: (القرآن مخلوق) فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله وفيه أسماء الله.

وقال: إذا قال الرجل: (العلم مخلوق) فهو كافر لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه.

وقال رحمه الله تعالى: من قال: (القرآن مخلوق) فهو عندنا كافر لأن

القرآن من علم الله[١] قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥] وقال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [هود: ١٧] قال أحمد: قال سعيد بن جبير: والأحزاب الملل كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧] وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: من قال ذاك القول لا يصلى خلفه الجمعة ولا غيرها، فإن صلى خلفه أعاد الصلاة. يعني: من قال: (القرآن مخلوق)[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا كان القاضي جهميًّا فلا تشهد عنده[٣].

وقال إبراهيم بن طهمان: الجهمية كفار، والقدرية كفار[٤].

وقال سليمان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس قوم أشد بُغضًا للإسلام من الجهمية والقدرية: فأما الجهمية فقد بارزوا الله، وأما القدرية فإنهم قالوا في الله.

---

(١) رواه عبد الله في «السنة» (١/ ١٠٢، ١٠٣).

(٢) رواه عبد الله في «السنة» (١/ ١٠٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) رواه عبد الله في «السنة» (١/ ١٠٣ - ١٠٤).

وقال سلام بن أبي مطيع: الجهمية كفار لا يصلى خلفهم(١).

وقال خارجة: الجهمية كفار، بَلِّغوا نساءهم أنهن طوالق وأنهن لا يحللن لأزواجهن، لا تعودوا مرضاهم ولا تشهدوا جنائزهم!! ثم تلا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣] إلى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥](٢).

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من قال: (القرآن مخلوق) يوجع ضربًا ويُحبس حتى يتوب(٣).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من زعم أن قول الله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٩] مخلوق، فهو كافر زنديق حلال دمه(٤).

حنيفة بالتشبيه فإنه قال: أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشيء. وأفرط مقاتل في معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه.

وتابع أبا حنيفة على ذلك جماعة من أئمة الجرح والتعديل من أقرانه كأبي يوسف وغيره فمن بعدهم حتى قال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم وكان يُشَبه الرب بالمخلوق وكذبه وكيع وغيره والله أعلم بحاله. قال وكيع: مات مقاتل بن سليمان سنة خمسين ومائة. اهـ.

وقال عبد الله بن المبارك: الجهمية كفار.

---

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٣٤)، وعبد الله في «السنة» (١/ ١٠٥)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) رواه عبد الله في «السنة» (١/ ١٠٥ - ١٠٦).

(٣) رواه أحمد في «العلل» (٣/ ١٨١)، وعبد الله في «السنة» (١/ ١٠٦، ١٠٧).

(٤) رواه عبد الله في «السنة» (١/ ١٠٧).

وقال: ليس تعبد الجهمية شيئًا.

وقال: مَن قال: (القرآن مخلوق) فهو زنديق.

وقال: إنا نستجيز أن نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستجيز أن نحكي كلام الجهمية.

وقال سفيان بن عيينة: القرآن كلام الله، مَن قال: (مخلوق) فهو كافر، ومن شك في كفره فهو كافر.

وقال: مَن قال: (القرآن مخلوق) يحتاج أن يُصلب على ذباب. يعني: جبل.

وقال عبد الله بن إدريس رَحِمَهُ اللَّهُ **وقد سئل: ما تقول في الجهمية يصلى خلفهم؟ فقال:** أمسلمون هؤلاء؟ لا ولا كرامة، لا يصلى خلفهم.

وقال له رجل: يا أبا محمد، إن قِبلنا ناسًا يقولون: القرآن مخلوق. فقال: من اليهود؟ قال: لا. قال: فمن النصارى؟ قال: لا. قال: فمن المجوس؟ قال: لا. قال: فمن؟ قال: من الموحدين. قال: كذبوا، ليس هؤلاء بموحدين، هؤلاء زنادقة هؤلاء زنادقة. وقرأ ابن إدريس: بسم الله الرحمن الرحيم فقال: الله مخلوق؟ والرحمن مخلوق؟ والرحيم مخلوق؟ هؤلاء زنادقة.

وسئل عن قوم يقولون: (القرآن مخلوق) فاستشنع ذلك وقال: سبحان الله! شيء منه مخلوق؟!

وقال وكيع: فإني أستتيبه فإن تاب وإلا قتلته.

وقال: من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث، ومن زعم أنه محدث فقد كفر.

وقيل له: إن فلانًا يقول: (إن القرآن محدث) فقال: سبحان الله! هذا

كفر.

وقال السويدي: وسألت وكيعًا عن الصلاة خلف الجهمية فقال: لا تصلِّ خلفهم.

وقال: من زعم أن القرآن مخلوق؛ فقد زعم أنه محدث يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه.

وقال زهير بن حرب: اختصمتُ أنا ومثنى فقال مثنى: (القرآن مخلوق)، وقلت أنا: (كلام الله)، فقال وكيع وأنا أسمع: هذا كفر. وقال: من قال: (القرآن مخلوق) هذا كفر؛ فقال المثنى: يا أبا سفيان قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] فإيش هذا؟ فقال وكيع: من قال: (القرآن مخلوق) هذا كفر وقال: من قال: (القرآن مخلوق)؛ فهو كافر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القرآن كلام الله أنزله جبريل على رسول الله ﷺ كل صاحب هوى يعرف الله ويعرف من يعبد إلا الجهمية لا يدرون من يعبدون بشر المريسي وأصحابه.

وقيل لوكيع في ذبائح الجهمية فقال: لا تؤكل هم مرتدون.

وقال: من قال: (إن كلامه ليس منه) فقد كفر.

وقال: من قال: (إن منه شيئًا مخلوقًا) فقد كفر.

وقال فطر بن حماد: سألت معتمر بن سليمان فقلت: يا أبا محمد إمام لقوم يقول: (القرآن مخلوق) أُصلي خلفه؟ فقال: ينبغي أن تُضرب عنقه.

قال فطر: وسألت حماد بن زيد فقلت: يا أبا إسماعيل، إمام لنا يقول: (القرآن مخلوق)، أصلي خلفه؟ فقال: صَلِّ خلف مسلم أحبّ إليّ.

وسألت يزيد بن زريع فقلت: يا أبا معاوية، إمام يقول: (القرآن مخلوق) أصلي خلفه؟ قال: لا، ولا كرامة.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضُربت عنقه. وقال مرة: لا أرى أن تستتاب الجهمية.

وقال رحمه الله تعالى: لو كان لي من الأمر شيء لقمت على الجسر فلا يمر بي أحد من الجهمية إلا سألته عن القرآن فإن قال: (مخلوق) ضربت رأسه ورميت به في الماء.

وقال أبو بكر بن الأسود: لو أن رجلًا جهميًّا مات وأنا أرثه ما استحللت أن آخذ من ميراثه.

وقال أبو يوسف القاضي: جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط، يقول في القرآن. يعني: مخلوق.

وقال يزيد بن هارون وذكر الجهمية فقال: هم والله زنادقة عليهم لعنة الله.

وقال رحمه الله تعالى: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، من قال القرآن: (مخلوق) فهو زنديق. وسئل عن الصلاة خلفهم قال: لا.

وقال معاذ بن معاذ: من قال: (القرآن مخلوق) فهو كافر.

وقال شبابة بن سوار: اجتمع رأيي ورأي أبي النضر هاشم بن قاسم وجماعة من الفقهاء على أن المريسي كافر جاحد نرى أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وكان أبو توبة الحلبي ونعيم بن حماد وإبراهيم بن مهدي يكفرون الجهمية.

وقال بشر بن الحارث: لا تجالسوهم ولا تكلموهم وإن مرضوا لا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم، كيف يرجعون وأنتم تفعلون بهم هذا؟!

وقال أبو الأسود النضر بن عبد الجبار: القرآن كلام الله، ومن زعم أنه مخلوق فهو كافر، هذا كلام الزنادقة.

وقال عباد بن عوام: كلمت بِشرًا المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم

ينتهي أن يقولوا: ليس في السماء شيء.

وقال عمرو بن الربيع بن طارق: القرآن كلام الله، من زعم أنه مخلوق فهو كافر.

وقال هارون أمير المؤمنين: بلغني أن بشرًا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق؛ فهو يعبد صنمًا.

وقال يحيى بن معين رحمه الله تعالى: من قال: (القرآن مخلوق) فهو كافر.

وقال رجل لهيثم: إن فلانًا يقول: (القرآن مخلوق)؛ فقال: اذهب إليه فاقرأ عليه أول الحديد وآخر الحشر، فإن زعم أنهما مخلوقتان فاضرب عنقه.

وقال أبو هشام الغساني مثله.

وقال أبو عبيد: من قال: (القرآن مخلوق) فقد افترى على الله وقال عليه ما لم تقله اليهود والنصارى.

وقال إسحاق بن البهلول لأنس بن عياض أبي ضمرة: أصلي خلف الجهمية؟ قال: لا، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وسئل عيسى بن يونس رحمه الله تعالى: عمن يقول: (القرآن مخلوق) فقال: كافر. أو: كفر. فقيل له: تكفرهم بهذه الكلمة؟!

قال: إن هذا أيسر أو أحسن ما يُظهرون.

وكان يحيى بن معين رحمه الله تعالى يعيد صلاة الجمعة مذ أظهر عبد الله بن هارون المأمون ما أظهر. يعني القول بخلق القرآن.

وقال الحسين بن إبراهيم بن أشكاب وعاصم بن علي بن عاصم وهارون الفروي وعبد الوهاب الوراق وسفيان بن وكيع: القرآن كلام الله وليس بمخلوق.

وسئل جعفر بن محمد رحمه الله تعالى عن القرآن فقال: ليس بخالق ولا بمخلوق ولكنه كلام الله. وروى عن أبيه علي بن الحسين أنه قال في القرآن: ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله.

وقال الزهري: سألت علي بن الحسين عن القرآن فقال: كتاب الله وكلامه.

وعن إبراهيم بن سعد وسعيد بن عبدالرحمن الجمحي ووهب بن جرير وأبي النضر هاشم بن القاسم وسليمان بن حرب قالوا: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وقال سفيان بن عيينة: لا نحسن غير هذا، القرآن كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وقال الإمام مالك بن أنس وجماعة من العلماء بالمدينة وذكروا القرآن فقالوا: كلام الله وهو منه، وليس من الله شيء مخلوق

وقال حماد بن زيد رحمه الله تعالى: القرآن كلام الله أنزله جبريل من عند رب العالمين.

وقال أبو بكر بن عياش: من زعم أن القرآن مخلوق فقد افترى على الله.

وقال وكيع: القرآن من الله، منه خرج وإليه يعود.

وقال يحيى بن سعيد: كيف يصنعون بقل هو الله أحد كيف يصنعون بهذه الآية ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] يكون مخلوقًا؟!

وقال وهب بن جرير ومحمد بن يزيد الواسطي وابن أبي إدريس وأبو بكر ابن أبي شيبة وأخوه عثمان بن أبي شيبة وأبو عمر الشيباني ويحيى بن أيوب وأبو الوليد وحجاج الأنماطي ويحيى بن معين وأبو خيثمة وإسحاق بن أبي إسرائيل وأبو معمر: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وقال أبو عمرو الشيباني لإسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: (القرآن مخلوق) فقال الشيباني: خلقه قبل أن يتكلم به أو بعدما تكلم به؟ قال: فسكت.

وقال حسن بن موسى الأشيب: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فقال حسن: (مخلوق هذا؟!).

وقال الشافعي رحمه الله تعالى في وصيته: القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقال عفان بن مسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١] أمخلوق هذا؟ أدركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون: القرآن كلام الله ليس مخلوقًا.

وقال يحيى بن يحيى: من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوقة فهو كافر.

وقال هشام بن عبيد الله: القرآن كلام الله غير مخلوق. فقال له رجل: أليس الله تعالى يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فقال: محدث إلينا، وليس عند الله محدث.

وقال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي رحمه الله تعالى: ليس بين أهل العلم خلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فكيف يكون شيء خرج من الرب ﷿ مخلوقًا؟!

وقال أبو جعفر النفيلي: من قال: (إن القرآن مخلوق) فهو كافر. فقيل: يا أبا جعفر الكفر كفران كفر بالنعمة وكفر بالرب ﷿؟ قال: لا. بل كفر بالرب ﷿ ما تقول فيمن يقول: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١] مخلوق؟

أليس كافر هو؟

وقال عبد الله بن محمد العيشي: يستحيل في صفة الحكيم أن يخلق كلامًا يدعي الربوبية. يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢].

قلت: والمعتزلة يقولون إن كلام الله لموسى خلقه في الشجرة فعلى هذا تكون الشجرة. هي القائلة: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤] قبحهم الله في الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع صفاته وحيث تصرف.

وأما كلام البخاري رحمه الله تعالى ومتانته في هذه المسألة فأشهر من أن يحتاج إلى تعريف وله في ذلك كتاب «خلق أفعال العباد» وقد بوّب في (صحيحه) على جملة وافية تدل على غزارة علمه وجلالة شأنه.

وقال أبو حاتم وأبو زرعة: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، فكان من مذهبهم أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته، والقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن الله تعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بلا كيف، أحاط بكل شيء علمًا، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال محمد بن أسلم الطوسي: القرآن كلام الله غير مخلوق أينما تُلي وحيثما كُتب، لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل.

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى في كتاب «التوحيد» بعد تبويبه على تكليم الله موسى عليه الصلاة والسلام: وتكليم الله بالوحي وصفة نزول الوحي وتكليم الله عباده يوم القيامة وتقرير البحث في

ذلك.

ثم قال: باب ذكر البيان في كتاب ربنا المنزل على نبيه المصطفى ﷺ ومن سنة نبينا محمد ﷺ على الفرق بين كلام الله ﷻ الذي به يكون خلقه وبين خلقه الذي يكون بكلامه وقوله والدليل على نبذ قول الجهمية الذين يزعمون أن كلام الله تعالى مخلوق، جل ربنا وعز عن ذلك.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ففَرَّق الله تعالى بين الخلق والأمر الذي به يخلق الخلق بواو الاستئناف، وأعلمنا الله جل وعلا في محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله: «كن فيكون» وقوله: «كن» هو كلامه الذي به يكون الخلق، وكلامه ﷻ الذي به يكون الخلق غير الخلق الذي يكون مكونًا بكلامه، فافهم ولا تغلط ولا تغالط.

ومن عقل عن الله خطابه علم أن الله سبحانه لما أعلم عباده المؤمنين أنه يكون الشيء بقوله: «كن» أن القول الذي هو كن غير المكون بكن المقول له كن، وعقل عن الله أن قوله: «كن» لو كان خلقًا على ما زعمت الجهمية المفترية على الله أنه إنما يخلق الخلق ويكونه بخلق لو كان قوله كن خلقًا فيقال لهم: يا جهلة فالقول الذي يكون به الخلق على زعمكم لو كان خلقًا بم يكونه؟

أليس قول مقالتكم التي تزعمون أن قوله: «كن» إنما يخلقه بقول قلبه وهو عندكم خلقه وذلك القول يخلقه بقول قلبه وهو خلق حتى يصير إلى ما لا غاية له ولا عدد ولا أول، وفي هذا إبطال تكوين الخلق وإنشاء البرية وإحداث ما لم يكن قبل أن يُحْدث الله الشيء وينشئه.

وهذا قول لا يتوهمه ذو لب لو تفكر فيه ووُفق لإدراك الصواب والرشاد، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فهل يتوهم مسلم أن الله تعالى سخر الشمس والقمر والنجوم مسخرات بخلقه، أليس مفهومًا عند من يعقل عن الله خطابه أن الأمر الذي سخر به غير المسخر بالأمر، وأن القول غير المقول له؟!

فتفهموا يا ذوي الحجا عن الله خطابه وعن النبي ﷺ بيانه، لا تصدوا عن سواء السبيل فتضلوا كما ضلت الجهمية عليهم لعائن الله.

فاسمعوا الآن الدليل الواضح البيّن غير المشكل من سنة رسول الله ﷺ بنقل العدل موصولًا إليه على الفرق بين خلق الله وبين كلام الله تعالى.

ثم ساق الأحاديث في ذكر كلمات الله تعالى إلى الحديث ثم قال: أفليس العلم محيطًا يا ذوي الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبي ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه، هل سمعت عالمًا يجيز أن يقول: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله؟ أو يجيز أن يقول: أعوذ بالصفا والمروة؟ أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله؟ هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه...

وقال أبو معاوية بن حازم الضرير رحمه الله تعالى: الكلام فيه بدعة وضلالة ما يكلم فيه النبي ﷺ ولا الصحابة رضي الله عنهم ولا التابعون ولا الصالحون رحمهم الله تعالى يعني قول القرآن مخلوق.

وذُكر عند أبي نعيم - هو الفضل بن دكين - من يقول: (القرآن مخلوق) فقال: والله والله ما سمعت بشيء من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهم.

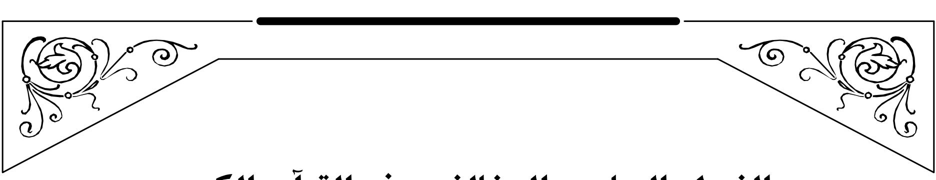
وكلام أئمة السنة في هذا الباب يطول ذكره، ولو أردنا استيعابه لطال الفصل. وقد تكرر نقل الإجماع منهم على إثبات ما أثبت الله ﷻ لنفسه

وأثبته رسول الله ﷺ والصحابة فمن بعدهم ونفي التكييف عنها لا سيما في مسألة العلو وفي هذه المسألة مسألة القرآن وتكليم الله تعالى موسى لأنها أول ما جحده الزنادقة قبحهم الله تعالى وفي ذكر من سمينا كفاية ومن لم نسم منهم أضعاف ذلك.

ولم يختلف منهم اثنان في أن القرآن كلام الله تعالى، ليس بمخلوق، من الله بدأ وإليه يعود، وتقلدوا كفر من قال بخلق القرآن ومنعوا الصلاة خلفه وأفتوا بضرب عنقه وبتحريم ميراثه على المسلمين وحرموا ذبيحته وجزموا بأنها ذبيحة مرتد لا تحل للمسلمين.

فانظر أيها المنصف أقوالهم ثم اعرضها على نصوص الكتاب والسنة، هل تجدهم حادوا عنها قِيد شبر أو قدموا عليها قول أحد من الناس كائنًا من كان حاشى وكلا ومعاذ الله، بل بها اقتدوا ومنها تضلعوا وبنورها استضاءوا وإياها اتبعوا، فهداهم الله بذلك لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.





الفصل السابع: المخالفون في القرآن الكريم

تمهيد[(١)]:

المخالفون لأهل السنة في القرآن سبع طوائف ذكرهم شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج» وابن القيم في «الصواعق».

المبحث الأول: الاتحادية

القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود كلام الله نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش وأضداده، كله عين كلام الله تعالى القائم به، كما قال عارفهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الذي أصلوه، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله وكلامه هو كلام الله.

وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو، فإنهم لما أصّلوا أن الله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة:

أحدهما: أنه معدوم لا وجود له؛ إذ لو كان موجودًا لكان إما داخل العالم

(١) «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (٣/ ٣٨٥، بترقيم الشاملة آليًّا)، «ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول» لحافظ بن أحمد الحكمي (١/ ٤٨١).

وإما خارجًا عنه، وهذا معلوم بالضرورة، فإنه إذا كان قائمًا بنفسه فإما أن يكون مباينًا للعالم أو محدثًا له إما داخلًا فيه وإما خارجًا عنه.

الأمر الثاني: أن يكون هو عين هذا العالم فإنه يصح أن يقال فيه حينئذٍ: إنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينًا له ولا حالًّا فيه إذ هو عينه والشيء لا يباين نفسه ولا يحايثها.

فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده والحكم عليه بأنه معدوم، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا من خلفه ولا أمامه فرارًا إلى ما لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتي به شريعة.

ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن يكون ساريًا فيه حالًّا فهو في كل مكان بذاته. وهو قول جميع الجهمية الأقدمين.

الوجه الثاني: أن يكون وجوده في الذهن لا في الخارج، فيكون وجوده سبحانه وجودًا عقليًّا؛ إذ لو كان موجودًا في الأعيان لكان إما عين هذا العالم أو غيره، ولو كان غيره لكان إما بائنًا عنه أو حالًّا فيه، وكلاهما باطل فثبت أنه عين هذا العالم فله حينئذٍ كل اسم حسن وقبيح وكل صفة كمال ونقص وكل كلام حق وباطل، نعوذ بالله من ذلك.

*** *** ***

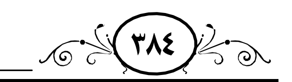
المبحث الثاني: مذهب الفلاسفة

وهم المتأخرون أتباع أرسطو وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم: إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه.

ولهذه النفوس عندهم ثلاث قوى: قوة التصور وقوة التخيل وقوة التعبير. فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عن غيرها. وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس فتتصور المعقول صورًا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج، وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية. قالوا: وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها وتشكيل تلك الصورة العقلية لعين الرائي فيرى الملائكة ويسمع خطابهم، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج.

فهذا أصل هؤلاء في إثبات كلام الرب الذي عرفت به الرسل ودعت إليه وهو القائم بنفسه المباين لخلقه العالي فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته العالم بجميع المعلومات القادر على كل شيء، فهم أنكروا ذلك كله.





المبحث الثالث: مذهب الجهمية

وهم النفاة لصفات الرب تعالى القائلون: إن كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته فلم يقم بذاته سبحانه.

فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا في فروعه.

قال الأشعري في كتاب «المقالات»: اختلفت المعتزلة في كلام الله هل هو جسم أو ليس بجسم وفي خلقه - على ستة أقاويل:

فالفرقة الأولى: يزعمون أن كلام الله جسم وأنه مخلوق وأنه لا شيء إلا الجسم.

والفرقة الثانية: زعموا أن كلام الخلق عَرَض وهو حركة لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة وأن كلام الخالق جسم وأن ذلك الجسم صوت منقطع مؤلف مسموع وهو فعل الله وخلقه. وهذا قول الهذيل وأصحابه. وأحال النظام أن يكون كلام الله في أماكن كثيرة أو مكانين في وقت واحد وزعم أنه في المكان الذي خُلق فيه.

والفرقة الثالثة من المعتزلة: تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عَرَض وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، إذا تلاه تالٍ فهو يوجد مع تلاوته، وإذا كتبه وُجد مع كتابته وإذا حفظه وُجد مع حفظه. وهو يوجد في الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال.

والفرقة الرابعة: يزعمون أن كلام الله ﷻ عرض وأنه مخلوق. وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد، وزعموا أن المكان الذي خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده في غيره. وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين.

الفرقة الخامسة: أصحاب معمر: يزعمون أن القرآن عرض، والأعراض عندهم قسمان: قسم منهما يفعله الأحياء وقسم منهما يفعله الأموات. ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلًا للأحياء، والقرآن مفعول وهو عرض، ومحال أن يكون الله فعله في الحقيقة لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلًا لله، وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذي يسمع منه إذا سمع من الشجرة فهو فعل لها وحيث سمع فهو فعل المحل الذي حل فيه.

الفرقة السادسة: يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، وهذا قول الإسكافي.

واختلفت المعتزلة في كلام الله هل يبقى؟

فقالت فرقة منهم: يبقى بعد خلقه. وقالت فرقة أخرى: لا يبقى وإنما يوجد في الوقت الذي خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك. وهذا المذهب هو من فروع ذلك الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله ولصريح المعقول والفطر؛ مِن جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه وصفاته ونفي قيام الأفعال به.

فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف ولا فعل، كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فَعّالًا مدبرًا متصرفًا في خلقه، يعلم ويقرر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمهما، وذلك ينفي حقيقة الإلهية، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالمين ولا إله، فضلًا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه.

المبحث الرابع: مذهب الكلابية

أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، قالوا: إن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة وإنه لازم ذات الرب كلزوم الحياة والعلم وإنه لا يسمع على الحقيقة والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهي مخلوقة، وهو أربعة معانٍ في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، فهي أنواع لذلك المعنى القديم الذي لا يُسمع وذلك المعنى هو المتلو.

وهذا المذهب أول من يُعرف أنه قال به ابن كلاب، وبناه على أن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب، والقرآن اسم لذلك المعنى وهو غير مخلوق.

المبحث الخامس: مذهب الأشعري ومن وافقه: إنه معنى واحد قائم بذات الرب تعالى

لأنه ليس بحرف ولا صوت ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء، وهو عين الأمر وعين النهي وعين الخبر وعين الاستخبار، الكل واحد، وهو عين التوراة وعين الإنجيل وعين القرآن والزبور، وكونه أمرًا ونهيًا وخبرًا واستخبارًا صفات لذلك المعنى الواحد لا أنواع له، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء، وكونه قرآنًا وتوراة وإنجيلًا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عُبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنًا وإذا عُبر عنه بالعبرانية كان توراة وإذا عُبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا، والمعنى واحد، وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية وهي خلق من المخلوقات.

وعنده لم يتكلم الله بهذا الكلام العربي ولا سُمع من الله. وعنده ذلك

المعنى سُمع من الله حقيقة ويجوز أن يُرى ويُشم ويذاق ويُلمس ويدرك بالحواس الخمس؛ إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود، فكل وجود يصح تعلق الإدراكات كلها به كما قرره في مسألة رؤية من ليس في جهة الرائي وأنه يُرى حقيقة وليس مقابلًا للرائي. هذا قولهم في الرؤية وذلك قولهم في الكلام. والبلية العظمى نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة وأنهم أهل الحق ومَن عداهم أهل الباطل.

وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كافٍ في الجزم ببطلانه، وهو لا يُتصور إلا كما تُصور المستحيلات الممتنعات.

وهذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى، ويسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته وإرادته ومشيئته.

المبحث السادس: مذهب الكرامية

وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن. فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلًا كما ألزموا به الكرامية في مسألة الكلام فهو لازم لهم في مسألة الفعل، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم فإنهم أثبتوا كلامًا وفعلًا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل وجعلوا لها فرارًا من القول بحوادث لا أول لها، ومنازعوهم أبطلوا حقيقة الكلام والفعل وقالوا: لم يقم به فعل ولا كلام ألبتة. وأما من أثبت منهم معنى قائمًا بنفسه سبحانه، فلو كان ما أثبته مفعولًا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن خارجًا عنهما، فهم لم يثبتوا لله كلامًا ولا فعلًا، وأما الكرامية فإنهم جعلوه متكلمًا بعد أن لم يكن متكلمًا كما جعله خصومهم فاعلًا بعد أن لم يكن فاعلًا.

المبحث السابع: مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث

إنه صفة قديمة قائمة بذات الرب تعالى، لم يزل ولا يزال لا يتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات، سمعه جبريل منه وسمعه موسى بلا واسطة، ويُسمعه سبحانه من يشاء، وإسماعه نوعان: بواسطة وبلا واسطة، ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضًا، بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد، ثم لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم، بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفات الحياة والسمع والبصر.

وجمهور العقلاء قالوا: إن تصور هذا المذهب كافٍ في الجزم في بطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل، والعجب إنها هي الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها.

ثم ذكر رحمه الله تعالى قول أتباع الرسل وأطال على ذلك ثم مسألة تكلم العباد بالقرآن وساق فيه كثيرًا من كلام البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه» وفي كتاب «خلق أفعال العباد» لأنه من أحسن الأئمة توضيحًا وتفصيلًا في هذه المسألة لما جرى عليه من المحنة في شأنها، ثم ذكر الكلام على حروف المعجم وساق فيه أقوال الأئمة ثم ذكر اللفظية في أثناء ذلك والواقفة ثم ذكر فصلًا في الكتابة له في الرق وغيره ثم فصلًا في السماع ثم فصلًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في أول من أظهر إنكار أن

الله سبحانه يتكلم بصوت في أثناء المئة الثالثة ابن كلاب، وأنكر عليه ذلك أئمة الحديث كأحمد والبخاري وغيرهما، وفي غضون هذه الفصول أبحاث نفيسة لا يستغنى عنها فلتراجع منه.

ثم قال رحمه الله تعالى: فصل: منشأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى: هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته؟ على قولين: فقالت طائفة: كلامه بغير مشيئته واختياره. ثم انقسم هؤلاء أربع فرق: قالت فرقة: هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به، كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو. وفرقة قالت: بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى، هو به متكلم، وهو قول الكلابية ومن تبعهم، وانقسم هؤلاء فرقتين: فرقة قالت: هو معانٍ متعددة في أنفسها أمر ونهي وخبر واستخبار، ومعنى جامع لهذه الأربعة. وفرقة قالت: بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض. وفرقة قالت: كلامه هو هذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلمًا. وهذا قول المعتزلة، وهو في الأصل قول الجهمية، تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم. وفرقة قالت: يتكلم بقدرته ومشيئته كلامًا قائمًا بذاته سبحانه كما يقوم به سائر أفعاله، لكنه حادث النوع. وعندهم أنه صار فاعلًا بعد أن لم يكن فاعلًا. فقول هؤلاء في الفعل المتصل كقول أولئك في الفعل المنفصل، وهذا قول الكرامية: وفرقة قالت: يتكلم بمشيئته، وكلامه سبحانه هو الذي يتكلم به الناس كله حقه وباطله وصدقه وكذبه كما يقوله طوائف الاتحادية.

وقال أهل الحديث والسنة: إنه لم يزل سبحانه متكلمًا إذا شاء ويتكلم بمشيئته، ولم تتجدد له هذه الصفة بل كونه متكلمًا بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة، وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته، وكلامه ليس متحدًا بهم ولا حالًّا فيهم.

واختلفت الفرق: هل يُسمع كلام الله على الحقيقة؟ فقالت فرقة: لا يُسمع كلامه على الحقيقة إنما تُسمع حكايته والعبارة عنه، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم. وقالت بقية الطوائف: بل يُسمع كلامه حقيقة. ثم اختلفوا: فقالت فرقة: يسمعه كل أحد من الله تعالى، وهذا قول الاتحادية. وقالت فرقة: بل لا يُسمع إلا من غيره. وعندهم أن موسى لم يسمع كلام الله منه. فهذا قول الجهمية والمعتزلة.

وقال أهل السنة والحديث: يُسمع كلامه سبحانه منه تارة بلا واسطة كما سمعه موسى وجبريل وغيرهما وكما يكلم عبده يوم القيامة ويكلم أهل الجنة ويكلم الأنبياء في الموقف، ويُسمع من المُبلِّغ عنه كما سمع الأنبياء الوحي من جبريل تبليغًا عنه وكما سمع الصحابة القرآن من رسول الله ﷺ عن الله، فسمعوا كلام الله بواسطة المبلغ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالي.

فإذا قيل: (المسموع مخلوق أو غير مخلوق؟).

قيل: إن أردت المسموع عن الله تعالى فهو كلامه غير مخلوق، وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل: إن سألت عن الكلام المؤدى بذلك الصوت فهو غير مخلوق.

والذين قالوا: (إن الله يتكلم بصوت) فرق أربعة: فرقة قالت: يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه، وهم المعتزلة. وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال، وهم السالمية والاقترانية. وفرقة قالت: يتكلم بصوت حادث في ذاته بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

وقال أهل السنة والحديث: لم يزل الله تعالى متكلمًا بصوت إذا شاء.

والذين قالوا: (لا يتكلم بصوت) فرقتان: أصحاب الفيض والقائلون: إن الكلام معنى قائم بالنفس.



مواضع الاتفاق بين الكتب السماوية

تتفق الكتب السماوية في أمور منها:

١- وحدة المصدر:

فمصدرها واحد؛ فهي منزلة من عند الله، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ١-٤].

٢- وحدة الغاية:

فالكتب السماوية غايتها واحدة، فهي كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وتدعو كذلك إلى دين الإسلام؛ فالإسلام هو دين جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

والإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء:

فنوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١] ويوصي إبراهيم ويعقوب كلاهما

أبناءه قائلًا: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وموسى يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] والحواريون يقولون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

فالإسلام شعار عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

فالغاية – إذًا – هي الدعوة إلى دين الإسلام، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له.

٣- مسائل العقيدة:

فالكتب اشتملت على الإيمان بالغيب، ومسائل العقيدة، كالإيمان بالرسل، والبعث والنشور، والإيمان باليوم الآخر... إلى غير ذلك، فمسائل العقيدة من باب الأخبار التي لا تُنسخ.

ذكَّر نوح قومه بالبعث والنشور، فمما قاله لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. وأعلمَهُم بالملائكة والجنّ؛ ولذلك قال الكفار من قومه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥].

والإيمان باليوم الآخر واضح في دعوة إبراهيم: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي دعوة موسى أشدُّ وضوحًا؛ ولذلك نرى السحرة عندما يخرون سجدًّا يقولون لفرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٣-٧٦].

وجاء في صحف إبراهيم وموسى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وكل الرسل والأنبياء أنذروا أممهم المسيح الدجال، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: «**إني أنذركموه، وما من نبي إلا قد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**»(١).

٤- العبادات:

كثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وقال تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥] وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وقال عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

والصوم كان مفروضًا على من قبلنا كما هو مفروض علينا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٢)، ومسلم (١٦٩).

﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج فرضه إبراهيم عليه السلام، فقد أمره الله بعد بناء الكعبة فنادى بالحج، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾... [الحج: ٢٩]، وقد كان لكل أمة مناسكها وعبادتها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ [الحج: ٣] ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ [الحج: ٦٧].

٥- القواعد العامة:

الكتب السماوية تقرر القواعد العامة التي لا بدّ أن تعيها البشرية في مختلف العصور؛ كقاعدة الثواب والعقاب، وهي أنّ الإنسان يحاسَب بعمله، فيعاقب بذنوبه وأوزاره، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، ويثاب بسعيه وليس له سعي غيره ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

ومن ذلك أن الفلاح الحقيقي يتحقق بتزكية النفس بمنهج الله والعبودية له، وإيثار الآجل على العاجل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٩].

ومن ذلك أنّ الذي يستحق وراثة الأرض هم الصالحون ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقد سأل أبو ذر[١] رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عن محتويات صحف إبراهيم وصحف موسى، ففي الحديث الذي يرويه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر

---

(١) سبق تخريجه.

قال: قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟

قال: «**كانت أمثالًا كلّها: أيها المسلط (أي: الحاكم النافذ السلطان) المبتلى (المختبر) المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها وإن كانت من كافر.**

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله ﷻ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا (مرتحلًا) إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو لمعاش، أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلًا على شانه، حافظًا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله، قل كلامه إلاّ فيما يعنيه».

قلت: يا رسول الله: فما كانت صحف موسى؟

قال: «**كانت عبرًا** (عظات) **كلّها:**

عجبت لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثمّ هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثمّ هو يَنْصَب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثمّ اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل».

٦ - محاربة الفساد والانحراف:

وهذا ما اتفقت عليه الرسالات؛ سواء كان الفساد عقديًّا أو خُلقيًّا، أو انحرافًا عن الفطرة، أو عدوانًا على البشر، أو تطفيفًا في الكيل والميزان، أو غير ذلك.

٧- الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

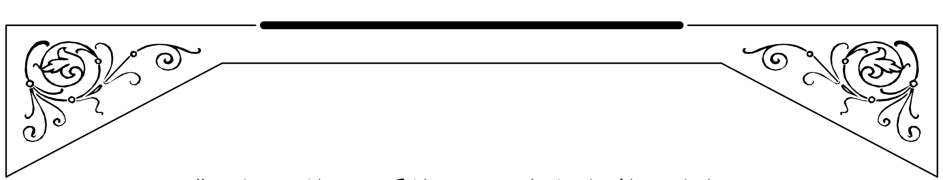
فالكتب كلها دعت إلى مكارم الأخلاق؛ كالعفو عن المسيء، والصبر على الأذى، والقول الحسن، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والتواضع، والعطف على المساكين... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق.

٨- العدل والقسط:

وهذا من مواطن الاتفاق؛ فجميع الأنبياء عليهم السلام حملوا ميزان العدل والقسط، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥][١].



(١) «الرسل والرسالات» للأشقر (ص٢٣٥)، و«الإيمان بالكتب» للحمد (ص: ٣).



مواضع الاختلاف بين الكتب السماوية

تختلف الكتب السماوية في أمور، منها الشرائع:

فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى عليهما السلام في بعض الأمور، وشريعة محمد ﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى عليهما السلام في أمور: قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافًا كليًا؛ فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد مر بنا شيء من ذلك، فالاختلاف بينها إنما يكون في التفاصيل، فعدد الصلوات، وأركانها، وشروطها، ومقادير الزكاة، ومواضع النسك، ونحو ذلك - قد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يُحِل الله أمرًا في شريعة لحكمة، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة يعلمها ﷻ، ولا يلزم أن نعلمها.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١- **الصوم:** فقد كان الصائم يفطر عند غروب الشمس، ويباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني، فخفف الله عن هذه الأمة، وأحله من الغروب إلى الفجر، سواءً نام أم لم ينم، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا

كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٢- الأمور المحرمة: مما حرَّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ثم جاء عيسى عليه السلام فأحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم.

وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة: إحلال الطيبات وتحريم، الخبائث[(١)]. . .

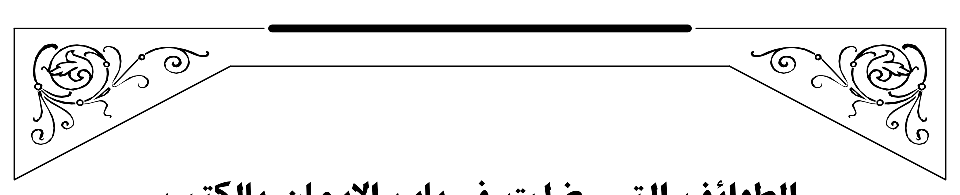
ما يضاد الإيمان بالكتب

يضاد الإيمان بالكتب تكذيبها، والكفر بها، وتحريفها. والإعراضُ عن القرآن، وادعاء نسخه، والتحاكم إلى غيره، وادعاء نقصه، ومضاهاته، ومعارضته[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) «الرسل والرسالات» للأشقر (ص٢٣٥)، و«الإيمان بالكتب» للحمد (ص: ٣).

(٢) «الإيمان بالكتب» (ص: ١٣).



الطوائف التي ضلت في باب الإيمان بالكتب

هناك طوائف كثيرة ضلت في هذا الباب، منها:

١- اليهود: وذلك بتكذيبهم للقرآن، وتكذيبُهم للقرآن هو في الحقيقة تكذيب لجميع الكتب السماوية.

٢- النصارى: يقال عنهم ما قيل عن اليهود، وقد مر الحديث عنهما.

٣- الرافضة: وذلك بادعائهم أن القرآن ناقص ومحرّف، وأن القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزمان من سرداب سامراء...!

ثم إنهم ضلوا في هذا الباب بسبب جعلهم الجفر والجامعة مصدرًا للتلقي عندهم.

وضلوا أيضًا في تأويل القرآن حيث أغرقوا في الباطنية في تأويله.

٤- البابية والبهائية: وذلك بادعائهم نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية بشريعة البابية والبهاء.

٥- التيجانية: وذلك بتفضيلهم أورادَهم وأذكارَهم -كصلاة الفاتح -على القرآن الكريم حيث قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة.

٦- غلاة الصوفية عمومًا: وذلك بادعائهم العلم اللَّدُنِّي الذي يوحى إليهم، ويغنيهم عن القرآن كما يزعمون.

ثم إن مصدر التلقي عندهم ليس القرآن والسنة، بل يقوم على الرؤى

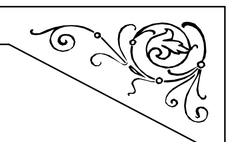
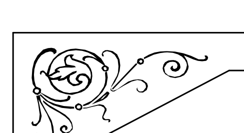
والأحلام والكشف. . . وغير ذلك مما يخالف ما جاء في القرآن.

٧- **النصيرية والدروز وسائر الفرق الباطنية:** وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن، وإغراقهم في التأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصحيحة، وكذلك ادعاء بعضهم نسخ الإسلام.

٨- **المشرعون والقانونيون:** الذين أعرضوا عن تحكيم القرآن، وعارضوه بزبالات أفكارهم، زاعمين أنه لا يناسب العصر الحديث ولا يفي بحاجاته[1].



(١) «الإيمان بالكتب» (ص: ١٣).

فهرس الموضوعات